التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة مريم

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء السادس عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩ - س ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « مريم » أكتبه بعد أن كتبت قبله تفاسير لسور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة، الأنعام ، الأعراف، الأنفال، التوبة ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم، الحجر ، النحل، الإسراء ، الكهف ...

والله - تعالى - أسأل ، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، ونافعا لعباده ، وشفيعا لنا يوم نلقاه ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

١٦ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ - ١٥ / ٧ / ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

تعريف بسورة مريم

١ - سورة مريم من السور المكية .

قال القرطبي : وهى مكية بالإجماع . وهى تسعون وثمان آيات[١] .

وقال ابن كثير : وقد روى محمد بن إسحاق فى السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - قرأ صدر هذه السورة على النجاشى[٢] .

وكان نزولها بعد سورة فاطر[٣] .

٢ - ويبدو أن تسميتها بهذا الاسم كان بتوقيف من النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فقد أخرج الطبرانى والديلمى ، من طريق أبى بكر بن عبد الله ابن أبى مريم ، عن أبيه عن جده ، قال : أتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فقلت : ولدت لى الليلة جارية . فقال : والليلة أنزلت على سورة مريم .

وجاء فيما روى عن ابن عباس ، تسميتها بسورة « كهيعص »[٤] .

وقد تكرر اسم مريم فى القرآن ثلاثين مرة ، ولم تذكر امرأة سواها باسمها الصريح .

٣ - والذى يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها زاخرة بالحديث عن عدد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٧٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٠ .
(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٢٧ .
(٤) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٥٦ .

فقد افتتحت بالحديث عن تلك الدعوات التى تضرع بها زكريا إلى ربه، لكى يهب له وليا، يرثه ويرث من آل يعقوب.

وقد استجاب الله - تعالى - دعاء زكريا، فوهبه يحيي كما قال - تعالى - : «يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيي لم نجعل له من قبل سميا».

٤ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن قصة مريم، بصورة فيها شيء من التفصيل، فذكرت اعتزالها لقومها، وما دار بينهم وبينها من محاورات، ومولدها لعيسى وإتيانها به قومها، وما دار بينها وبينهم فى شأنه. ثم ختمت هذه القصة بالقول الحق فى شأن عيسى، قال - تعالى - : «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد - سبحانه - ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم».

٥ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن طرف من قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس، وختمت حديثها عن الرسل الكرام بقوله - تعالى - : «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح. ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل. وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا».

٦ - ثم حكت السورة الكريمة أنماطا من الشبهات التى تفوه بها الضالون، ومن هذه الشبهات ما يتعلق بالبعث والنشور، ومنها ما يتعلق بموقفهم من القرآن الكريم، ومنها ما يتعلق بزعمهم أن لله ولدا ... وقد ردت على كل شبهة من هذه الشبهات بما يبطلها، ويخرس ألسنة قائليها.

ومن ذلك قوله - تعالى - : «ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا. أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ...».

وقوله - سبحانه - : «أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا.

أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه مايقول ويأتينا فردا ... » .

وقوله - عز وجل - : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدا . تكاد السموات يتفطرن منه . وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . ومايِنبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ... » .

٧ - ومن هذا العرض الإجمالى لآيات السورة الكريمة ، يتبين لنا أن سورة مريم قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى نفى الشريك والولد عن ذاته - سبحانه - ، كما اهتمت - أيضا - بإقامة الأدلة على أن البعث حق ، وعلى أن الناس سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة .

كما ذخرت السورة بالحديث عن قصص بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - تارة بشىء من التفصيل كما فى قصة زكريا وعيسى ابن مريم ، وتارة بشىء من الاختصار والتركيز كما فى قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس .

كما نراها بوضوح تحكى شبهات المشركين، ثم ترد عليها بما يبطلها ...

وقد ساقت السورة ماساقت من قضايا ، بأسلوب عاطفى بديع ، يهيج المشاعر نحو الخير والحق والفضيلة ، وينفر من الشر والباطل والرذيلة ، ويطلع العقول على نماذج شتى من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده الصالحين ترى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : « ذكر رحمة عبده زكريا ... » .

وفى مثل قوله - سبحانه - : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » .

٨ - قال بعض العلماء ماملخصه : والظل الغالب فى جو السورة هو ظل الرحمة والرضا والإنعام . فهى تبدأ بذكر رحمة ربك لعبده زكريا . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها فى ثنايا السورة كثيرا . ويكثر فيها اسم « الرحمن » .

وإنك لتحس لمسات الرحمـــة الندية . ودبيبها اللطيف فى الكلمات والعبارات والظلال، كما تحس إنتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التى لا تطيقها فطرته ...

كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا ، فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء ، وفيه عمق كألفاظ: رضيا، سريا ، حفيا ، نجيا ...

فأما المواضع التى تقتضى الشدة والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة فى الغالب ، كالفاظ : ضدا ، هدا ، إدا ، أزا(١) .

٨ ـ وبعد : فهذا تعريف لسورة مريم ، نرجو أن يكون القارىء له ، قد أخذ صورة مركزة عن أهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) من تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٦ ص ٤٢٢ المرحوم سيد قطب .

التفسير

قال الله تعالى: «كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)».

سورة «مريم» من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجي.

وقد سبق أن تكلمنا بشيء من التفصيل، عن آراء العلماء في المراد بهذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور، وذلك عند تفسيرنا لسور: البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس ...

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة، قد وردت في إفتتاح بعض سور القرآن، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن.

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله - تعالى -، ها كم القرآن تروونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون به كلامكم، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله، أو عشر سور من مثله، بل بسورة واحدة من مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ...

فلما عجزوا — وهم أهل الفصاحة والبيان — ثبت أن غيرهم أعجز، وأن

هذا القرآن من عند الله «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

وقوله - تعالى - : «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» خبر لمبتدأ محذوف. أى : المتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا.

ولفظ «ذكر» مصدر مضاف لمفعوله. ولفظ «رحمة» مصدر مضاف لفاعله وهو ربك، و«عبده» مفعول به للمصدر الذى هو رحمة.

«وزكريا» هو واحد من أنبياء الله الكرام، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام -.

والمعنى : هذا الذى نذكره لك يا محمد، هو جانب من قصة عبدنا زكريا، وطرف من مظاهر الرحمة التى اختصصناه بها، ومنحناه إياها.

وقوله : «إذ نادى ربه نداء خفياً» ظرف لرحمة ربك. والمراد بالنداء : الدعاء الذى تضرع به زكريا إلى ربه - عز وجل -.

أى : هذا الذى قرأناه عليك يا محمد فى أول هذه السورة. وذكرناه لك، هو جانب من رحمتنا لعبدنا زكريا. وقت أن نادانا وتضرع إلينا فى خفاء وستر، ملتمسا منا الذرية الصالحة.

وإنما أخفى زكريا دعاءه، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن الرياء، وقرب من الإخلاص، وقد أمر الله - تعالى - به فى قوله : «ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين».

ويبدو أن هذا الدعاء قد تضرعَ به زكريا إلى ربه، فى أوقات تردده على مريم، وإطلاعه على ما أعطاها الله - تعالى - من رزق وفير.

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : «فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها

رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ».

هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »(١).

ثم بين - سبحانه - ما نادى به زكريا ربه فقال : « قال رب إنى وهن العظم منى . . . » والوهن : الضعف . يقال وهن الجسم يهن - من باب وعد - إذا ضعف .

وخص العظم بالذكر ، لأنه دعامة البدن ، وعماد الجسم ، وبه قوامه ، فإذا ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف . وأفرد لفظ العظم لإرادة الجنس .

« واشتعل الرأس شيبا » والمراد باشتعال الرأس شيبا : إنتشار بياض الشيب فيه . والألف واللام فى لفظ « الرأس » قاما مقام المضاف إليه .

والمراد : واشتعل رأسى شيبا ، وهذا يدل على تقدم السن ، كما يشهد له قوله - تعالى - « وقد بلغت من الكبر عتيا » وقوله - عز وجل - : « وقد بلغنى الكبر . . . » .

قال صاحب الكشاف : « شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنتشاره فى الشعر . . باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزا ولم يضف إلى الرأس إكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة ... »(٢) .

---

(١) سورة آل عمران من الآيتان ٣٧ ، ٣٨

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤

وقـــوله : « ولم أكن بدعائك رب شقيا » أي : ولم أكن فيما مضى من عمرى مخيب الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهي إجابة دعائي ، وما دام الأمر كذلك فأجب دعائي في الزمان الآتي من عمرى ، كما أجبتـه في الزمان الماضي منه .

فأنت ترى أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر في دعائه أسمى ألوان الأدب مع خالقه ، حيث توسل إليه - سبحانه - بضعف بدنه ، وبتقدم سنه ، وبما عوده إياه من إجابة دعائه في الماضي .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب الأخرى لإلحاح زكريا في الدعاء فقال : « وإني خفت الموالي من ورائي ، وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب » .

والموالي : جمع مولى . والمراد بهم هنا : عصبته وأبناء عمومته الذين يلون أمره من بعد موته ، وكان لا يثق فيهم لسوء سلوكهم .

والعـاقر : العقيم الذي لا يلد ، ويطلق على الرجل والمرأة ، يقال : امرأة عاقر ، ورجل عاقر .

أي : وإني - يا إلهي - قد خفت ما يفعله أقاربي « من ورائي » أي : من بعد موتي ، من تضييع لأمور الدين ، ومن عدم القيام بحقه . « وكانت امرأتي عاقرا » لا تلد قط لا في شبابها ولا في غير شبابها ، « فهب لي » يا إلهي « من لدنك » أي : من عندك « وليا » أي : ولدا من صلبي ، هـذا الولد « يرثني » في العلم والنبوة « ويرث » أيضا « من آل يعقوب » ابن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة « واجعله » يارب « رضيا » أي : رضيا عندك في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته .

ففي هاتين الآيتين نرى زكريا يجتهد في الدعاء بأن يرزقه الله الولد ، لا من أجل شهوة دنيوية ، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله

والحرص على من يرثه فى علمه ونبوته، ويكون مرضيا عنده ـ عز وجل ـ .

قال الآلوسى ما ملخصه: «وقوله «من ورائى» المراد به بعد موتى، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى: خفت فعل الموالى من ورائى أو جور الموالى ... وهم عصبة الرجل ... وكانوا على سائر الأقوال شرار بنى إسرائيل، فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته»[١] .

وفى قوله «فهب لى من لدنك وليا» إعتراف عميق بقدرة الله ـ تعالى ـ لأن مثل هذا العطاء لا يرجى إلا منه ـ عز وجل ـ، بعد أن تقدمت بزكريا السن، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة .

وقد أشار ـ سبحانه ـ فى آية أخرى إلى أنه أزال عنها العقم وأصلحها للولادة فقال: «وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ....»[٢] أى: وجعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عقيما من حين شبابها إلى شيبها ..

والمراد بالوارثة فى قوله «يرثنى» وراثة العلم والنبوة والصفات الحميدة قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: وقوله: «وإنى خفت الموالى من ورائى» قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول، وعن الكسائى أنه سكن الياء ..

ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده فى الناس تصرفا سيئا . فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ... لا أنه خشى من وراثتهم له ماله . فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد، وأن يأنف من وراثة عصبته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٦١

(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٨٩، ٩٠

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لا نورث ماتركنا صدقة) وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : (نحن معاشر الأنبياء لانورث) .

وعلى هـذا فتعين حمل قوله « فهب لى من لدنك وليا يرثنى » على ميراث النبوة ولهـذا قال : « ويرث من آل يعقوب » كقوله : « وورث سليمان داود » أى : فى النبوة ، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل ، أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح فى الحديث : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركنا فهو صدقة »(١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ومعنى « يرثنى » أى : إرث علم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال ، ويدل لذلك أمران .

أحدهما قوله : « ويرث من آل يعقوب » ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان ، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .

والأمر الثانى ما جاء من الأدلة أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى بكر الصديق أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة »(٢) .

ثم بين القرآن الكريم أن الله ـ تعالى ـ قد أجاب بفضله وكرمه دعاء عبده زكريا . كما بين ما قاله زكريا عندما بشره ربه بغلام إسمه يحيى فقال ـ تعالى ـ

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١١١

(٢) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٩٦ للشيخ الشنقيطى ـ رحمه الله ـ

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا (٧) قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا (٨) قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (٩) قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا (١٠) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١١) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « يازكريا » فى الكلام حذف ، أى : فاستجاب الله دعاءه فقال : « يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ... » فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء . أحدها : إجابة دعائه وهى كرامة . الثانى : إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث : أن يفرد بتسميته ... »[١] .

وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أن الذى بشر زكريا هو بعض الملائكة ، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى فى المحراب ، قال - تعالى - : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين »[٢] .

وقوله - سبحانه - : « اسمه يحيى » يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله - تعالى - ليحيى ، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره ، وهذا لون من التشريف والتكريم .

وقوله - تعالى - : « لم نجعل له من قبل سميا » أى لم نجعل أحدا من قبل مشاركا له فى هذا الاسم ، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٨٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

قال بعض العلماء : «وقول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أي : نظيرا يساويه فى السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى . فالقول الأول هو الصواب ، وممن قال به : ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم ...»(١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك وما قاله زكريا بعد هذه البشارة السارة . فقال تعالى : « قال رب أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا . وقد بلغت من الكبر عتيا » .

فالجملة الكريمة إستئناف مبنى على سؤال تقديره : فماذا قال زكريا عندما بشره الله - تعالى - بيحيى ؟

ولفظ « أنى » بمعنى : كيف ، أو بمعنى : من أين .

أى قال زكريا مخاطبا ربه بعد أن بشره بابنه يحيى : يارب كيف يكون لى غلام ، وحال امرأتى أنها كانت عاقرا فى شبابها وفى شيخوختها ، وحالى أنا أنى قد بلغت من الكبر عتيا ، أى : قد تقدمت فى السن تقدما كبيرا .

يقال : عتى الشيخ يعتو عتيا - بكسر العين وضمها - إذا بلغ النهاية فى الكبر .

قال ابن جرير ، قوله : « وقدبلغت من الكبرعتيا » يقول : وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها ، يقال منه العوداليابس : عات وعاس . وقد عتا يعتو عتوا وعتيا . . . وكل متناه فى كبر أو فساد أو كفر فهو عات ...»(٢) .

فإن قيل « ما المراد باستفهام زكريا - عليه السلام - مع علمه بقدرة الله - تعالى - على كل شىء ؟

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار ، لأنه

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٢١٤

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ٣٢ طبعة بولاق سنة ١٣٢٨ هـ

لم يكن يعلم أن الله ـ تعالى ـ سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر ، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى ، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها .

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته .

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته . وليس المقصود به إستحالة ذلك على قدرة الله ـ تعالى ـ لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شىء .

ثم حكى ـ سبحانه ـ مارد به على استفهام زكريا فقال : « قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .

وقوله : « كذلك » خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمر كذلك .

قال الآلوسى : «وذلك إشارة إلى قول زكريا ـ عليه السلام ـ وجملة «هو على هين» مفعول «قال» الثانى وجملة « الأمر كذلك » مع جملة «قال ربك» الخ مفعول « قال » الأول ... »(١)

والمعنى : قال الله ـ تعالى ـ مجيبا على استفهام زكريا ، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا ، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا ، ولكن ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا فى منحك هـذا الغلام ، فإن قدرتنا لا يعجزها شىء ، ولا تخضع لما جرت به العادات .

وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها « هو على هين » أى : يسير سهل .

ثم ذكر له ـ سبحانه ـ ماهو أعجب مما سأل عنه فقال : « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .

أى : لا تعجب يازكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٦٧ .

فإني أنا الله الذي أوجدتك من العدم ، ومن أوجدك من العدم ، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور .

فالآية الكريمة قد ساقت بطريق منطقي برهاني ، ما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - ، وما يزيد في اطمئنان قلب زكريا - عليه السلام - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما التمسه زكريا - عليه السلام - من خالقه فقال : « قال رب اجعل لي آية ... » .

أي : اجعل لي علامة استدل بها على وقوع مابشرتني به ، لأزداد سرورا واطمئنانا . ولأعرف الوقت الذي تحمل فيه امرأتي بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك .

فأجابه الله - تعالى - بقوله : « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » .

أي : قال - تعالى - لعبده زكريا : يا زكريا علامة وقوع مابشرتك به ، أنك تجد نفسك عاجزا عن أن تكلم الناس بلسانك ، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق ، سليم الحواس ليس بك من خرس أو بكم ولكنك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة .

فقوله : « سويا » حال من فاعل « تكلم » وهو زكريا أي : حال كونك يا زكريا سوى الخلق، سليم الجوارح، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا . ثم بين - سبحانه - ما كان من زكريا بعد ذلك فقال : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » .

والمحراب : المصلى ، أو الغرفة التي كان يجلس فيها في بيت المقدس ، أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب ، لأنها الأماكن التي تحارب فيها الشياطين .

أي : فخرج زكريا - عليه السلام - على قومه من المكان الذي كان يصلي

فيه ، « فأوحى إليهم » أى : فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه « أن سبحوا » الله - تعالى - وقدسوه « بكرة » أى : فى أوائل النهار « وعشيا » أى : فى أواخره .

وقد ذكر - سبحانه - فى آية أخرى ، مايشير إلى أن هذا المحراب الذى خرج منه زكريا - عليه السلام - على قومه ، هو ذلك المكان الذى بشره الله - تعالى - فيه بيحيى .

قال - تعالى - : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين »(١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من رحمة الله - تعالى - بعبده زكريا ، ومن الدعوات التى تضرع بها إلى خالقه - عز وجل - ، وأن الله - تعالى - قد أجاب له دعاءه ، وبشره بيحيى ، وعرفه بالعلامة التى بها يعرف وقوع مابشره به ، زيادة فى اطمئنانه وسروره .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن يحيى ، فبينت ما أمره الله - تعالى - به ، وما منحه من صفات فاضلة . فقال - تعالى - :

« يا يَحيى خُذِ الكتابَ بقُوةٍ وآتيناهُ الْحُكم صبياً (١٢) وحناناً مِنْ لدُنّا وزكاةً وكانَ تقيًّا (١٣) وبَرًّا بوَالدَيهِ ولم يكُنْ جبَّاراً عَصِيًّا (١٤) وسلامٌ عليْهِ يومَ وُلدَ ويومَ يموتُ ، ويومَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) » .

وقوله - سبحانه - : « يايحيى خذ الكتاب بقوة » مقول لقول محذوف ، والسر فى حذفه المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم .

والتقدير : وبعد أن ولد يحيى ، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا : يايحيى خذ الكتاب الذى هو التوراة « بقوة » أى : بجد واجتهاد ، وتفهم لمعناه

(١) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

على الوجه الصحيح ، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب ، فإن بركة العلم فى العمل به .

والجار والمجرور « بقوة » حال من فاعل خذ وهو يحيى ، والباء للملابسة أى : خذه حالة كونك متلبسا بحفظه وتنفيذ أحكامه بشدة وثبات .

وقوله : « وآتيناه الحكم صبيا » أى : وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا « الحكم » أى : فهم الكتاب والعمل بأحكامه ، وهو فى سن الصبا .

قيل : كان سنه ثلاث سنين ، وقال سبع سنين .

قال الآلوسى : « أخرج أبو نعيم ، وابن مردوية ، والديلمى ، عن ابن عباس ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى ذلك : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين »(١) .

وقال الجمل فى حاشيته : فإن قلت : كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا ؟

قلت : لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات . إذا ثبت هذا . فلا تمنع صيرورة الصبي نبيا . وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير ... »(٢) .

والذى تطمئن إليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا : العلم النافع مع العمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها .

قال ابن كثير : قوله : « وآتيناه الحكم صبيا » أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٧٢
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ص ٥٤

اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا . قال : فلهذا أنزل الله : «وآتيناه الحكم صبيا»[1] .

وقوله - تعالى - : «وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا» معطوف على «الحكم» .

أى : وأعطيناه الحكم صبيا ، وأعطيناه حنانا ....

قال القرطبي ما ملخصه : الحنان : الشفقة والرحمة والمحبة ، وهو فعل من أفعال النفس . . .

وأصله : من حنان الناقة على ولدها . . قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض[2]

والمعنى : منحنا «يحيى» الحكم صبيا ، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه ورحمة فى قلبه جعلته يعطف على غيره ، وأعطيناه كذلك «زكاة» أى : طهارة فى النفس ، أبعدته عن ارتكاب مانهى الله عنه ، وجعلته سباقا لفعل الخير ، «وكان تقيا» أى مطيعا لنا فى كل ما نأمره به ، أو ننهاه عنه .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تلك الصفات الكريمة ليحيى صفات أخرى فقال : «وبرا بوالديه» أى : وجعلناه كثير البر بوالديه ، والإحسان إليهما .

«ولم يكن جبارا» أى: مستكبرا متعاليا مغرورا «عصيا» أى : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات ببيان العاقبة الحسنة التى ادخرها ليحيى - عليه السلام - فقال : «وسلام عليه يوم ولد» أى : وتحية وأمان له منا يوم ولادته «ويوم يموت» ويفارق هذه الدنيا «ويوم يبعث حيا» للحساب يوم القيامة .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٣

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٨٧

وخص ـ سبحانه ـ هذه الأوقات الثلاثة بالذكر، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها .

قال سفيان بن عيينة : أوحش مايكون المرء فى ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه . ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم . ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم .

وبعد هذا الحديث عن جانب من قصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصة أخرى أعجب من قصة ميلاد يحيى ، ألا وهى قصة مريم وميلادها لابنها ـ عليه السلام ـ فقال ـ تعالى ـ :

« واذْكُرْ فى الكتابِ مَرْيَم إذِ انتبذَتْ مِنْ أهلِها مكاناً شَرْقياً (١٦) فاتخذَتْ مِن دُونهم حجاباً فأرسَلْنا إليها رُوحَنا فتمثَّلَ لها بشراً سويًّا (١٧) قالَتْ إنِّى أعوذُ بالرَّحمنِ منكَ إن كنتَ تقيًّا (١٨) قال إنما أنا رسولُ ربِّكِ لأهبَ لكِ غلاماً زكيًّا (١٩) قالتْ أنى يكونُ لى غلامٌ ولم يمسَسْنى بشرٌ ولم أكُ بغيًّا (٢٠) قال كذلكِ قالَ ربُّكِ هُو علىّ هيِّنٌ ولنجْعلهُ آيةً للناسِ ورحمةً منَّا وكانَ أمراً مقضيًّا (٢١) » .

قال ابن كثير : لما ذكر ـ تعالى ـ قصة زكريا ـ عليه السلام ـ وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجته ولدا زكيا طاهرا مباركا ، عطف بذكر قصة مريم ، فى إيجادها ولدها عيسى ـ عليه السلام ـ منها من غير أب .

وهى مريم ابنة عمران ـ من سلالة داود ـ عليه السلام ـ وكانت من بيت طاهر فى بنى إسرائيل . . . ونشأت نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناسكات . . .

وكانت فى كفالة زوج أختها زكريا ـ عليه السلام ـ ورأى لها من

الكرامات الهائلة ما بهره ... »(١) .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - « فى الكتاب » أى فى هذه السورة الكريمة ، أو فى القرآن الكريم ، خبر مريم وقصتها « إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً » أى : وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم فى مكان يلى الناحية الشرقية من بيت المقدس ، أو من بيتها الذى كانت تسكنه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - « إذ انتبذت من أهلها » إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ معناه : الطرح والرمى ، فكأنها ألقت بنفسها فى هذا المكان لتتخلى للعبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله - تعالى - بصالح الأعمال .

قال القرطبى : « واختلف الناس لم انتبذت . فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله ، وهذا حسن . وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة ..

فقوله « مكانا شرقيا » أى : مكانا من جانب الشرق . والشرق - بسكون الراء - المكان الذى تشرق فيه الشمس . والشرق - بفتح الراء - الشمس .

وإنما خص المكان بالشرق ، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار ... »(٢)

وقوله : « فاتخذت من دونهم حجابا » تأكيد لانتباذها من أهلها ، واعتزالها إياهم .

أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها ، فى مكان يلى شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها وبينهم حجابا وساترا لتتفرغ لعبادة ربها .

ثم بين - سبحانه - ما أكرمها به فى حال خلوتها فقال : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٤ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٩٠ .

أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل - عليه السلام - فتشبه لها فى صورة بشر سوى معتدل الهيئة ، كامل البنية ، كأحسن ما يكون الإنسان .

يقال : رجل سوى ، إذا كان تام الخلقة عظيم الخلق ، لا يعيبه فى شأن من شئونه إفراط أو تفريط .

والإضافة فى قوله « روحنا » للتشريف والتكريم . وسمى جبريل - عليه السلام - روحا لمشابهة الروح الحقيقية فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر . فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .

وإنما تمثل لها جبريل - عليه السلام - فى صورة بشر سوى . لتستأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولو بدا لها فى صورته التى خلقه الله - تعالى - عليها ، لنفرت منه ، ولم تستطع مكالمته .

وقوله : « بشراً سويا » حال من ضمير الفاعل فى قوله « فتمثل لها » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين مريم وبين جبريل من حوار ونقاش فقال : « قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا » .

أى : قالت لجبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى : إنى أعوذ وألتجىء إلى الرحمن منك ، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه .

وخصت الرحمن بالذكر . لتثير مشاعر التقوى فى نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .

وجواب هذا الشرط محذوف ، أى : إن كنت تقيا ، فابتعد عنى ، واتركنى فى خلوتى لأتفرغ لعبادة الله - تعالى - .

وبهذا القول الذى حكاه القرآن عن مريم ، تكون قد جمعت بين الاعتصام

ربها - وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله . إن سولت له نفسه إرادتها بسوء . كما أن قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة ، فهى تقول له هذا القول ، وهى تراه بشرا سويا ، وفى مكان بمعزل عن الناس . . .

وهنا يجيبها جبريل - كما حكى القرآن عنه - بقوله : « قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » .

أى : قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها : إنما أنا يا مريم رسول ربك الذى استعذت به . والتجأت إليه ، فلا تخافى ولا تجزعى وقد أرسلنى - سبحانه - إليك ، لأهب لك بإذنه وقدرته غلاما زكيا ، أى : ولدا طاهراً من الذنوب والمعاصى ، كثير الخير والبركات .

ونسب الهبة لنفسه ، لكونه سبباً فيها . وقرأ نافع وأبو عمرو : « ليهب لك » بالياء المفتوحة بعد اللام أى : ليهب لك ربك غلاما زكيا .

وهنا تزداد حيرة مريم ، ويشتد عجبها فتقول : « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا » .

أى : قالت على سبيل التعجب مما سمعته . كيف يكون لى غلام ، والحال أنى لم يمسنى بشر من الرجال عن طريق الزواج الذى أحله الله - تعالى - ، ولم أك فى يوم من الأيام بغيا ، أى فاجرة تبغى الرجال . أو يبغونها للزنى بها . يقال : بغت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف .

قال صاحب الكشاف : « جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله - تعالى - « من قبل أن تمسوهن » والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب . والبغى : الفاجرة التى تبغى الرجال . . . »[1] .

وعلى هذا الرأى الذى ذهب إليه صاحب الكشاف ، يكون ما حكاه القرآن عن مريم من قولها : « ولم يمسسنى بشر . . . » المقصود به النكاح الحلال .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٠ .

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام، أي: ولم يمسسني بشر كائناً من كان لا بنكاح ولا بزنى، ويكون قوله: «ولم أك بغيا» من باب التخصيص بعد التعميم، ويؤيد هذا الرأي قوله - تعالى - «قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسني بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»(١).

ويؤيده أيضاً أن لفظ «بشر» نكرة في سياق النفي فيعم كل بشر سواء أكان زوجاً أم غير زوج.

قال القرطبى: قوله: «ولم أك بغيا» أي: زانية. وذكرت هذا تأكيدا، لأن قولها «ولم يمسسني بشر» يشمل الحلال والحرام...»(٢).

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه: «وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل... فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه - تعالى - قادر على خلق الولد ابتداء. وكيف قد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله - تعالى - من غير أب أو أم...»(٣).

وقوله - تعالى -: «قال كذلك قال ربك هو على هين...» رد من جبريل عليها.

أي: قال الأمر كذلك أي: كما ذكرت من أن بشرا لم يمسك ومن أنك لم تكونى فى يوم من الأيام بغيا. أو الأمر كذلك من أنى أرسلنى ربك لأهب لك غلاما زكيا من غير أن يكون له أب.

وقوله «قال ربك هو على هين» بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء، أي: قال ربك هو أي: خلق ولدك من غير أب «على هين» أي: سهل يسير لأن قدرتنا لا يعجزها شىء.

(١) سورة آل عمران الآية ٤٧.
(٢) تفسير القرطبى ج١١ ص ٩١.
(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٦.

وقوله - سبحانه - «ولنجعله آية للناس» تعليل لمعلل محذوف ، أى : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر «آية» عظيمة ، وأمرا عجابا ، يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعا ، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك ، كما لا يعجزها أن توجد بشرا من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم ، أو من غير أم كما فعلنا مع حواء ، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر .

وقوله : «ورحمة منا» معطوف على ما قبله ، أى : ولنجعل هذا الغلام الذى وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به ، واتبع دعوته . وكان وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية «أمرا مقضيا» أى : مقدرا فى الأزل مسطورا فى اللوح المحفوظ ، ولابد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد حكت لنا جانبا من حالة مريم ومن الحوار الذى جرى بينها وبين جبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، حكت فيه حالتها عند حملها بعيسى ، وعندما جاءها المخاض . فقال - تعالى - :

« فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ».

قال ابن كثير رحمه الله - يقول - تعالى - مخبرا عن مريم ، أنها لما قال لها جبريل عن الله - تعالى - ما قال : أنها استسلمت لقضائه - تعالى - ، فذكر غير واحد من علماء السلف ، أن الملك وهو جبريل - عليه السلام - عند ذلك نفخ فى جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج ، فحملت بالولد بإذن الله - تعالى - . . .

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر . قال عكرمة : ثمانية أشهر . . وعن ابن عباس أنه قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت . وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله - تعالى - : «فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة» . فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شىء بحسبه .

فالمشهور الظاهر - والله على كل شىء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . . »[1] .

والفاء فى قوله - تعالى - : «فحملته . .» هى الفصيحة ، أى : وبعد أن قال جبريل لمريم إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . نفخ فيها فحملته، أى : عيسى ، فانتبذت به ، أى : فتنحت به وهو فى بطنها «مكانا قصيا» أى : إلى مكان بعيد عن المكان الذى يسكنه أهلها .

يقال : قصى فلان عن فلان قصوا وقصوا . إذا بعد عنه . ويقال : فلان بمكان قصى ، أى : بعيد .

وجمهور العلماء على أن هذا المكان القصى ، كان بيت لحم بفلسطين .

قال ابن عباس : أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم ، فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج »[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما اعتراها من حزن عندما أحست بقرب الولادة فقال : «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» ،

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١٦
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧

وقوله : « فأجاءها » أي : فألجأها ، يقال : أجاءته إلى كذا ، بمعنى : ألجأته واضطررته إليه . ويقال : جاء فلان ، وأجاءه غيره ، إذا حمله على المجيء ، ومنه قول الشاعر :

وجار سار معتمدا علينا   أجاءته المخافة والرجاء

قال صاحب الكشاف : «أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه ... »[1] .

والمخاض : وجع الولادة . يقال : مخضت المرأة - بكسر الخاء - تمخض - بفتحها - إذا دنا وقت ولادتها مأخوذ من المخض ، وهو الحركة الشديدة . وسمي بذلك لشدة تحرك الجنين في بطن الأم عند قرب خروجه .

وجذع النخلة : ساقها الذي تقوم عليه .

أي : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به وهو محمول في بطنها عن قومها ، وحان وقت ولادتها ، ألجأها المخاض إلى جذع النخلة لتتكىء عليه عند الولادة . . .

فاعتراها في تلك الساعة ما اعتراها من هم وحزن وقالت : « يا ليتني مت قبل هذا » الحمل والمخاض الذي حل بي «وكنت نسياً منسياً» أي : وكنت شيئاً منسياً متروكاً ، لا يهتم به أحد ، وكل شيء نسي وترك ولم يطلب فهو نسي ونسي .

قال القرطبي : « والنسي في كلام العرب : الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده ، كالوتد ، والحبل للمسافر .. وقرىء : «نسيا» بفتح النون وهما لغتان مثل : الوتر والوتر ... »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ١١ .
(٢) تفسير القرطبي ج١١ ص ٩٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو حذرا من وقوع الناس فى المعصية بسبب كلامهم فى شأنها .

وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهية فيه - لأنه لا يتعلق بأمر دنيوى - نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى كمرض أو فقر .. فى صحيح مسلم ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل به ، فإن كان لا بد متمنيا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى» .

ومن ظن أن تمنى مريم الموت كان لشدة الوجع فقد أساء الظن[1] .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من إكرامه لمريم فى تلك الساعات العصيبة من حياتها فقال : «فناداها من تحتها أن لا تحزنى . قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا ....» .

والذى ناداها يرى بعضهم أنه جبريل - عليه السلام - . وقوله «من تحتها» فيه قراءتان سبعيتان : إحداهما : بكسر الميم فى لفظ «من» على أنه حرف جر ، وخفض تاء «تحتها» على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل محذوف . أى : فناداها جبريل من مكان تحتها ، أى : أسفل منها .

والثانية : بفتح الميم فى لفظ «من» على أنه إسم موصول ، فاعل نادى وبفتح التاء فى «تحتها» على الظرفية - أى : فناداها الذى هو تحتها ، وهو جبريل - عليه السلام -

قال القرطبى : قوله - تعالى - «فناداها من تحتها» .

قال ابن عباس : المراد بمن تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٨٢ .

قومها ... فى هذا لها آية وأمارة أن هـذا من الأمور الخارقة للعادة ، التى لله - تعالى - فيها مراد عظيم »(١) .

ويرى بعض المفسرين أن المنادى هو عيسى - عليه السلام - فيكون المعنى : فناداها إبنها عيسى الذى كان عندما وضعته موجودا تحتها .

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى فقال : « وأولى القولين فى ذلك عندنا قول من قال : الذى ناداها إبنها عيسى ، وذلك أنه من كناية - أى ضمير ذكره أقرب منه من ذكر جبريل ، فرده على الذى هو أقرب إليه من رده على الذى هو أبعد إليه ، ألا ترى أنه فى سياق قوله - تعالى - : « فحملته فانتبذت به مكانا قصيا .. » ثم قيل : فناداها نسقا على ذلك ، ولعلة أخرى وهى قوله : « فأشارت إليه .. » ولم تشر إليه - إن شاء الله - إلا وقد علمت أنه ناطق فى حاله تلك ... »(٢)

ويبدو لنا أن ماذهب إليه ابن جرير من كون الذى نادى مريم هو إبنها عيسى ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها فى تلك الساعة ، فيه مافيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها .

أى : فناداها إبنها عيسى الذى كان أسفل منها عندما وضعته ، مطمئنا إياها بعد أن قالت : ياليتنى مت قبل هـذا الذى حدث لى .... ناداها بقوله « أن لا تحزنى » يا أماه « قد جعل ربك تحتك سريا » أى جدولا صغيراً من الماء ، لتأخذى منه ما أنت فى حاجة إليه . وسمى النهر الصغير من الماء سريا ، لأن الماء يسرى فيه .

وقيل : المراد بالسرى : عيسى - عليه السلام - مأخوذ من السرو بمعنى الرفعة والشرف .

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٩٢

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ٥٢

يقال : سرو الرجل يسرو - كشرف يشرف - فهو سرى ، إذا علا قدره وعظم أمره . ومنه قول الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

أى : قد جعل ربك تحتك يامريم إنسانا رفيع القدر ، وهو إبنك عيسى والجملة الكريمة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله : « أن لا تحزنى » قال بعض العلماء ما ملخصه : وأظهر القولين عندى أن السرى فى الآية النهر الصغير لأمرين :

أحدهما : القرينة من القرآن ، لأن قوله بعد ذلك « فكلى واشربى » قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به فى قوله . « قد جعل ربك تحتك سريا » .

الثانى : ما جاء عن ابن عمر من أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن السرى الذى قال الله لمريم : « قد جعل ربك تحتها سريا » نهر أخرجه الله لها لتشرب منه . .

فهذا الحديث - وإن كانت طرقه لا يخلو شىء منها من ضعف - أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه »(١) .

وقوله - سبحانه - : « وهزى إليك بجذع النخلة » . معطوف على ما قاله عيسى لأمه مريم . والباء فى قوله « بجذع » مزيدة للتوكيد ، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه .

أى : وحركى نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة ، تساقط عليك « رطبا » وهو ما نضج واستوى من التمر « جنيا » أى : صالحا للأخذ والاجتناء « فكلى » من ذلك الرطب « واشربى » من ذلك السرى ، « وقرى عينا » أى : طيبى نفسا بوجودى تحتك ، وأطردى عنك الأحزان .

---

(١) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - جـ ٥ ص ٢٤٨

يقال : قرت عين فلان ، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ، لأن العين إذا رأت ما تحبـه سكنت إليه ، ولم تنظر إلى غيره .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن مباشرة الأسباب فى طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافى التوكل على الله ، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع فى ملكه ـ سبحانه ـ إلا ما يشاؤه ويريده .

وهنا قد أمر الله ـ تعالى ـ مريم ـ على لسان مولودها ـ بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب ، مع قدرته ـ سبحانه ـ على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمـــريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ، ولـكن كل شىء له سبب

كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب، قالوا: لأنه لو كان شىء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله ــ تعالى ــ لمريم .

وقوله ـ سبحانه ـ : «فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا» حكاية منه ـ تعالى ـ لبقية كلام عيسى لأمه .

ولفظ «إما» مركب من «إن» الشرطية ، و «ما» المزيدة لتوكيد الشرط . «ترين» هل الشرط ، وجوابه «فقولى» ، وبين هـــذا الجواب وشرطه كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والمعنى : أن عيسى ـ عليه السلام ـ قال لأمه : لا تحزنى يا أماه بسبب وجودى بدون أب ، وقرى عينا ، وطيبى نفسا لذلك ، فإما ترين من البشر أحدا كائنا من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولى له «إنى نذرت للرحمن

صوما ، أى: صمتا عن الكلام ،فلن أكلم اليوم إنسيا، لا فى شأن هذا المولود ولا فى شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لابنى ليشرح لكم حقيقة أمره .

قالوا : « إنما منعت من الكلام لأمرين : أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها ، وفى هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل .

والثانى : « كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها »(١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم مافعلته مريم عندما شعرت بالحمل ، وماقالته عندما أحست بقرب الولادة ، وماقاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب ، لإدخال الطمأنينة على قلبها .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، مشهد مريم عندما جاءت بوليدها إلى قومها ، وماقالوه لها ، وماقاله وليدها لهم . . .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

« فأَتَتْ به قومَها تحمِلُه ، قالُوا يا مريمُ لقَدْ جِئْتِ شيئًا فريًّا (٢٧) يا أختَ هارونَ ما كان أبُوكِ امْرَأَ سوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فأشارَتْ إليهِ قالُوا كيفَ نُكَلِّمُ من كانَ فى المهدِ صبيًّا (٢٩) قالَ إنى عبدُ اللهِ آتانِىَ الكتابَ وجعَلَنِى نبيًّا (٣٠) وجعلنِى مُباركاً أينَما كنتُ وأوْصانى بالصلاةِ والزكاةِ مادمتُ حيًّا (٣١) وبرًّا بوالدَتى ولمْ يجعَلْنى جبارًا شقيًّا (٣٢) والسّلامُ علىّ يومَ وُلدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أُبعَثُ حيًّا (٣٣) » .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٥٣٥ .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فأتت به قومها تحمله . . . » معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ اطمأنت نفسها ، وقرت عينها ، فأتت به أى بمولودها عيسى إلى قومها . وهى تحمله معها من المكان القصى الذى اعتزلت فيه قومها .

قال الآلوسى : « أى : جاءتهم مع ولدها حاملة إياه ، على أن الباء للمصاحبة . وجملة « تحمله » فى موضع الحال من ضمير مريم . . . وكان هذا المجىء على ما أخرج سعيد بن منصور ، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوما حين طهرت من نفاسها . .

وظاهر الآية والأخبار « أنها جاءتهم به من غير طلب منهم . . . . »[1] .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله قومها عندما رأوها ومعها وليدها فقال : « قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا » .

أى : قالوا لها على سبيل الإنكار : يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئا منكرا عجيبا فى بابه ، حيث أتيت بولد من غير زوج نعرفه لك .

والفرى : مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته ، أى : شيئا قاطعا وخارقا للعادة ، ومرادهم : أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعى ، كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » .

ويدل على أن مرادهم هذا ، قولهم بعد ذلك : « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء » .

أى : ما كان أبوك رجلا زانيا أو معروفا بالفحش « وما كانت أمك بغيا » أى : تتعاطى الزنا . يقال : بغت المرأة ، إذا فجرت وابتعدت عن طريق الطهر والعفاف .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٨٧

وليس المراد بهارون : هارون بن عمران أخا موسى ، وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى ، فشبهت به ، أى : يا أخت هارون فى الصلاح والتقوى .

أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم .

قال الآلوسى ما ملخصه : «وقوله: «يا أخت هارون ..» استئناف لتجديد التعيير ، وتأكيد التوبيخ . وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران - عليهما السلام - لما أخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، والطبرانى ، وابن حبان ، وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون : «يا أخت هارون» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» ...

وعن قتادة قال : «هو رجل صالح فى بنى إسرائيل . والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا قبل من صلاحها ...»[1]

وعلى أية حال فإن مرادهم بقولهم هذا ، هو اتهام مريم بما هى بريئة منه ، والتعجب من حالها ، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة ، ومع ذلك لم تنهج نهجهم .

وهنا نجد مريم تبدأ فى الدفاع عن نفسها ، عن طريق وليدها «فأشارت إليه» .

أى : فأشارت إلى ابنها عيسى ، ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم إليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر .

ولكنهم لم يقتنعوا بإشارتها بل قالوا لها : «كيف نكلم من كان فى المهد صبيا» .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٨٨

والمهد : اسم للمضطجع الذى يهيأ للصبي فى رضاعه. وهو فى الأصل مصدر مهده يمهده إذا بسطه وسواه .

أى : كيف نكلم طفلا صغيرا ما زال فى مهده وفى حال رضاعه .

والفعل الماضى وهو « كان » هينا . بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال. كما يدل عليه سياق القصة .

ولكن عيسى - عليه السلام - أنطقه الله - تعالى - بما يدل على صدق مريم وطهارتها فقال : «قال إنى عبد الله ... » أى : قال عيسى فى رده على المنكرين على أمه إتيانها به : إنى عبد الله ، خلقنى بقدرته ، فأنا عبده وأنتم - أيضاً - عبيده ، وهذا الخالق العظيم « آتانى الكتاب » أى : سبق فى قضائه إيتائى الكتاب أى : الإنجيل أو التوراة ، أو مجموعهما .

وعبر فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى المستقبل ، تنزيلا لتحقق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى .

وهذا التعبير له نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » .

وقوله - سبحانه - « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى . فإذا هم قيام ينظرون » .

وقوله . «وجعلنى نبياً» أى : أدعو الناس إلى عبادته وحده، وجعلنى أيضاً بجانب نبوتى « مباركا » أى : كثير الخير والبركة « أينما كنت » أى : حينما حللت جعلنى مباركا ، فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه .

« وأوصانى بالصلاة والزكاة » أى : بالمحافظة على أدائهما « ما دمت حيا» فى هذه الدنيا .

وقوله : « وبرا بوالدتى » ، أى: وجعلنى كذلك مطيعا والدتى، وبارا بها،

ومحسنا إليها ، « ولم يجعلنى » سبحانه - فضلا منه وكرما « جبارا شقيا » أى : ولم يجعلنى مغرورا متكبرا مرتكبا المعاصى والموبقات .

« والسلام » والأمان منه - تعالى - « على يوم ولدت ويوم أموت » مفارقا هذه الدنيا « ويوم أبعث حيا » للحساب والجزاء يوم القيامة .

فأنت ترى أن عيسى - عليه السلام - قد وصف نفسه بمجموعة من الصفات الفاضلة ، افتتحها بصفة العبودية لله رب العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التى لاحق سواها ، ولتحذير أعدائه من وصفه بأنه هو الله ، أو هو ابن الله ، أو هو مشارك له فى العبادة . . .

واختتمها برجاء الأمان له من الله - تعالى - فى كل أطوار حياته .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان وجه الحق فيها ، وأنذر الذين وصفوا عيسى وأمه بما هما بريئان منه بسوء المصير . فقال - تعالى - :

« ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ، لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) » .

واسم الإشارة « ذلك » فى قوله : « ذلك عيسى ابن مريم » إشارة إلى ما ذكره الله - تعالى - قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة ، ومن أخبار صادقة وهو مبتدأ ، وعيسى خبره ، وابن مريم صفته .

ولفظ : « قول » فيه قراءتان سبعيتان: إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام، والثانية قراءة ابن عامر وعاصم ، بفتحها .

وعلى القراءة بالرفع يكون « قول الحق » خبر مبتدأ محذوف ، فيكون المعنى : ذلك الذي أخبرناك عنه بشأن عيسى وأمه هو الحق - عز وجل - وهو قول لا يحوم حوله باطل ، ولا يخالطه ريب أو شك . فلفظ « الحق » يصح أن يراد به الله - سبحانه - لأنه من أسمائه ، ويصح أن يراد به ما هو ضد الباطل ، وهو الصدق والثبوت .

وعلى قراءة النصب يكون لفظ « قول » مصدراً مؤكدا لمضمون الجملة . أي : ذلك الذي قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من شأن عيسى ابن مريم ، هو القول الثابت الصادق ، الذي أقول فيه قول الحق .

والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أي : القول الحق . كقوله - تعالى - « وعد الصدق » أي : الوعد الصدق .

وقوله : « الذي فيه يمترون » بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق الذي ذكره الله - تعالى - عن عيسى وأمه . و« الذي» صفة للقول، أو للحق، و« يمترون » يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل . . . .

أي : ذلك الذي ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق ، الذي شك فى صدقه الكافرون ، وتنازع فيه الضالون ، فلا تلتفت إلى شكهم و كفرهم بل ذرهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون له ولد فقال : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه . . . » أي : ما يصح وما يستقيم وما يتصور فى حقه -تعالى - أن يتخذ ولدا ، لأنه منزه عن ذلك ، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله - تعالى - هو الباقى بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذى لا يعجزه شيء .

و « من » فى قوله « من ولد » لتأكيد هذا النفى وتعميمه .

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ فى هذه السورة : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدا . تكاد السموات يتفطرون منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » أى : لا يتصور فى حقه ـ سبحانه ـ إتخاذ الولد ، لأنه إذا أراد قضاء أمر ، فإنما يقول له كن فيكون فى الحال ، بدون تأخير أو تردد .

وقوله ـ تعالى ـ « وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . . . » قرأه ابن عامر والكوفيون بكسر همزة « إن » على الاستئناف . أى : وإن عيسى ـ عليه السلام ـ قد قال لقومه ـ أيضا ـ وإن الله ـ تعالى ـ هو ربى وهو ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه .

وقرأ الباقون بفتح همزة « أن » بتقدير حذف حرف الجر أى : وقال عيسى لقومه : ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه . . . كما فى قوله ـ تعالى ـ : « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً » أى : ولأن المساجد لله . . .

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف أهل الكتاب من عيسى ـ عليه السلام ـ فقال : « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم » .

والأحزاب جمع حزب . والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى شأنه ـ عليه السلام ـ . فمنهم من اتهم أمه بما هى بريئة منه ، وهم اليهود كما فى قوله : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » .

ومنهم من قال هو ابن الله ، أو هو الله ، أو إله مع الله ، أو هو ثالث

ثلاثة ... إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التى حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى .

ولفظ « ويل » مصدر لا فعل له من لفظه ، وهو كلمة عذاب ووعيد .

و « مشهد » يصح أن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الشهود والحضور .

والمعنى : هكذا قال عيسى - عليه السلام - لقومه : أعبدوا الله ربى وربكم، ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم فى شأنه اختلافا كبيراً ، وضلوا ضلالا بعيدا ، حيث وصفوه بما هو برىء منه ، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، حيث سيلقون عذابا شديدا من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان.

وعبر عنهم بالموصول فى قوله « للذين كفروا » إيذانا بكفرهم جميعاً ، وإشعارا بعلة الحكم .

قال أبو حيان : « ومعنى : « من بينهم » أن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم »(1) .

وجاء التعبير فى قوله « من مشهد يوم عظيم » بالتنكير، للتهويل من شأن هذا المشهد ، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة ، الذى يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ... » تهكم بهم ، وتوعد لهم بالعذاب الشديد ، فهو تأكيد لما قبله .

و« أسمع بهم وأبصر » صيغتا تعجب ، لفظهما لفظ الأمر ، ومعناهما التعجب ، أى : حمل المخاطب على التعجب ، وفاعلهما الضمير المجرور بالباء ، وهى زائدة

(1) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ١٩١

فيهما لزوما والمعنى : ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم فى ذلك اليوم ، لما تخلع قلوبهم ، ويسود وجوههم . مع أنهم كانوا فى الدنيا صما وعميانا عن الحق الذى جاءتهم به رسلهم .

فالمراد باليوم فى قوله : « لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين » هو ما كانوا فيه فى الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق .

أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم : إنهم لا يسمعون ولا يبصرون فى الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر ، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة ، فقال : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » .

والإنذار : الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير ، وأشد ما تخوف به يوم القيامة .

والحسرة : أشد الندم على الأمر الذى فات وانقضى ولا يمكن تداركه .

أى : وأنذر أيها الرسول الكريم - المشركين ، وخوفهم من أهوال يوم القيامة ، يوم يتحسر الظالمون على تفريطهم فى طاعة الله ، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم ، لأن حكم الله قد نفذ فيهم . وقضى الأمر بنجاة المؤمنين ، وبعذاب الفاسقين ، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

وقوله : « وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » حال من الضمير المنصوب فى « أنذرهم » .

أى : أنذرهم لأنهم فى حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهى الغفلة وعدم الإيمان .

هذا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح مايدل على أن المراد بقوله ـتعالى ـ « إذ قضى الأمر » .

أى : ذبح الموت . فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى منادى: يا أهل الجنة فيشرئبون و ينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم . هذا الموت وكلهم قد رآه . ثم ينادى يا أهل النار،فيشرئبون و ينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم . هذا الموت وكلهم قد رآه . فيذبح. ثم يقول: ياأهل الجنة خلود بلا موت؛ ويا أهل النار خلود بلا موت . ثم قرأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون »(١) .

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته ، وشمول ملكه فقال : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها .. » أى : إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، فلا يبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها، وهؤلاء الخلائق جميعا « إلينا » وحدنا « يرجعون » يوم القيامة،فنحاسبهم على أعمالهم .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصة زكريا ويحيى ، ومن قصة مريم وعيسى ، حديثا يهدى إلى الرشد،ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق .

ثم أوردت السورة الكريمة القصة الثالثة وهى قصة إبراهيم ـعليه السلام ـ ومادار بينه وبين أبيه من حوار . قال ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٢٢ .

« واذكُرْ فى الـكتابِ إبراهيمَ إنَّهُ صِدِّيقاً نبيًّا (٤١) إذْ قالَ لأبيهِ يا أَبتِ لِمَ تعبُدُ مالا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغْنِي عنكَ شيئاً (٤٢) يا أبتِ إنى قد جاءَنِي من العـلْمِ مالم يأتِكَ فاتَّبِعنِي أَهدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا (٤٣) يا أبتِ لا تَعْبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كانَ للرحمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يا أبتِ إنى أخافُ أنْ يمسَّكَ عذابٌ من الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وليًّا (٤٥) قالَ أراغِبٌ أنت عَنْ آلهتِي يا إبراهيمُ ، لئنْ لم تنْتَــــهِ لأرجُمَنَّك ، واهجرْنى مليًّا (٤٦) قال سـلامٌ عليك سأستَغْفِرُ لكَ ربى إنَّه كانَ بى حفيًّا (٤٧) وأعتزِلـكُم وما تدْعُونَ من دونِ اللهِ وأدعُو ربى عسَى أنْ لا أكونَ بدعاءِ ربِّى شقيًّا (٤٨) فلمَّا اعتزَلهُم وماَ يعبُـدونَ من دونِ اللهِ وهبْنَا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ وكـلاً جعَلْنَا نبيًّا (٤٩) ووهَبْنَا لهُم من رحْمتِنَا وجعَلنَا لهُم لسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) » .

قال الإمام الرازى ماملخصه : « اعلم أن الغرض من هذه السورة ، بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا وهم النصارى ومن على شاكلتهم ، وفريق أثبت معبودا غير الجماد ليس بحى ولا عاقل ، وهم عبدة الأوثان . والفريقان وإن اشتركا فى الضلال إلا أن ضلال الفريق الثانى أعظم . ولما بين ـ سبحانه ـ ضـــلال الفريق الأول ـ وهم النصارى ـ ، اتبعه بذكر الفريق الثانى : وهم عبدة الأوثان قوم إبراهيم ـ عليه السلام (١) .

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ هو من أولى العزم من الرسـل ، وهو الذى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٥٥٤

جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ، وهو الذى وصفه الله ـ تعالى ـ بجملة من الصفات الكريمة ، منهـا قوله ـ تعالى ـ : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب »(١) ..

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس فى هذا القرآن قصة أبيهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، لكى يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا بهذا النبى الكريم فى قوة إيمانه ، وصفاء يقينه ، وجميل أخلاقه ...

وقوله : « إنه كان صديقا نبيا » إستئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فى قوله : « واذكر » .

والصديق : صيغة مبالغة من الصدق . أى : إنه كان ملازما للصدق فى كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبيا من أولى العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال : « إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » .

والظرف « إذ » بدل اشتمال من « إبراهيم » وجملة « إنه كان صديقا نبيا » معترضة بين البدل والمبدل منه لتعظيم شأنه ـ عليه السلام ـ .

والتاء فى قوله « يا أبت » عوض عن ياء المتكلم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه : زيادة فى احترامه واستمالة قلبه للحق .

أى : واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه آزر مستعطفا إياه : يا أبت لماذا تعبد شيئا لا يسمع من يناديه ، ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئا من الأغناء ، لأنه لا يملك لنفسه ـ فضلا عن غيره ـ نفعا ولا ضرا .

ثم دعاه إلى اتباع الحق بألطف أسلوب فقال : « يا أبت إنى قد جاءنى من

---

(١) سورة هود . الآية ٧٥

العلم ، النافع الذى علمنى الله ـ تعالى ـ إياه ، «الم يأتك ، أنت ، وهـذا فضل الله يؤتيـه من يشـاء ، « فاتبعنى ، فيما أدعوك إليـه « أهدك صراطا سويا » أى : أهدك إلى الطريق المستقيم الذى لاعوج فيه ولا اضطراب .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنها جهل وانحطاط فى التفكير فقال : « يا أبت لاتعبدالشيطان » فإن عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وطاعة للشيطان الذى هو عدو الإنسان .

ثم علل له هذا النهى بقوله : « إن الشيطان كان للرحمن عصيا » أى : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هـذه الأصنام كان للرحمن عصيا ، أى : كثير العصيان ، لايهدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما سيهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه .

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال : « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » .

أى : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قرينا للشيطان فى العذاب بالنار ، لأنك انقدت له ، وخالفت طريق الحق .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادىء الرقيق . . . . خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعوه إلى عبادته ـ تعالى ـ وحده .

ورحم الله صاحب الكشاف فقدقال ماملخصه: «انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن .

وذلك أنه طلب منه ـ أولا ـ العلة فى خطئه . طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ... حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور .

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ،

ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك .... ثم بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ... ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من الوبال.

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : « إنى أخاف أن يمسك ....».

وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : « يا أبت » توسلا واستعطافا ... »[1] .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه . لم تصادف أذنا واعية ، ولم تحظ من أبيه بالقبول ، بل قوبلت بالاستنكار والتهديد فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن : « أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » .

والاستفهام فى قوله «أراغب» للإنكار والتهديد والرغبة عن الشىء: تركه عمداً زهداً فيه لعدم الحاجة إليه .

ولفظ « راغب » مبتدأ ، « وأنت » فاعل سد مسد الخبر ، و « مليا » أى: زمنا طويلا . مأخوذ من الملاوة ،وهى الفترة الطويلة من الزمان وقيل لليل والنهار : الملوان .

والمعنى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد ، أتارك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتى، وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها. لئن لم تنته عن هذا المسلك ، « لأرجمنك » بالحجارة وبالكلام القبيح « واهجرنى مليا » أى تغرب عن وجهى زمنا طويلا لا أحب أن أراك فيه .

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٩ .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة والتهديد والعناد والجهالة ... شأن القلب الذي أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب والضيق ، بل قابل ذلك بسعة الصدر . وجميل المنطق ، حيث قال له : «سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا» .

أى : لك منى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطه جدال وأذى ، والوداع الذى أقابل فيه إساءتك إلى بالإحسان إليك. وفضلا عن ذلك فإنى «سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا» أى : بارا بى ، كثير الإحسان إلى .

يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه ..

وقد وفى إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله - تعالى - فتبرأ منه كما قال - تعالى - : «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه . فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم»(١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن إبراهيم - عليه السلام - عندما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم. فقال - تعالى - : «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا» .

أى : وقال إبراهيم - أيضاً - لأبيه، إنى بجانب استغفارى لك، ودعوتى لك بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التى تعبدونها من دون الله وأرتحل عنكم جميعاً إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربى وخالقى بالعبادة والطاعة والدعاء ، فقد عودنى - سبحانه - أن لا يخيب دعائى وتضرعى إليه .

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٤ .

وفى تصدير كلامه بلفظ « عسى » دليل على تواضعه ، وعلى أدبه مع خالقه - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على اعتزال إبراهيم للشرك والمشركين فقال :

« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا » .

أى : فحين اعتزل إبراهيم - عليه السلام - أباه وقومه وآلهتهم الباطلة لم نضيعه ، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا ، وكلا جعلنا نبيا ، أى : وكل واحد منهما جعلناه نبياً ، ووهبنا لهم ، أى : لإبراهيم وإسحاق ويعقوب « من رحمتنا » بأن جعلناهم أنبياء ، ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحساننا ورزقنا .

« وجعلنا لهم لسان صدق عليا » بأن صيرنا الناس يثنون عليهم ويمدحونهم ويذكرونهم بالذكر الجميل ، لخصالهم الحميدة ، وأخلاقهم الكريمة .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية ، وما أصدق قوله - تعالى - : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » .

ثم مدح الله - تعالى - موسى - عليه السلام - وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - :

« واذْكُرْ فى الكتابِ مُوسَى إنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وكانَ رسولاً نبيّاً (٥١) وناديناهُ مِنْ جانبِ الطُّورِ الأيْمَنِ وقرَّبناهُ نجيّاً (٥٢) ووهبْنَا لهُ مِنْ رحْمَتِنَا أخاهُ هارُونَ نبيّاً (٥٣) » .

ولفظ « مخلصا » فيه قراءتان سبعيتان ، إحداهما بفتح اللام - بصيغة

اسم المفعول ـ أى : أخلصه الله ـ تعالى ـ لذاته ، واصطفاه ، كما قال ـ تعالى ـ : « قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ....»(١) .

والثانية بكسر اللام ـ بصيغة اسم الفاعل ـ أى : كان مخلصا لنا فى عبادته وطاعته .

والمعنى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس خبر أخيك موسى ـ عليه السلام ـ إنه كان من الذين أخلصناهم واصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وكان من الذين أخلصوا لنا وحدنا العبادة والطاعة ، وكان ـ أيضا ـ « رسولا » من جهتنا لتبليغ ما أمرناه بتبليغه ، وكان كذلك « نبيا » رفيع القدر ، عالى المكانة والمنزلة ، فقد جمع الله ـ تعالى ـ له بين هاتين الصفتين الساميتين صفة الرسالة وصفة النبوة .

وقوله ـ تعالى ـ : « وناديناه من جانب الطور الأيمن ، وقربناه نجيا » بيان لفضائل أخرى منحها الله ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ .

والطور : جبـــل بين مصر وقرى مدين . الأيمن : أى الذى يلى يمين موسى .

قال الآلوسى : « والأيمن : صفة لجانب لقوله ـ تعالى ـ فى آية أخرى : « جانب الطور الأيمن » بالنصب . أى : ناديناه من ناحيته اليمنى ، من اليمين المقابل لليسار . والمراد به يمين موسى ، أى : الناحية التى تلى يمينه « إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة .

ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن وهو البركة ، وهو صفة لجانب ـ أيضا ـ : أى : من جانب الميمون المبارك ...

والمراد من ندائه من ذلك الجانب : ظهور كلامه ـ تعالى ـ من تلك الجهة ، والظاهر أنه ـ عليه السلام ـ إنما سمع اللفظ ... »(٢) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص ١٠٣ .

وقوله : « وقربناه نجيا » أي : وقربناه تقريب تشريف وتكريم حالة مناجاته لنا ، حيث أسمعناه كلامنا ، واصطفيناه لحمل رسالتنا إلى الناس .

فقوله « نجيا » من المناجاة وهي المسارة بالكلام ، وهو حال من مفعول « قربناه » أي : وقربنا موسى منا حال كونه مناجيا لنا .

وقوله - تعالى - : « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » بيان لمظهر آخر من مظاهر فضل الله - تعالى - على عبده موسى .

أي : ووهبنا لموسى من أجل رحمتنا له . وعطفنا عليه ، أخاه هارون ليكون عونا له في أداء رسالته كما قال - تعالى - حكاية عنه: «واجعل لي وزيرا من أهلي . هارون أخي اشدد به أزري . وأشركه في أمري .... » .

وقوله : « نبيا » حال من هارون ، أي : حال كونه نبيا من أنبياء الله - عز وجل - .

هذا ، وما ذكره الله - تعالى - هنا مجملا عن ندائه لموسى من جانب الطور الأيمن ، قد جاء مفصلا في مواطن أخرى منها قوله - تعالى - : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين .....»(1) .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من فضائل إسماعيل - عليه السلام - وهو الفرع الثاني من ذرية إبراهيم فقال - تعالى - :

« واذْكُرْ في الكتابِ إسماعيلَ إنه كانَ صادقَ الوعْدِ وكانَ رسولاً نبيًّا (٥٤) وكانَ يأمُر أهلَه بالصَّلاةِ والزكاةِ وكانَ عندَ ربِّه مَرْضِيًّا (٥٥) » .

---

(1) سورة القصص الآيتان ٢٩، ٣٠ .

أى : واذكر فى هذا الكتاب لقومك - أيها الرسول الكريم - خبر جدك إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - لكى يتأسوا به فى صفاته الجليلة «إنه كان صادق الوعد» يكفى للدلالة على صدق وعده، وشدة وفائه، أنه وعد أباه بصبره على ذبحه فلم يخالف وعده. بل قال - كما حكى القرآن عنه - «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين».

ووصف بصدق الوعد وإن كان غيره من النبيين كذلك. تشريفا وتكريما له، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التى اكتملت شهرتها فيه.

وقد مدح الله - تعالى - الأوفياء بعهودهم فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون».

وروى الإمام الطبرانى عن ابن مسعود قال: لا يعد أحدكم أخاه ثم لا ينجز له، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «العدة دين».

وقال القرطبى: والعرب تمتدح بالوفاء، وتذم بالخلف والغدر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل:

متى ما يقل حر لصاحب حاجة نعم، يقضها، والحر للوعد ضامن

وقوله - تعالى - : «وكان رسولا نبيا» أى : وكان من رسلنا الذين أرسلناهم لتبليغ شريعتنا، ومن أنبيائنا الذين رفعنا منزلتهم وأعلينا قدرهم.

قالوا: وكانت رسالته بشريعة أبيه إلى قبيلة جرهم من عرب اليمن، الذين نزلوا على أمه هاجر بوادى مكة حين خلفها إبراهيم هى وابنها بذلك الوادى، فسكنوا هناك حتى كبر إسماعيل وزوجوه منهم، وأرسله الله - تعالى - إليهم (١).

ثم وصفه الله - تعالى - بصفة كريمة ثالثة فقال: «وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ....»

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٧

أى : وكان بجانب حرصه على أداء هاتين الفريضتين ، يأمر أهله وأقرب الناس إليه بالحرص على أدائهما ، لكى يكون هو وأهله قدوة لغيرهم فى العمل الصالح.

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يفعل ذلك الذى أثنى الله به على نبيه إسماعيل استجابة لقوله تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ... » .

قال الإمام ابن كثير: وقد جاء فى الحديث عن أبى هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «رحم الله - رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح فى وجهها الماء رحم الله امرأة قامت من الليل وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء» .

وعن أبى سعيد عن النبى - صلى الله عليه وسلم قال : « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات الجليلة التى مدح بها نبيه إسماعيل فقال : « وكان عند ربه مرضيا » .

أى : وكان إسماعيل عند ربه مرضى الخصال ، لاستقامته فى أقواله وأفعاله ، وللصدق فى وعده ، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة . ولا شك أن من جمع هذه المناقب كان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ثم ختم الله هذا الحديث عن بعض الأنبياء ، بذكر جانب من قصة إدريس - عليه السلام - فقال :

« واذْكُرْ فى الـكتابِ إدريسَ إنه كانَ صديقاً نبيًّا (٥٦) ورفعْنَاهُ مكانًا عليًّا (٥٧) » .

قال الآلوسى ماملخصه : «وإدريس هو نبى قبل نوح وبينهما ألف سنة وهو أخنوع ابن يرد .... بن شيث بن آدم . وهو أول من نظر فى النجوم والحساب ، وأول رسول بعد آدم .....»[1]

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٠٥

أى : واذكر - أيضا - فى الكتاب خبر إدريس - عليه السلام - ، إنه كان ملازما للصدق ، وكان ممن أكرمناهم بالنبوة .

وقوله : «ورفعناه مكانا عليا» قالوا : هو شرف النبوة والزلفى عند الله - تعالى - . أو المراد برفعه إلى المكان العلى : إسكانه فى الجنة ، إذ لا شرف أعلى من ذلك .

روى أن النابغة الجعدى لما أنشد قوله :

بلغنا السماء بجدنا وسناؤنا وإنا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال : أجل إن شاء الله - تعالى - .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن طرف من قصص زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإدريس - عليهم الصلاة والسلام - ، وقد وصفتهم بما هم أهله من صفات كريمة ، ليتأسى الناس بهم فى ذلك .

ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك موازنة بين هؤلاء الأخيار ، وبين من جاءوا بعدهم من أقوامهم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وتفتح السورة باب التوبة ليدخله بصدق وإخلاص المخطئون ، حتى يكفر الله - تعالى - عنهم مافرط منهم . قال - تعالى - :

«أُولئكَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهِمْ من النَّبِيينَ من ذُرِّيةِ آدمَ وممَّنْ حَمَلْنَا مع نوحٍ ، ومن ذُرِّيةِ إبراهيمَ وإسرائِيلَ وممَّنْ هَدَينا واجتَبَينَا ، إذا تُتلَى عليهِمْ آياتُ الرحمنِ خرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا (٥٨) فخلَفَ مِنْ بَعدهم خلْفٌ أضاعُوا الصَّلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فَسَوف يلقَوْنَ غيًّا (٥٩) إلاَّ من تابَ وآمَنَ وعمِلَ صالِحًا فأولئِكَ يدخُلون الجنةَ ولا يُظلَمونَ شيئاً (٦٠) جناتِ عَدْنٍ التى وعد الرحمنُ عبادَه بالغيبِ

إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) » .

واسم الإشارة فى قوله : « أولئك الذين أنعم الله عليهم ..... » يعود إلى الأنبياء المذكورين فى هذه السورة . وهم عشرة أولهم فى الذكر زكريا وآخرهم إدريس .

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم » يريد إدريس وحده « ومن حملنا مع نوح » يريد إبراهيم وحده « ومن ذرية إبراهيم » يريد إسماعيل وإسحاق « و » من ذرية « إسرائيل » يريد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى . فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح . ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، شرف القرب من إبراهيم[1] .

وقوله : « وممن هدينا واجتبينا » معطوف على قوله « من ذرية آدم » ومن للتبعيض .

أى : ومن جملة من أنعم الله عليهم ، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا .

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها : أعمالهم الصالحة ، ومناقبهم الحميدة التى سبق الحديث عنها ، ومنها : كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار ، ومنها أنهم ممن هداهم الله ـ تعالى ـ واصطفاهم لحمل رسالته .

(١) تفسير القرطبى ج١١ ص ١٣٠ .

وقد بين - سبحانه - فى سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولا فقال : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

وقوله - تعالى - : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » بيان لرقة مشاعرهم ، وشدة تأثرهم عند سماع آيات الله - تعالى - .

فالجملة الكريمة إستئناف مسوق لبيان عظم خشيتهم من الله - تعالى - أو هى خبر لاسم الإشارة « أولئك » ، « وسجدا وبكيا » جمع ساجد وباك .

أى : أولئك الذين أنعم الله - تعالى - عليهم ، من صفاتهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن ، المتضمنة لتمجيده وتعظيمه وحججه . . . خروا على جباههم ساجدين وباكين ، وسقطوا خاضعين خاشعين خوفا ورجاء ، وتعظيما وتمجيداً لله رب العالمين .

وجمع - سبحانه - بين السجود والبكاء بالنسبة لهم ، للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم ، فهم أصحاب قلوب رقيقة ، وعواطف جياشة بالخوف من الله - تعالى - .

وفى معنى هذه الجملة الكريمة وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا »(١) .

وقوله - سبحانه - : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »(٢) .

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم يتأثرون

(١) سورة الإسراء الآيات من ١٠٧ - ١٠٩ .
(٢) سورة المائدة الآية ٨٣ .

تأثراً عظيما عند سماعهم لكلام الله - تعالى - ، تأثراً يجعلهم يبكون ويسجدون وتقشعر جلودهم ، وتوجل قلوبهم ، وتلين نفوسهم .

قال ابن كثير - رحمه الله - : « قوله - تعالى - : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » أى : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة وشكرا على ماهم فيه من نعم ... فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم ، واتباعا لمنوالهم وقرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - هذه الآية فسجد وقال : هذا السجود فأين البكاء »(١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث من الذين جاءوا بعد هؤلاء المنعم عليهم فقال : فخلف من بعدهم خلف ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » .

ولفظ « الخلف » بسكون اللام - الأولاد ، والواحد والجمع فيه سواء ، وأكثر مايطلق على الأشرار والصالحين ، ومنه المثل السائر : « سكت ألفا ونطق خلفا » ، وقول الشاعر :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

والمراد بهذا اللفظ فى الآية : اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعد أنبيائهم ، ولكنهم خالفوا شريعتهم ، وأهملوا ما أمروهم به وما نهوهم عنه .

أما لفظ « الخلف » بفتح اللام - فيطلق على البدل ولدا كان أو غير ولد وأكثر إستعمالاته فى المدح ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله .... » .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٢٧

والمعنى : فخلف من بعد أولئك الأخيار الذين أنعم الله عليهم ، خلف سوء وشر ، ومن الأدلة على سوئهم وفجورهم أنهم « أضاعوا الصلاة » بأن تركوها ، أو لم يؤدوها على وجهها المشروع « واتبعوا الشهوات » التي جعلتهم ينهمكون في المعاصي ، ويسارعون في اقتراف المنكرات ..

وقوله « فسوف يلقون غيا » بيان لسوء عاقبتهم ، أي : فسوف يلقى هؤلاء المضيعون للصلاة ، المتبعون للشهوات ، خسرانا وشرا في دنياهم وآخرتهم ، بسبب ضلالهم وتنكبهم الصراط المستقيم .

فالمراد بالغي : الخسران والضلال . يقال : غوى فلان يغوى إذ ضل ، والإسم الغواية .

وقيل المراد بالغي هنا : واد في جهنم تستعيذ من حره أوديتها . وقيل : هو نهر في أسفل جهنم يسيل فيه صديد أهلها .

ثم فتح - سبحانه - للتائبين باب الرحمة فقال : « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا . . . . . .

أي : هذا العقاب الشديد للمضيعين للصلاة ، وللمتبعين للشهوات ، لكن من تاب منهم توبة نصوحا ، وآمن بالله - تعالى - حق الإيمان ، وعمل في دنياه الأعمال الصالحة .

« فأولئك » المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح « يدخلون الجنة » بفضله - تعالى - ورحمته « ولا يظلمون شيئا » أي : ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئا .

وقوله « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب . » بدل من الجنة في قوله « فأولئك يدخلون الجنة »

أي : هؤلاء التائبون المؤمنون العاملون للصالحات . يدخلهم الله - تعالى - جنات عدن ، أي : الجنات الدائمة التي وعدهم الرحمن بدخولها ، وكان هذا الوعد في الدنيا قبل أن يشاهدوها أو يروها .

فقوله : « بالغيب » حال من المفعول وهو « عباده » أى : وعدهم بها حالة كونهم غائبين عنها ، لا يرونها ، وإنما آمنوا بوجودها بمجرد إخباره - سبحانه - لهم بذلك .

وقد أكد - سبحانه - هذا الوعد لهم فى الدنيا بقوله : « إنه كان وعده مأتيا » أى : إنه - تعالى - كان ومازال ماوعدبه عباده وهو الجنة « مأتيا » أى : يأتيه ويصل إليه من وعده الله - تعالى - به ، لأنه - سبحانه - لا يخلف وعده .

فقوله : « مأتيا » اسم مفعول من أتاه الشىء بمعنى جاءه ، وقيل : هو اسم مفعول بمعنى فاعل ، أى : إن وعده - سبحانه - لعباده كان آتيا لا ريب فيه .

ثم وصف - سبحانه - الجنات وأهلها بما يحمل العقلاء على العمل الصالح الذى يوصلهم إليها بفضله - تعالى - وكرمه فقال : « لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ... »

واللغو : هو فضول الكلام ، ومالا قيمة له منه ، ويدخل فيه الكلام الباطل .

وقوله « إلا سلاما » فيه أنه استثناء منقطع . لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .

أى : لا يسمعون فيها كلاما لغوا ، لكنهم يسمعون فيها سلاما . أى : تسليما من الملائكة عليهم ، كما قال - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ... »

أو يسمعون فيها تسليما وتحية من بعضهم على بعض ، كما قال - تعالى - : « تحيتهم فيها سلام » .

قال الآلوسى : قوله « إلا سلاما » استثناء منقطع ، والسلام إما بمعناه المعروف .
أى : لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص ، أى : لكن يسمعون كلاما سالما من العيب والنقص .

وجوز أن يكون استثناء متصلا، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما فى قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهانى الأقوى. والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير، ولولا ذلك لم يقع، وفيه من الحسن والمبالغة[1].

وقوله - تعالى -: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا» بيان لدوام رزقهم فيها بدون انقطاع، إذ ليس فى الجنة نهار ولا ليل، ولا بكرة ولا عشى...:

قال القرطبى ما ملخصه قوله: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا» أى: لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا، أى: فى قدر هذين الوقتين، إذ لا بكرة ثم - أى هناك - ولا عشيا... وقيل: أى: رزقهم فيها غير منقطع...

وخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من حديث أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا: قال رجل يارسول الله، هل فى الجنة من ليل؟ قال - صلى الله عليه وسلم -: «وما هيجك على هذا»؟ قال: سمعت الله - تعالى - يذكر فى الكتاب: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا» فقلت: الليل بين البكرة والعشى. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح، والرواح على الغدو، وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة».

ثم قال الإمام القرطبى: وهذا فى غاية البيان لمعنى الآية...[2].

ثم أضاف - سبحانه - إلى تعظيمه لشأن الجنة تعظيما آخر فقال: «تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا».

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١١١

(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٢٦

فاسم الإشارة «تلك» يعود إلى ما تقدم من قوله: «فأولئك يدخلون الجنة..»، وقوله «جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب...»

أي: تلك هي الجنة العظيمة الشأن، العالية القدر، التي نجعلها ميراثا للمؤمنين الصادقين المتقين من عبادنا، كما قال - تعالى -: «أولئك يرثون الفردوس هم فيها خالدون، وكما قال - سبحانه -: «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون».

قال صاحب الكشاف: «قوله «نورث»... أي: نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة، قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم - سبحانه - الجنة، فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى....»[1]

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته، وشمول علمه، فقال - تعالى -:

«وما نَتَنَزَّلُ إلاَّ بأمرِ ربِّكَ، له ما بينَ أيْدِينا وما خلفَنا وما بينَ ذلكَ، وما كانَ ربُّكَ نسيًّا (٦٤) ربُّ السَّموات والأرضِ وما بينهما فاعبُدْه واصطَبِرْ لعبادَتِه هَلْ تعلَمُ له سميًّا (٦٥)».

والتنزل: النزول على مهل، فإنه مطاوع نزل - بالتشديد -، يقال: نزلته فتنزل، إذا حدث النزول على مهل وتدرج. وقد يطلق التنزل بمعنى النزول مطلقا، إلا أن المناسب هنا هو المعنى الأول.

والآية الكريمة حكاية لما قاله جبريل للنبي - صلى الله عليه وسلم -، فقد ذكر كثير من المفسرين أن الوحي احتبس عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لفترة من الوقت بعد أن سأله المشركون أسئلة تتعلق بأصحاب الكهف، وبذي القرنين وبالروح، حتى قال المشركون: إن رب محمد - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٨

قد قلاه - أى : أبغضه وكرهه - فلما نزل جبريل على النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد فترة من غياب - قيل خمسة عشر يوما وقيل أكثر قال له : ياجبريل احتبست عنى حتى ساء ظنى واشتقت إليك فقال له جبريل : إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت جئت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله - تعالى - هذه الآية وسورة الضحى[1] .

وقال الآلوسى: «ولا يأبى ما تقدم فى سبب النزول ما أخرجه أحمد، والبخارى ، والترمذى ، والنسائى ، وجماعة ، فى سببه عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : «وما نتنزل إلا بأمر ربك ... » لجواز أن يكون - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك فى محاورته السابقة - أيضا - ، واقتصر فى كل رواية على شىء مما وقع فى المحاورة ... »[2] .

والمعنى : قال جبريل للرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما سأله عن سبب احتباسه عنه لفترة من الوقت : يا محمد إنى ما أتنزل عليك وقتا بعد وقت ، إلا بأمر ربك وإرادته ، فأنا عبده الذى لا يعصى له أمرا ...

« له » - سبحانه - «ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك» أى : له وحده جميع الجهات والأماكن ، وجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبلة ، وما بين ذلك ، فلا نقدر أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من وقت إلى وقت إلا بأمر ربك ومشيئته .

فالجملة الكريمة مسوقة لبيان ملكية الله - تعالى - لكل شىء ، وقدرته على كل شىء ، وعلمه بكل شىء .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ٨٧ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١١٤ .

وقوله ـ تعالى ـ : « وما كان ربك نسيا » مؤكد لما قبله من إثبات قدرة الله ـ تعالى ـ وعلمه .

أي : وما كان ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ ناسيا أو تاركا ، أو مهملا لشأنك ، ولكنه ـ سبحانه ـ محيط بأحوالك وبأحوال جميع المخلوقات « لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

قال ابن كثير : « قال ابن أبي حاتم : حدثنا يزيد بن محمد . . . عن أبي الدرداء يرفعه قال : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ، ثم تلا هذه الآية : « وما كان ربك نسيا »(١) .

ثم قال ـ تعالى ـ : « رب السموات والأرض وما بينهما » أي : هو رب السموات والأرض ورب ما بينهما، وهو خالقهما وخالق كل شيء، ومالكهما ومالك كل شيء .

وما دام الأمر كذلك : « فاعبده واصطبر لعبادته » أي: فأخلص له العبادة ووطن نفسك على أداء هذه العبادة بصبر وجلد وقوة احتمال ، فإن المداومة على طاعة الله تحتاج إلى عزيمة صادقة ، ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء .

والاستفهام في قوله : « هل تعلم له سميا » للإنكار والنفي . والسمي بمعنى المسامي والمضاهي والنظير والشبيه .

أي : هل تعلم له نظيرا أو شبيها يستحق معه المشاركة في العبادة أو الطاعة؟ كلا إنك لا تعلم ذلك ، لأنه ـ سبحانه ـ هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، إذ هو الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، وما سواه إنما هو مخلوق له،

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣١ .

وساجد له طوعا أو كرها ، ولا شبهة فى صفة من صفاته ، فهو - سبحانه - « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من عقيدة البعث . فحكت أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما بكتهم وبينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وأن النجاة فى هذا اليوم للمتقين، والعذاب والخسران للكافرين. قال - تعالى - :

« ويقولُ الإنسانُ أَئِذَا ما مِتُّ لَسَوفَ أُخرجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلاَ يذكُرُ الإنسانُ أَنَّا خلقْنَاهُ من قبلُ ولم يكُ شيئًا (٦٧) فوربِّكَ لنحشُرَنَّهم والشياطينَ ثم لَنُحضِرنَّهُم حولَ جَهنَّم جِثِيًّا (٦٨) ثمَّ لَننزِعَنَّ مِنْ كلِّ شيعةٍ أيُّهُم أشدُّ على الرحمنِ عِتيًّا (٦٩) ثم لنحنُ أعلمُ بالذينَ هُمْ أَوْلَى بها صِلِيًّا (٧٠) وإنْ مِنكُم إلاَّ وارِدُها كانَ على ربِّكَ حَتْمًا مقضِيًّا (٧١) ثم نُنجِي الذينَ اتَّقَوْا ونذرُ الظالمينَ فيها جِثِيًّا (٧٢) » .

ذكر كثير من المفسرين أن قوله - تعالى - : « ويقول الإنسان ... » نزل فى أشخاص معينين .

فمنهم من يرى أن هذه الآية نزلت فى « أبى بن خلف » فإنه أخذ عظما باليا . فجعل يفتته بيده . ويذريه فى الريح ويقول : زعم محمد - صلى الله عليه وسلم - أننا نبعث بعد أن نموت ونصير مثل هذا العظم البالى ومنهم من يرى أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، أو فى العاصى بن وائل ، أو فى أبى جهل .

وعلى كل واحد من هذه الأقوال تكون « أل » فى الإنسان للعهد ، والمراد به أحد هؤلاء الأشخاص ، ويكون لفظ الإنسان من قبيل العام الذى أراد به الخصوص .

ومن الأساليب العربية المعروفة : إسناد الفعل إلى المجموع، مع أن فاعله

بعضهم لا جميعهم كما يقال : بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم ، ومن هذا القبيل قول الفرزدق :

فسيف بنو عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس ، مع أنه صرح بأن الضارب هو ورقاء الذى كان السيف بيده .

وقيل : المراد بالإنسان هنا : جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث أو المراد : جنس الكافر المنكر للبعث .

و « إذا » فى قوله : « أئذا ما مت » منصوب بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط .

والمعنى ويقول هذا الإنسان الجاهل الجحود ، المنكر للبعث والنشور ، أأعود للحياة مرة أخرى بعد موتى ، وبعد أن أكون كالعظام النخرة .

والاستفهام للإنكار والنفى . وعبر ـ سبحانه ـ بالمضارع « يقول » لاستحضار تلك الصورة الغريبة . وتلك الأقوال المنكرة التى صدرت عن هذا الكافر ، أو لإفادة أن هذا القول موجود ومستمر عند كثير من الكافرين .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ حكاية عن هؤلاء الجاحدين : « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد »[1] .

وقوله ـ عز وجل ـ : « يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة »[2] .

وقد رد الله ـ تعالى ـ عليهم بما يبطل قولهم ، ويخرس ألسنتهم فقال : « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » .

---

(١) سورة ق الآية ٣ .

(٢) سورة النازعات الآيات ١٠ — ١٢ .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والواو للعطف على مقدر .

والمعنى أيقول هذا الإنسان ذلك القول الباطـــل ، ولا يتذكر أننا أوجدناه بقدرتنا من العدم ولم يكن شيئاً مذكورا ، ومن المعروف عند العقلاء . أن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد وجوده ، أيسر من إيجاده من العدم .

فالآية الكريمة ترد على كل جاحد للبعث بدليل منطقى برهانى، يهدى القلوب إلى الحق ، ويقنع العقول بأن البعث حق وصدق .

وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات أخرى كثيرة منها قوله تعالى « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه، قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .... »(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون »(٢) .

قال الإمام ابن كثير : وفى الحديث الصحيح ـ الذى يرويه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه : « يقول الله ـ تعالى ـ كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى . أما تكذيبه لى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى . وليس أول الخلق أهون على من آخره .

وأما أذاه إياى فقوله : إن لى ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ثم عقب ـ سبحانه ـ على هذا التوبيخ والتقريع لهذا الإنسان الجاحد ، بقسم منه ـ سبحانه ـ على وقوع البعث والنشور ، فقال : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ، ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » .

والحشر : الجمع . يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم .

(١) سورة يس الآيتان ٧٨، ٧٩ .

(٢) سورة الواقعة الآية ٦٢ .

والمراد بالشياطين : أولئك الأشرار الذين كانوا فى الدنيا يوسوسون لهم بإنكار البعث .

أى : أقسم لك بذاتى - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المنكرين للبعث لنجمعنهم جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء، ولنجمعن معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم فى الدنيا .

قالوا : وفائدة القسم أمران : أحدهما: أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين، والثانى : أن إقسام الله - تعالى - باسمه ، مضافا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - رفعا منه لشأنه . كما رفع من شأن السموات والأرض فى قوله - تعالى - : « فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون »(١) .

وقوله : « ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » تصوير حسى بليغ لسوء مصيرهم ، ونكد حالهم .

و « جثيا » جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه . يقال : جثا فلان يجثو ويجثى جثوا وجثيا فهو جاث، إذا جلس على ركبتيه ، أوقام على أطراف أصابعه . والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا فى موقف شديد ، وأمر ضنك، جثوا على ركبهم .

أى : فوربك لنحضرنهم يوم القيامة للحساب ومعهم شياطينهم ، ثم لنحضرنهم جميعا حول جهنم ، حالة كونهم باركين على الركب . عجزا منهم عن القيام ، بسبب ما يصيبهم من هول يوم القيامة وشدته .

قال - تعالى - : « وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون »(٢) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص ٧٢ .

(٢) سورة الجاثية الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

ثم يخص - سبحانه - بالذكر المصير المفزع المتكبرين من هؤلاء الكافرين فيقول: «ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا».

والنزع: العزل والإخراج. يقال: نزع السلطان عامله، إذا عزله وأخرجه من عمله. والشيعة في الأصل: الجماعة من الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور. يقال: تشايع القوم، إذا تعاونوا فيما بينهم.

و«عتيا» أي: خروجا عن الطاعة والاستجابة للأمر. يقال: عتا فلان يعتو عتوا - من باب قعد - فهو عات، إذا استكبر وجاوز حدوده في العصيان والطغيان.

والمعنى. ثم لنستخرجن من كل طائفة تشايعت وتعاهدت على الكفر بالبعث، والجحود للحق، الذين هم أشد خروجا عن طاعتنا وامتثال أمرنا. فنبدأ بتعذيبهم أولا، لأنهم أشد من غيرهم في العتو والعناد والجحود والضلال.

قال الجمل ما ملخصه: «وأظهر الأعاريب في قوله: «أيهم أشد» أن «أي» موصولة بمعنى الذي، وأن حركتها حركة بناء - أي مبنية على الضم -، وأشد خبر مبتدأ مضمر، والجملة صلة لأي، وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولا به لننزعن. وعتيا تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذي هو أشد. أي: جراءته على الرحمن أشد من جراءة غيره»(1).

وقوله - تعالى -: «ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا» بيان لشمول علمه - تعالى - بأحوال هؤلاء الجاحدين، وبأحوال غيرهم.

و«صليا» مصدر صلى النار - كرضى - يصلاها صليا - بكسر الصاد وضمها - إذا ذاق حرها، واكتوى بها.

أي: ثم لنحن أعلم من كل أحد سوانا، بالذين هم أحق بجهنم، وباصطلاء نارها، وبالاكتواء بحرها وسعيرها، لأننا لا يخفى علينا شيء من أحوال خلقنا

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٧٣.

وسنجازى المتقين بما يستحقون من خير وثواب ، وسنجازى الجاحدين بما يستحقون من إهانة وعذاب .

ثم بين - سبحانه - أن الجميع سيرد جهنم . فقال : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » .

وللعلماء أقوال متعددة فى المراد بقوله - تعالى - « وإن منكم إلا واردها » .

فمنهم من يرى أن المراد بورودها : دخولها لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يدخلونها ، إلا أن النار تكون بردا وسلاما على المؤمنين عند دخولهم إياها ، وتكون لهيبا وسعيرا على غيرهم .

ومنهم من يرى أن المراد بورودها : رؤيتها والقرب منها والإشراف عليها دون دخولها ، كما فى قوله - تعالى - « ولما ورد ماء مدين » أى : أشرف عليه وقاربه .

ومنهم من يرى أن المراد بورودها ، خصوص الكافرين، أى: أنهم وحدهم هم الذين يردون عليها ويدخلونها . أما المؤمنون فلا يردون عليها ولا يدخلونها .

ويبدو لنا أن المراد بالورود هنا : الدخول ، أى : دخول النار بالنسبة للناس جميعا إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين ، وهناك أدلة على ذلك منها .

أن هناك آيات قرآنية جاء فيها الورود ، بمعنى الدخول ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود[1] » .

ومعنى فأوردهم : فأدخلهم .

يضاف إلى ذلك أن قوله - تعالى - بعد هذه الآية : ثم ننجى الذين اتقوا وتذر الظالمين فيها جثيا ، قرينة قوية على أن المراد بقوله « وإن منكم إلا

(١) سورة هود الآيات ص ٩٦ ، ٩٨

واردها . . . أي : داخلها سواء أكان مؤمنا أم كافرا ، إلا أنه - سبحانه - بفضله وكرمه ينجي الذين اتقوا من حرها ، ويترك الظالمين يصطلون بسعيرها .

كذلك مما يشهد بأن الورود بمعنى الدخول ، ما أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم . . . عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن ، وقال آخرون يدخلونها جميعا ، ثم ينجي الله الذين اتقوا .

قال : فلقيت جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - فذكرت له ذلك فقال - وأهوى بإصبعيه على أذنيه - صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما ، كما كانت على إبراهيم ؛ حتى أن النار ضجيجا من بردهم . ثم ينجي الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا »(1) .

ولا يمنع من كون الورود بمعنى الدخول قوله - تعالى - « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها . . . » لأن دخول المؤمنين فيها لا يجعلهم يشعرون بحرها أو حسيسها ، وإنما هي تكون بردا وسلاما عليهم ، كما جاء في الحديث الشريف .

قال الإمام القرطبي بعد أن توسع في ذكر هذه الأقوال : وظاهر الورود الدخول .. إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار؟ فقال لهم : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها ، فقد أبعد عنها ونجى منها ، نجانا الله - تعالى - منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما ، وخرج منها غانما .

فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول :

---

(1) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٢ . والآلوسي ج ١٦ ص ١٢١

إن الخلق جميعا يردونها - كما دل عليه حديث جابر - فالعصاة يدخلونها بجرائمهم، والأولياء والسعداء لشفاعتهم، فبين الدخولين بون ...(١).

والمعنى: وما منكم - أيها الناس - أحد إلا وهو داخل النار، سواء أكان مسلما أم كافرا، إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين. وهذا الدخول فيها كان على ربك أمرا واجبا ومحتوما، بمقتضى حكمته الإلهية، لا بإيجاب أحد عليه.

«ثم ننجي الذين اتقوا» أي: ثم بعد دخول الناس جميعا النار، ننجي الذين اتقوا، فنخرجهم منها دون يذوقوا حرها، «ونذر الظالمين فيها جثيا» أي: ونترك الظالمين في النار مخلدين فيها جاثين على ركبهم، عاجزين عن الحركة. من شدة ما يصيبهم من هولها وسعيرها.

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا أقوال الجاحدين في شأن البعث والحساب، وردت عليهم ردا يبطل أقوالهم، كما أثبتت بأن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الظالمين سيدخلون النار، وأن المؤمنين سينجيهم الله - تعالى - بفضله منها.

ثم تسوق السورة بعد ذلك موقف الكافرين عند سماعهم لآيات الله - تعالى - كما تسوق ما قالوه للمؤمنين على سبيل التفاخر عليهم، وما رد به القرآن على هؤلاء المترفين المتعالين، قال - تعالى -:

«وإِذَا تُتْلَى عليهم آياتُنا بينات قالَ الذين كَفرُوا للذينَ آمنُوا أى الفَريقينِ خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيًّا (٧٣) وكَمْ أَهْلَكْنَا قبلَهم من قَرْنٍ هُمْ أَحسَنُ أَثاثاً ورِئْيًا (٧٤) قُلْ مَنْ كانَ في الضلالةِ فليَمْدُدْ لهُ الرحمنُ مَدًّا، حتَّى إذَا رأَوْا ما يُوعَدُونَ، إمَّا العذابَ وإمَّا الساعةَ، فَسَيَعلَمونَ مَنْ هُو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جندًا (٧٥) ويزيدُ اللهُ الذينَ اهتدَوْا هُدًى، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عِندَ ربِّكَ ثوابًا وخيرٌ مَرَدًّا (٧٦)».

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٣٩.

فقوله - سبحانه - : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات . . . » حكاية لما قاله الكافرون للمؤمنين على سبيل التباهى والتفاخر .

أى : وإذا تتلى على هؤلاء المشركين المنكرين للبعث آياتنا البينات الواضحات ، الدالة على صحة وقوع البعث والحساب يوم القيامة « قال الذين كفروا » على سبيل العناد والتعالى « للذين آمنوا » بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قالوا لهم انظروا « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

والمقام - بفتح الميم - : مكان القيام والمراد به مساكنهم ومنازلهم التى يسكنونها وينزلون بها .

والندى والنادى والمنتدى : مجلس القوم ومكان تجمعهم .

يقال : ندوت القوم أندوهم ندوا ، إذا جمعتهم فى مجلس الانتداء . ومنه : دار الندوة للمكان الذى كانت تجتمع فيه قريش للتشاور فى أمورها .

أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكافرين آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى أن البعث حق ، قالوا للمؤمنين على سبيل الاحتقار لهم : نحن وأنتم أينا خير من الآخر مكانا ، وأحسن مجلسا ومجتمعا فهم يتفاخرون على المؤمنين بمساكنهم الفارعة ، ومجالسهم التى يجتمع فيها أغنياؤهم ووجهاؤهم .

قال الجمل فى حاشيته : « أى قالوا للمؤمنين : انظروا إلى منازلنا فتروها أحسن من منازلكم وانظروا إلى مجلسنا عند التحدث ومجلسكم ، فتروننا نجلس ويصدر المجلس ، وأنتم تجلسون فى طرفه الحقير . فإذا كنا بهذه المثابة وأنتم بتلك فنحن عند الله خير منكم ، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله بهذه الأمور كما أكرمنا بها »[1] .

وما حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء الكافرين فى هذه الآية ، قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين »[2]

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٧٤

(٢) سورة سبأ الآية ٣٥

وقد رد الله - تعالى - على هؤلاء الجاهلين المغرورين بقوله : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا » .

و « كم » هنا خبرية ، ومعناها الإخبار عن العدد الكثير وهى فى محل نصب على المفعول به لجملة « أهلكنا » ، و « من قرن » تمييز لها . والقرن : اسم لأهل كل أمة تتقدم فى الوجود على غيرها ، مأخوذ عن قرن الدابة لتقدمه فيها .

و « الأثاث » المتاع للبيت . وقيل : هو الجديد من الفراش ، وقد يطلق على المال بصفة عامة .

و « رئيا » أى : منظرا وهيئة ومرأى فى العين مأخوذ من الرؤية التى تراها العين .

والمعنى : - قل أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين المتباهين بما كنهم ومجالسهم : لا تفتخروا ولا يغرنكم ما أنتم فيه من نعيم ، فإنما هو نوع من الاستدراج ، فإن الله - تعالى - قد أهلك كثيراً من الأمم السابقة عليكم ، كانوا أحسن منكم متاعا وزينة ، وكانوا أجمل منكم منظراً وهيئة . فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم ومظهرهم الحسن ، عندما أراد الله - تعالى - إهلاكهم بسبب كفرهم وجحودهم .

فالآية الكريمة تهديد للكافرين المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم - ورد على أقوالهم الباطلة ، وعنجهيتهم الذميمة . إذ لو كانت المظاهر والأمتعة والهيئات الحسية تنفع أصحابها ، لنفعت أولئك المهلكين من الأمم السابقة .

وشبيه بهذه الآية فى الرد على هؤلاء الكافرين قوله - تعالى - : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون »[1] .

---

(١) سورة سبأ آية ٣٧ .

وقوله - سبحانه - : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين »[١] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يضيف إلى تهديدهم السابق تهديدا آخر فقال : « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا .... »

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين المتفاخرين بمساكنهم ومظاهرهم . . . قل لهم : من كان منغمسا فى الضلالة والشقاوة والغفلة . . . فقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يمد له فى العطاء كأن يطيل عمره ، ويوسع رزقه ، على سبيل الإستدراج والإمهال . .

فصيغة الطلب وهى قوله - تعالى - : « فليمدد » على هـــذا التفسير ، المراد بها : الإخبار عن سنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وهى أن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن يمهل الضالين ، وأن يزيدهم من العطاء الدنيوى ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »[٢] .

وقال - سبحانه - : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين »[٣] .

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا التفسير فقال ما ملخصه : « وقوله

(١) سوره القلم الآيتان ٤٤ ، ٤٥
(٢) سورة الأنعام الآيتان ٤٤ ، ٤٥
(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٨

« قل من كان فى الضلالة . . . . » أمر منه - تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم - بأن يجيب على هؤلاء المتفاخرين بما لهم من الحظوظ الدنيوية ...

وقوله : « فليمدد له الرحمن مدا » أى : يمد - سبحانه - له ويمهله بطول العمر ، وإعطاء المال ، والتمكن من التصرفات ، فالطلب فى معنى الخبر واختير للإيذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير فيكون حاصل المعنى : من كان فى الضلالة فلا عذر له فقد أمهله الرحمن ومد له مدا وجوز أن يكون ذلك للاستدراج .

وحاصل المعنى : من كان فى الضلالة فعادة الله أن يمد له ويستدرجه[١].

ومن المفسرين من يرى أن صيغة الطلب وهى « فليمدد » على بابها ، ويكون المقصود بالآية الدعاء على الضال من الفريقين بالازدياد من الضلالة .

وعليه يكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم لهؤلاء المتفاخرين ، من كان منا أو منكم على الضلالة ، فليزده الله من ذلك ، وكأن الآية الكريمة تأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمباهلة المشركين كما أمره الله - تعالى - فى آية أخرى بمباهلة اليهود فى قوله : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين .. »[٢] .

وكما أمر الله بمباهلة النصارى فى قوله - سبحانه - : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »[٣] .

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمامان ابن جرير وابن كثير ، فقد قال ابن كثير : يقول - تعالى - « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٢٦

(٢) سورة الجمعة الآية ٦٠

(٣) سورة آل عمران الآية ٦١

بربهم ، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ، من كان فى الضلالة ، أى منا ومنكم ، فليمدد له الرحمن مدا ، أى : فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ... قال مجاهد فى قوله ، فليمدد له الرحمن مدا ، فليدعه الله فى طغيانه هكذا ، قرر ذلك أبو جعفر بن جرير ، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر - تعالى - مباهلة اليهود والنصارى ...»[1].

ومع وجاهة التفسيرين لمعنى ، فليمدد له ... ، إلا أننا نميل إلى الرأى الأول وهو أن صيغة الطلب يراد بها الإخبار عن سنة الله - تعالى - فى الضالين ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ... ، ويؤيد هذا الرأى .

وقوله - سبحانه - : ، حتى إذا رأوا ما يوعدون ... ، متعلق بما قبله .

أى : فليمدد له الرحمن مدا على سبيل الاستدراج والإمهال ، حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعدهم الله - تعالى - به ، علموا وأيقنوا أن الأمر بخلاف ما كانوا يظنون وما كانوا يقولون . لأنهم سينزل الله - تعالى - بهم ، إما العذاب ، الدنيوى على أيدى المؤمنين ، وإما الساعة ، أى : وإما عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى .

وحينئذ يعلمون ويوقنون ، من هو ، من الفريقين ، شر مكانا ، أى : أسوأ منزلا ومسكنا ، وأضعف جندا ، أى : وأضعف أعوانا وأنصارا .

وهذه الجملة الكريمة رد على قول المشركين قبل ذلك : ، أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، .

وقوله - تعالى - : ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ... ، كلام مستأنف مسوق لبيان سنة الله - تعالى - التى لا تتخلف فى المهتدين ، بعد بيان سنته فى الضالين .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٣ ص ١٣٤

أي : ويزيد الله - تعالى - المهتدين إلى طريق الحق هداية على هدايتهم ، بأن يثبتهم عليه ، كما قال - سبحانه - : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . وكما قال - عز وجل - : «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . . . »

وقوله - تعالى - : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » أي : والأعمال الباقيات الصالحات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من أعمال البر ، خير عند ربك ثوابا وجزاء مما تمتع به الكفار في دنياهم من شهوات «وخير مردا» أي : مرجعا وعاقبة .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف قيل : خير عند ربك ثوابا ، كأن لمفاخراتهم ثوابا ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه ؟

قلت : كأنه قيل : ثوابهم النار على طريقة قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . ثم بنى عليه خير ثوابا ، وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له : عقابك النار . . . »[1] .

والخلاصة أنه لا ثواب لهؤلاء الكافرين سوى النار ، أما المؤمنون فثوابهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

وقال بعض العلماء : «ويظهر لي في الآية جواب آخر أقرب من هـــذا ، وهو أن الكافر يجازى بعمله الصالح في الدنيا ، فإذا بر والديه ، ونفس عن المكروب . . . فإن الله يثيبه في الدنيا . . فثوابه هذا الراجع إليه من عمله في الدنيا ، هو الذي فضل الله عليه ثواب المؤمنين ، وهذا واضح لا إشكال فيه »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٣٨ .

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطي جـ ٤ ص ٣٦٤ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت جانبا من تباهى الكافرين بدنياهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك لونا آخر من ألوان تبجحهم ، وأقوالهم الباطلة ، وردت عليها بأسلوب منطقى حكيم فقال - تعالى - : -

« أفرأيتَ الذى كفر بآياتنا وقالَ لأوتينَّ مالاً وولداً (٧٧) أطلعَ الغيبَ أم اتخذ عندَ الرحمنِ عهداً (٧٨) كلاَّ سنكتبُ مايقولُ ونمدُّ لهُ من العذابِ مدًّا (٧٩) ونرثُه ما يقولُ ويأتينا فرداً (٨٠) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما أخرجه البخارى ومسلم عن خباب بن الأرت قال : جئت العاص بن وائل السهمى أتقاضاه حقا لى عنده ، فقال لى : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فقلت له : لا ، والله لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حيا ولا ميتا ولا إذا بعثت . فقال العاص : فإذا بعثت جئتنى ولى هناك مال وولد فأعطيك حقك ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .

وفى رواية أن رجالا من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - أتـــوه يتقاضون دينا لهم عليه فقال : ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ومن كل الثمرات ؟ قالوا : نعم . قال : موعدكم الآخرة والله لأوتين مالا وولدا ...[1]

والاستفهام فى قوله - سبحانه « أفرأيت ... » للتعجيب من شأن هذا الكافر الجهول والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والتقدير : أنظرت أيها العاقل فرأيت هذا الجاحد الجهول الذى كفر بآياتنا الدالة على وحدانيتنا ،

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٢٩ .

أو على أن للبعث حق ، وعلى أن ماجاء به رسولنا - صلى الله عليه وسلم - حق وصدق ...

ولم يكتف بهذا الكفر ، بل قال بكل تبجح ، وإصرار على الباطل ، واستهزاء بالدين الحق : والله « لأوتين » فى الآخرة « مالا وولدا » كما هو حالى فى الدنيا .

فأنت ترى أن هذا الكافر لم يكتف بكفره ، بل أضاف إليه القول الباطل المصحوب بالقسم الكاذب . وبالتهكم بالدين الحق .

وقرأ حمزة والكسائى : « لأوتين مالا وولدا » - بضم الواو الثانية وسكون اللام - ، وقرأ الباقون بفتحهما . قالوا : والقراءتان بمعنى واحد كالعرب والعرب . ويرى بعضهم الولد بالفتح للمفرد ، والولد - بضم الواو وسكون اللام - للجمع .

وقد رد الله - تعالى - على هذا المتبجح المغرور رداً حكيما ملزما فقال : أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا ...

والاستفهام للإنكار والنفى ، والأصل : أأطلع فحذفت همزة الوصل للتخفيف .

والمعنى : إن قول هذا الجاهل إما أن يكون مستندا إلى إطلاعه على الغيب وعلمه بأن الله سيؤتيه فى الآخرة مالا وولدا ، وإما أن يكون مستندا إلى عهد أعطاه الله - تعالى - له بذلك .

ومما لاشك فيه أن كلا الأمرين لم يتحققا بالنسبة له ، فهو لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا ، فثبت كذبه وافتراؤه ، ولذا كذبه الله - تعالى - بقوله : « كلا » وهو قول يفيد الزجر والردع والنفى .

أى : كلا لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا . بل قال ذلك افتراء على الله .

وقوله - سبحانه - « سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه مايقول ويأتينا فردا » بيان للمصير السيء الذي سيصير إليه هذا الشقي وأمثاله. و « نمد » من المد وأكثر مايستعمل في المكروه .

أي : سنسجل على هذا الكافر ماقاله ، ونحاسبه عليه حسابا عسيرا، ونزيده عذابا فوق العذاب المعد له ، بأن نضاعفه له ، ونطيله عليه « ونرثه مايقول » أي : مايقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد ، بأن نسلبه منه ، ونجعله يخرج من هذه الدنيا خالي الوفاض منهما ، وليس معه في قبره سوى كفنه « ويأتينا فردا » أي : ويأتينا يوم القيامة بعد مبعثه منفردا بدون مال أو ولد أو خدم أو غير ذلك مما كان يتفاخر به في الدنيا هو وأشباهه من المغرورين الجاحدين .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت كيف قيل : سنكتب بسين التسويف وهو كما قاله كتبه من غير تأخير . قال - تعالى - : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ؟

قلت : فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قول الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدي من أن تقرى بها بدا

أي : تبين وعلم بالانتساب أني لم تلدني لئيمة .

والثاني : أن المتوعد يقول للجاني : سوف أنتقم منك ، يعني أنه لايخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر، فجردها هنا لمعنى الوعيد... »(١) .

ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا أخرى من رذائل المشركين ، فتحكي اعتزازهم بأوثانهم ، وتثبت عداوة هذه الأوثان لهم يوم القيامة ،

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠ .

وتبشر المؤمنين برضا الله - تعالى - عنهم. وتنذر الكافرين بالسوق إلى جهنم. قال - تعالى - :

«واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا (٨٢) ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا (٨٣) فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدًّا (٨٤) يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا (٨٥) ونسوق المجرمين إلى جهنم وردًا (٨٦) لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا (٨٧)» .

والضمير فى قوله : «واتخذوا» يعود إلى أولئك الكافرين الذين ذكر القرآن فيما سبق بعض رذائلهم ودعاواهم الكاذبة ، ولما تنته بعد :

أى : واتخذ هؤلاء الجاهلون آلهة باطلة يعبدونها من دون الله - تعالى - ، لتكون لهم تلك الآلهة «عزا» أى : لينالوا بها العزة والشفاعة والنصرة والنجاة من عذاب يوم القيامة .

فقد حكى القرآن أنهم كانوا إذا سئلوا عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر قالوا : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» ، وقالوا : «هؤلاء شفعاؤنا عند الله ...» .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يردعهم عن هذا الظن لو كانوا يعقلون فقال : «سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا» .

و «كلا» لفظ جىء لزجرهم وردعهم عن هذا الاتخاذ الفاسد الباطل . أى : ليس الأمر كما توهم هؤلاء الجاهلون من أن أصنامهم ستكون لهم عزا ، بل الحق أن هذه المعبودات الباطلة ستكون عدوة لهم وقرينتهم فى النار .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «ومن أضل ممن يدعون من دون الله من

لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين[١] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير »[٢] .

وأفرد ـ سبحانه ـ عزا وضدا ، مع أن المراد بهما الجمع . لأنهما مصدران ثم بين ـ عز وجل ـ أن هؤلاء الكافرين قد استحوذت عليهم الشياطين فزادتهم كفرا على كفرهم ، فقال ـ تعالى ـ : « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا » .

والاستفهام للتقرير والتأكيد و « تؤزهم » تحركهم تحريكا قويا، وتهزهم هزا شديداً ، وتحرضهم على ارتكاب المعاصي والموبقات حتى يقعوا فيها .

يقال : أز فلان الشيء يئزه ويؤزه ـ بكسر الهمزة وضمها أزا، حركه بشدة، وأز فلان فلانا إذا أغراه وهيجه وحثه على فعل شيء معين . وأصله من أزت القدر تؤز أزيزا ، إذا اشتد غليان الماء فيها .

والمعنى : لقد علمت أنت وأتباعك أيها الرسول الكريم ، أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ، وسلطناهم عليهم ، وقيضناهم لهم . لكي يحضوهم على ارتكاب السيئات ، ويحركهم تحريكا شديداً نحو الموبقات حتى يقترفوها وينغمسوا فيها ...

وما دام الأمر كذلك ، فذرهم في طغيانهم يعمهون، ولا تتعجل وقوع العذاب بهم . فإن الله ـ تعالى ـ قد حدد ـ بمقتضى حكمته ـ وقتا معينا لنزول العذاب بهم.

وقوله : « إنما نعد لهم عدا » تعليل لموجب النهي ببيان أن وقت هلاكهم قد اقترب ، إذ كل معدود له نهاية ينتهي عندها .

قال القرطبي ما ملخصه : « قوله: « إنما نعد لهم عدا » يعني الأيام والليالي

(١) سورة الأحقاف الآية ٥، ٦ . (٢) سورة فاطر الآية ١٤ .

والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب .. وقال الضحاك : تعد أنفاسهم . وقال قطرب : تعد أعمالهم عدا .

روى أن المأمون قرأ هذه السورة فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد وقيل فى هذا المعنى :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منك انتقصت به جزءا
يميتك ما يحييك فى كل ليلة ويحدوك حاد ما يريد به الهزءا.[1]

وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد : خروج نفسك . آخر العدد : فراق أهلك . آخر العدد : دخول قبرك.

ثم بين - سبحانه - عاقبة المتقين، وعاقبة المجرمين يوم القيامة فقال : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا . ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » . لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ، و« يوم » ظرف منصوب بقوله « لا يملكون ... » . أى : لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين ... ويجوز أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره : اذكر أو احذر .

وقوله : « وفدا » جمع وافد . يقال . وفد فلان على فلان يفد وفدا ووفودا ، إذ أقدم عليه وفعله من باب وعد .

ويطلق الوفد على الجمع من الرجال الذين يفدون على غيرهم لأمر من الأمور الهامة ، وهم راكبون على دوابهم . وهذا الإطلاق هو المراد باللفظ هنا .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم القيامة ، يوم نحشر المتقين إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته راكبين على مراكب تنشرح لها النفوس وتسر لها القلوب .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٥٠ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: «يخبر الله ـ تعالى ـ عن أوليائه المتقين، الذين خافوه فى الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه. والوفد هم القادمون ركبانا ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه...

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج... عن ابن مرزوق قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها، وطيبها ريحا، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفنى؟ فيقول: لا، إلا أن الله ـ تعالى ـ طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح... فاركبنى، فذلك قوله: يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا»(١).

وقوله ـ تعالى ـ: «ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا» بيان لسوء عاقبة المجرمين بعد بيان ما أعده الله للمتقين من نعيم.

و «وردا» أى: عطاشا. وأصل الورد الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه بعد العطش الشديد.

أى: ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم فى دنياهم، ونسوقهم سوقا إلى جهنم كما تساق البهائم. حالة كونهم عطاشا، يبحثون عن الماء فلا يجدونه.

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ: «لا يملكون الشفاعة...» يرى بعضهم أنه يعود إلى المجرمين فى قوله «نسوق المجرمين ...».

أى: نسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا، حالة كونهم لا يملكون الشفاعة لغيرهم. ولا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم، لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهم المؤمنون الصادقون فإنهم يملكونها بتمليك الله ـ تعالى ـ لهم إياها

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٣٧.

وإذنه لهم فيها ، كما قال ـ تعالى ـ : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . . . » وكما قال ـ سبحانه ـ : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعا .

قال القرطبي : « قوله ـ تعالى ـ « لا يملكون الشفاعة » أي : هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ، إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهم المسلمون فيملكونها . فهو استثناء الشيء من غير جنسه . أى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يشفع ، فمن فى موضع نصب على هذا . . . ويرى آخرون أن الضمير فى قوله : « لا يملكون . . . » يعود إلى فريق المتقين والمجرمين .

أى : لا يملك أحد من الفريقين يوم القيامة الشفاعة لأحد ، ولا يملك غيرهم الشفاعة لهم ، « إلا من اتخذ » منهم « عند الرحمن عهداً » ، وهم المؤمنون فإنهم يملكونها بإذن الله لهم .

والمراد بالعهد الأمر والإذن . يقال عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به ، أو أذن له فى فعله .

وعلى هذا يكون الاستثناء متصلا ، ويكون لفظ « من » بدل من الواو فى « يملكون » .

قال الآلوسى ماملخصه : « قوله « لا يملكون الشفاعة » ضمير الجمع يعم المتقين والمجرمين ، أى : العباد مطلقا . . . وقوله « إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » استثناء متصل . . . والمعنى : لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم ، إلا من اتصف منهم بما يستأهل معه أن يشفع ، وهو المراد بالعهد . . . »(٢) .

ويبدو لنا أن هذا القول أولى ، لشموله وعمومه إذ الكلام السابق فى الفريقين جميعا ، فريق المتقين وفريق المجرمين .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٥٣ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٣٧ .

ثم يستطرد السياق القـــرآنى ، إلى حكاية أقوال أخرى ، من أقوال الكافرين الباطلة ، وهى زعمهم أن الله ـ تعالى ـ ولدا . فقال ـ سبحانه ـ :

« وقالوا اتخذَ الرحمنَ ولداً (٨٨) لقدْ جئتُم شيئاً إداً (٨٩) تـكادُ السمواتُ يتفطرنَ منهُ وتنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هدا (٩٠) أنْ دعوا للرحمنِ ولداً (٩١) وما تنبغى للرحمنِ أن يتخذَ ولداً (٩٢) إن كل منْ فى السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عبداً (٩٣) لقد أحصاهُم وعدهم عدا (٩٤) وكلهم آتيه يومَ القيامةِ فرداً (٩٥) » .

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ : « وقالوا » يشمل كل من نفوه بهذا القول الباطل سواء أكان من اليهود أم من النصارى أم من المشركين .

وقوله : « لقد جئتم شيئا إدا » توبيخ وتقريع من الله ـ تعالى ـ لهم على هذا القول المنكر .

أى : لقد جئتم بقولكم هذا أيها الضالون شيئاً فظيعاً عجيباً منكراً تقشعر لهوله الأبدان .

والإد والإدة ـ بكسر الهمزة ـ الأمر الفظيع والداهية الكبيرة يقال: فلان أدته الداهية فهى تئده وتؤده ، إذا نزلت به وحطمت كيانه .

وقوله ـ سبحانه ـ : « تكاد السموات يتفطرن منه ... » فى موضع الصفة لقوله « إدا » .

أى : لقد جئتم بقولكم هذا أمراً منكراً فظيعا ، تكاد السموات « يتفطرن منه » أى : يتشققن من هوله ، من التفطير بمعنى التشقيق ، يقال: فلان فطر هذا الشىء يفطره ـ بكسر الطاء وضمها ـ إذا شقه . وقرأ حمزة وابن عامر « ينفطرن » من الإنفطار وهو الانشقاق ـ أيضا ـ .

« وتنشق الأرض » أى: وتتصدع الأرض من عظمه، وتنخسف بهؤلاء

القائلين ذلك القول الفاسد، «وتخر الجبال هدا»[١] أى: وتسقط الجبال مهدودة - أيضاً - من فظاعة هذا القول. يقال هذا الجدار يهده - بضم الهاء - هدا: إذا هدمه.

وقوله: «أن دعوا للرحمن ولدا...» بمنزلة التعليل لما قبله مع تقدير لام التعليل المحذوفة.

أى: تكاد السموات يتفطرن والأرض تنشق، والجبال تنهد، لأن هؤلاء الضالين قد زعموا أن لله - تعالى - ولدا، والحال أنه مايصح وما يليق أن يتخذ الرحمن ولدا، لأنه - سبحانه غنى عن العالمين.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: «فإن قلت ما معنى هذا التأثر من أجل هذه الكلمة؟

قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن الله سبحانه - يقول: كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً منى على من تفوه بها... لولا أنى لا أعجل بالعقوبة...

والثانى: أن يكون استعظاما للكلمة، وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لأثرها فى الدين، وهدمها لأركانه وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر فى المحسوسات: أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التى هى قوام العالم، ما تنفطر منه وتنشق وتخر...»[٢].

وقال الإمام القرطبى: نفى عن نفسه - سبحانه وتعالى - الولد، لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث... ولا يليق به ذلك، ولا يوصف به، ولا يجوز فى حقه...

وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٤.
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٤.

يقول الله - تبارك وتعالى - كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »(١) .

ثم بين - سبحانه - أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته وإرادته وعلمه فقال : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ... » .

و « إن » نافية بمعنى ما ، أي : ما من أحد من أهل السموات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مقراً له - سبحانه - بالعبودية ، خاضعا لقدرته ، معترفا بطاعته . مقراً بأنه عبد من مخلوقاته ، ومن كان كذلك فكيف يكون له ولد ؟

وصدق الله إذ يقول : « بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم »(٢) .

ثم أكد - سبحانه - أنه هو المالك لكل شيء ، والعليم بكل شيء فقال : « لقد أحصاهم » .

أي : حصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحد من مخلوقاته عن علمه وطاعته « وعدهم عداً » أي : وعد أشخاصهم وذاتهم وحركاتهم وسكناتهم ... بحيث لا يهربون من قبضته ، ولا يخفى عليه أحد منهم .

« وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » أي : وكل واحد يأتيه - سبحانه - يوم القيامة منفرداً ، بدون أهل أو مال أو جاه .. أو غير ذلك مما كانوا يتفاخرون به في الدنيا .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ١١ ص ١٥٩ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٠١ .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت أبلغ رد وأحكمه، على أولئك الضالين الذين زعموا أن لله ولداً .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما أعده لعباده المؤمنين، وببيان بعض الخصائص التي جعلها لكتابه الكريم ... فقال - تعالى - :

« إِنَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعلُ الرحمنُ ودا (٩٦) فإنما يسرناهُ بلسانكَ لتبشرَ به المتقين وتنذرَ به قوماً لدا (٩٧) وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هل تحسُّ منهُم مِنْ أحَدٍ أو تسمع لهُم ركزاً (٩٨) » .

أى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان ، وعملوا الأعمال الصالحات « سيجعل لهم الرحمن » فى دنياهم وفى آخرتهم « وداً » أى : سيجعل لهم محبة ومودة فى القلوب ، لإيمانهم وعملهم الصالح ، يقال : ود فلان فلانا ، إذا أحبه وأخلص له المودة .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله تعالى - إذا أحب عبد جبريل فقال : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه .

قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض »(١) .

ثم بين - سبحانه - الحكمة التى من أجلها جعل القرآن ميسرا فى حفظه وفهمه فقال : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوماً لداً » .

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٦١ .

أى : أننا أنزلنا هذا القرآن على قلبك ـ أيها الرسول الكريم ـ وجعلناه بلسانك العربى المبين ، وسهلنا حفظه وفهمه على الناس ، « لتبشر به المتقين » الذين امتثلوا أمرنا واجتنبوا نهينا « وتنذر به قوماً لداً » أى : ذوى لدد وشدة فى الخصومة بالباطل ، وهم مشركو قريش . فقوله « لداً » جمع ألد ومنه قوله ـ تعالى ـ : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام »(١) أى أشد الناس خصومة وجدلا .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله ـ تعالى ـ : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »(٢) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فإنما يسرناها بلسانك لعلهم يذكرون »(٣) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية التى تخبر عن سنة من سننه فى الظالمين فقال : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » .

أى : وكثير من القرى الظالمة التى سبقتك ـ أيها الرسول الكريم ـ قد أهلكناها وأبدناها وجعلناها خاوية على عروشها .

والاستفهام فى قوله « هل تحس منهم من أحد » للنفى : أى : ما تحس منهم أحدا ولا ترى منها ديارا . يقال : أحس الرجل الشىء إحساساً . إذا علمه وشعر به .

وقوله « أو تسمع لهم ركزاً » معطوف على ما قبله « والركز : الصوت الخفى الخافت . ومنه قولهم ركز فلان رمحه ، إذا غيب طرفه وأخفاه فى الأرض . ومنه الركاز للمال المدفون فى الأرض .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٤ . (٢) سورة القمر آية ١٧ .
(٣) سورة الدخان آية ٥٨ .

والمعنى : أهلكنا كثيراً من القرى الظالمة الماضية ، فأصبحت لا ترى منهم أحدا على الإطلاق ، ولا تسمع لهم صوتا حتى ولو كان خافتا ضعيفا وإنما هم فى سكون عميق ، وصمت رهيب ، بعد أن كانوا فوق هذه الأرض يدبون ويتحركون .

وهذه سنتنا التى لا تتخلف فى الظالمين . « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » نعوذ بالله ـ تعالى ـ من ذلك .

وبعد : فهذا تفسير لسورة مريم ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة ـ مدينة نصر ، ظهر الاثنين ١٧ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ الموافق ١٦/٧/١٩٨٤ م .

د / محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالي لتفسير « سورة مريم »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٥
١	كهيعص ذكر رحمة ربك ...	١١
٧	يازكريا إنا نبشرك بغلام ...	١٧
١٢	يايحيى خذ الكتاب بقوة ...	٢١
١٦	واذكر فى الكتاب مريم ...	٢٤
٢٢	فحملته فانتبذت به مكانا ...	٢٩
٢٧	فأتت به قومها تحمله ...	٣٦
٣٤	ذلك عيسى ابن مريم قول الحق ...	٤٠
٤١	واذكر فى الكتاب إبراهيم ...	٤٦
٥١	واذكر فى الكتاب موسى ...	٥١
٥٤	واذكر فى الكتاب إسماعيل ...	٥٣
٥٦	واذكر فى الكتاب إدريس ...	٥٥
٥٨	أولئك الذين أنعم الله عليهم ...	٥٦
٦٤	وما نتنزل إلا بأمر ربك ...	٦٣
٦٦	ويقول الإنسان أئذا مامت ...	٦٦
٧٣	وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ...	٧٣
٧٧	أفرأيت الذى كفر بآياتنا ...	٨٠
٨١	واتخذوا من دون الله آلهة ...	٨٣
٨٨	وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ...	٨٨
٩٦	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ...	٩١

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة طه

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء السادس عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيم﴾

«صدق الله العظيم»

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، ومن والاه .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة « طه » يأتى فى أعقاب تفاسير أخرى ، لسور أخرى . . .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر

٢٣ من شوال سنة ١٤٠٤ هـ - ٢٢ / ٧ / ١٩٨٤ م

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة طه

١ – سورة «طه» من السور المكية . وكان ترتيبها فى النزول بعد سورة مريم .

قال الآلوسى: «وتسمى – أيضا – بسورة الكليم ... وآياتها – كما قال الدانى مائة وأربعون آية عند الشاميين ومائة وخمس وثلاثون عند الكوفيين ، ومائة وأربع وثلاثون عند الحجازيين ...»[1] .

وقال القرطبي : «سورة طه – عليه السلام – مكية فى قول الجميع، نزلت قبل إسلام عمر – رضى الله عنه ، فقد قيل له : إن ختنك وأختك قد صبوا – أى : دخلا فى الإسلام – فأتاهما وعندهما رجل من المهاجرين ... وكانوا يقرءون «طه» ...»[2] .

٢ وقد افتتحت السورة الكريمة بخطاب النبى – صلى الله عليه وسلم – وببيان وظيفته ، وببيان سمو منزلة القرآن الكريم ، الذى أنزله عليه ربه الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وتحت الثرى .

قال – تعالى – : «طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا . الرحمن على العرش استوى ....» .

ثم فصلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى – عليه السلام – فبدأت بنداء الله – تعالى – له ، وباختياره لحمل رسالته ، ثم تحدثت عن تكليفه – سبحانه – لموسى ، بالذهاب إلى فرعون ...

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٤٧ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٦٣ .

قال ـ تعالى ـ : « اذهب إلى فرعون إنه طغى قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى ... » .

٤ ـ ثم حكت السورة ما دار بين موسى وبين فرعون من مناقشات ومجادلات ، وكذلك ما دار بين موسى وبين السحرة الذين جمعهم فرعون لمنازلة موسى ـ عليه السلام ـ وكيف أن السحرة انتهى أمرهم بالإيمان ، وبقولهم لفرعون : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا . وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ... » .

٥ ـ ثم بينت السورة الكريمة ما فعله بنو إسرائيل فى غيبة موسى عنهم ، وكيف أن السامرى قد أضلهم بأن جعلهم يعبدون عجلا له خوار ... وكيف أن موسى رجع إليهم غضبان أسفا ... فحطم العجل وأحرقه وألقاه فى اليم وهو يقول : « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً » .

٦ ـ وبعد أن فصلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى ـ عليه السلام ـ عقبت على ذلك ببيان وظيفة القرآن الكريم ، وببيان جانب من أهوال يوم القيامة ، وسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ..

قال ـ تعالى ـ : « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما ... » .

٧ ـ ثم ساقت السورة فى أواخرها جانبا من قصة آدم ، فذكرت سجود الملائكة له ، ونسيانه لأمر ربه ، وقبول الله ـ تعالى ـ لتوبة آدم بعد أن وسوس له الشيطان بما وسوس ...

قال ـ تعالى ـ : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ... » .

٨ - ثم ختمت السورة الكريمة بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر وبالإكثار من ذكر الله - تعالى - وبعدم التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا ، وبأمر أهله بالصلاة ، وبالرد على مزاعم المشركين ، وبتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على ضلالهم . . .

قال - تعالى - : « قل كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

٩ - هذا عرض إجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها سورة طه . ومن هذا العرض نرى : أن القصة قد أخذت جانبا كبيراً منها ، وكذلك الحديث عن القرآن الكريم وعن يوم القيامة، وعن أحوال الناس فيه . . . قد تكرر فيها بأسلوب يهدى للتى هى أقوم . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

التفسير

قال الله – تعالى – : « طه (١) ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتشقى (٢) إلا تذكرةً لمن يخشى (٣) تنزيلاً ممَّنْ خلق الأرضَ والسَّموات العُلاَ (٤) الرحمنُ على العرشِ استوى (٥) له ما فى السموات وما فى الأرضِ وما بينهما وما تحتَ الثَّرى (٦) وإنْ تجهرْ بالقولِ فإنَّه يعلمُ السِّرَّ وأخفى (٧) اللهُ لا إلهَ إلاَّ هوَ له الأسماءُ الحُسنى (٨) » .

افتتحت السورة الكريمة بلفظ « طـه » ، وهذا اللفظ أظهر الأقوال فيه أنه من الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم .

وقد بينا بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ... آراء العلماء فى المقصود بهذه الحروف .

وقلنا ماخلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن الكريم ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه والتعجيز لمن عارضوا فى كون القرآن من عند الله - تعالى - ، أو فى كونه معجزة للنبى - صلى الله عليه وسلم - دالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه ...

وقيل : إن هذا اللفظ بمعنى يارجل فى لغة بعض قبائل العرب ...

وقيل : إنه اسم للرسول - صلى الله عليه وسلم - أو للسورة ... إلى غير ذلك من الأقوال التى رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها[1] .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٤٨ .

وقوله - سبحانه - « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ... » .

إستئناف مسوق لتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين : والشقاء يأتى فى اللغة بمعنى التعب والعناء ، ومنه المثل القائل « أشقى من رائض مهر » أى : أتعب . ومنه قول أبى الطيب المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

أى : ما أنزلنا عليك القرآن - أيها الرسول الكريم - لكى تتعب وتجهد نفسك هما وغماً بسبب إعراض المشركين عن دعوتك ، كما قال - تعالى - : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

وإنما أنزلناه إليك لتسعد بنزوله ، ولتبلغ آياته ، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ومنهم من يرى أن المقصود بالآية النهى عن المغالاة فى العبادة ، فقد أثر عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قام الليل حتى تورمت قدماه ، فيكون المعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لكى تنهك نفسك بالعبادة ، وتذيقها ألوان المشقة والتعب ، فإن الله - تعالى - يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج .

ومنهم من يرى أن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين قالوا : ما أنزل هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا ليشقى ، فيكون المراد بالشقاء ما هو ضد السعادة .

قال القرطبي ما ملخصه : « وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب ، أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب ، بسبب فرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ... أى : ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ...

وروى أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا للنبي - صلى الله عليه وسلم - إنك لشقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد الرد على ذلك بأن دين الإسلام ، وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها .

وروى أنه - عليه الصلاة والسلام - صلى بالليل حتى أسمدت قدماه - أى : تورمت - فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً ، أى : ما أنزل عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة ، وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة . . . »(١) .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة وإن كانت تتسع لهذه المعانى الثلاثة ، إلا أن المعنى الأول أظهرها ، وأقربها إلى سياق الآيات الكريمة ، فإن قوله - تعالى - بعد ذلك : « إلا تذكرة لمن يخشى » بيان للحكمة التى من أجلها أنزل الله - تعالى - هذا القرآن .

أى : ما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن لتتعب من فرط تأسفك على كفر الكافرين ، وإنما أنزلناه من أجل أن يكون « تذكرة » أى موعظة تلين لها قلوب من يخشى عقابنا ، ويخاف عذابنا ، ويرجو ثوابنا .

وما دام الأمر كذلك فامض فى طريقك ، وبلغ رسالة ربك ، ثم بعد ذلك لا تتعب نفسك بسبب كفر الكافرين ، فإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .

وخص - سبحانه - التذكرة بمن يخشى دون غيره ، لأن الخائف من عذاب الله - تعالى - هو وحده الذى ينتفع بهدايات القرآن الكريم وآدابه وتوجيهاته وأحكامه ووعده ووعيده . . . كما قال - تعالى - : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وكما قال - سبحانه - : « إنما أنت منذر من يخشاها » أى : الساعة .

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٦٨ .

ثم بين - سبحانه - مصدر القرآن الذى أنزله - تعالى - للسعادة لا للشقاء فقال : « تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى » .

وقوله « تنزيلا » منصوب بفعل مضمر دل عليه قوله ما أنزلناه . . . أى : نزل هذا القرآن تنزيلا ممن خلق الأرض التى تعيشون عليها ، وممن خلق السموات العلى ، أى : المرتفعة ، جمع العليا - ككبرى وكبر ، وصغرى وصغر .

ثم مدح - سبحانه - ذاته بقوله : « الرحمن على العرش استوى » أى : الرحمن - عز وجل - استوى على عرش ملكه استواء يليق بذاته بلا كيف أو تشبيه ، أو تمثيل .

قال الإمام مالك : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين آية من آيات القرآن الكريم .

قال بعض العلماء : أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة - ومنهم الأئمة الأربعة - إلى أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - تعالى - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه - تعالى - عما لا يليق به : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى . . . »[1] .

ثم أكد - سبحانه - شمول ملكه وقدرته فقال : « له ما فى السموات وما فى الأرض » ، من كائنات وموجودات ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة ، وله « ما بينهما » من مخلوقات لا يعلمها إلا هو وله « ما تحت الثرى » : هو التراب الندى . يقال : ثريت الأرض - كرضيت - إذا نديت ولانت بعد أن كانت جدباء يابسة .

والمقصود : وله - سبحانه - بجانب ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ، ما وراء الثرى وهو تخوم الأرض وطبقاتها إلى نهايتها .

(١) تفسير صفحة البيان جـ١ ص ٢٩٤ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

وخص - سبحانه - ما تحت الثرى بالذكر، مع أنه داخل فى قوله «وما فى الأرض» . لزيادة التقرير، ولتأكيد شمول ملكيته - سبحانه - لكل شىء .

وقوله - سبحانه - : «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى» بيان لشمول علمه بكل شىء، بعد بيان شمول قدرته .

والجهر بالقول : رفع الصوت به . والسر : ما حدث به الإنسان غيره بصورة خفية . وأخفى أفعل تفضيل وتنكيره للمبالغة فى الخفاء .

والمعنى : وإن تجهر - أيها الرسول - بالقول فى دعائك أو فى مخاطبتك لربك، فربك - عز وجل - غنى عن ذلك، فإنه يعلم ما يحدث به الإنسان غيره سرا، ويعلم أيضا ما هو أخفى من ذلك وهو ما يحدث به الإنسان نفسه دون أن يطلع عليه أحد من الخلق .

قال - تعالى - : «وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»(١) .

وقال - سبحانه - : «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»(٢) .

ومنهم من يرى أن لفظ «أخفى» فعل ماض . فيكون المعنى : وإن تجهر بالقول فى ذكر أو دعاء فلا تجهد نفسك بذلك فإنه - تعالى - يعلم السر الذى يكون بين اثنين، ويعلم ما أخفاه - سبحانه - عن عباده من غيوب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما سيفعله الإنسان من أعمال فى المستقبل، قبل أن يعلم هذا الإنسان أنه سيفعلها .

قال الجمل : «وقوله «وأخفى» جوزوا فيه وجهين : أحدهما : أنه أفعل تفضيل . أى : وأخفى من السر . والثانى : أنه فعل ماض . أى : وأخفى الله عن عباده غيبه، كقوله : ولا يحيطون به علما»(٣) .

---

(١) سورة الملك الآيتان ١٣، ١٤ (٢) سورة ق الآية ١٦

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص ٨٢

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له فقال : « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » .

أى : هو الله - تعالى - وحده الذى يجب أن يخلص الخلق له العبادة والطاعة ولا أحد غيره يستحق ذلك ، وهو صاحب الأسماء « الحسنى » أى : الفضلى والعظمى ، لدلالتها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم والنهاية فى السمو والكمال .

وفى الحديث الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » .

قال - تعالى - « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون »(١) .

وقال - سبحانه - : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى . . »(٢) .

ثم ساقت السورة الكريمة بشىء من التفصيل جانبا من قصة موسى . التى تعتبر أكثر قصص الأنبياء ورودا فى القرآن الكريم ، حيث جاء الحديث عنها فى سور : البقرة ، والمائدة ، والأعراف ، ويونس ، والإسراء ، والكهف ، والشعراء ، والقصص .

وقد بدأت السورة حديثها عن قصة موسى ببيان اختيار الله - تعالى - له لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته . قال - تعالى - :

« وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .
(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

بالوادى المقدّس طُوًى (١٢) وأنا اخترتُكَ فاستَمِعْ لمـا يُوحَى (١٣)
إنّنِي أنَا اللهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنَا فاعبُدْنِي وأقم الصـــلاةَ لذِكْرِى (١٤)
إنّ السّاعةَ آتيـةٌ أكادُ أُخفِيهاَ لتُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بمـا تَسْعَى (١٥)
فلاَ يَصُدّنّكَ عنهاَ مَنْ لا يؤْمِنُ بها واتّبعَ هواهُ فتردَى (١٦) » .

قال ابن كثير - رحمه الله - : «من هاهنا شرع - تبارك وتعالى - فى ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعد ماقضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله ؛ قيل : قاصداً بلاد مصر بعد ماطالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب ، وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا ، كما جرت العادة به ، فجعل لايقدح شيئا ، ولايخرج منه شرر ولاشىء ، فبينما هو كذلك ، إذ آنس من جانب الطور ناراً .

أى : ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه ، فقال لأهله يبشرهم : «إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس» أى شهاب من نار ...»[1] .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - «وهل أتاك ...» لتقرير الخبر وتثبيته ، وهذا أبلغ عن مجيئه بصورة الخبر المجرد . لأن فى الاستفهام التقريرى تطلع واشتياق لمعرفة الخبر .

والجملة الكريمة مستأنفة لتأكيد ماسبق الحديث عنه من واحدانية الله - تعالى - ولتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، ببيان جانب من جهاد أخيه موسى - عليه السلام - .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٠ طبعة دار الشعب .

والمعنى : لقد أتاك - أيها الرسول الكريم - خبر أخيك موسى ، وقت أن رأى ناراً وهو عائد ليلا من مدين إلى مصر « فقال لأهله » أي : لامرأته ومن معها . أمكثوا ، أي : أقيموا فى مكانكم ولا تبرحوه حتى أعـــود إليكم ...

وجملة « إنى آنست نارا » تعليل للأمر بالمكوث ، وآنست من الإيناس بمعنى الإبصار الواضح الجلى ، أى : إنى أبصرت إبصارا بينا لا شبهة فيه نارا على مقربة منى ، فامكثوا فى أماكنكم « لعلى آتيكم منها بقبس » .

والقبس : الشعلة التى تؤخذ من النار فى طرف عود أو نحوه . ووزنه فعل - بفتح العين بمعنى مفعوله . أى : لعلى آتيكم من هذه النار بشعلة مقتبسة منها ، ومأخوذة عنها .

وقوله « أو أجد على النار هدى » معطوف على ما قبله .

أى : أمكثوا فى مكانكم حتى أذهب إلى النار التى شاهدتها ، لعلى آتيكم منها بشعلة ، أو أجد عندها هاديا يهدينى إلى الطريق الذى أسلكه لكى أصل إلى المكان الذى أريده .

فقوله « هدى » مصدر بمعنى اسم الفاعل أى : هاديا .

وقد دلت آية أخرى على أن موسى قد ذهب إلى النار ليأتى منها بما يدفىء أهله من البرد .

وهذه الآية هى قوله - تعالى - « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا . قال لأهله أمكثوا إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : « فلما

---

(١) سورة القصص الآية ٢٩ .

أتاهـا نودى يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . . . » .

أى : فلما أتى موسى ـ عليه السلام ـ إلى النار ، واقترب منها . . . . « نودى » من قبل الله ـ عز وجل ـ « يا موسى إنى أنا ربك » الذى خلقك فسواك فعدلك . . . « فاخلع نعليك » تعظيما لأمرنا ، وتأدبا فى حضرتنا .

وقوله « إنك بالوادى المقدس طوى » تعليل للأمر بخلع النعل ، أى : أزل نعليك من رجليك لأنك الآن موجود بالوادى « المقدس » أى : المطهر المبارك ، المسمى طوى : فهو عطف بيان من الوادى .

« وأنا اخترتك » أى : اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى « فاستمع لما يوحى » إليك منى ، ونفذ ما آمرك به .

«إننى أنا الله لا إله إلا أنا» مستحق للعبادة والطاعة والخضوع «فاعبدنى» عبادة خالصة لوجهى .

«وأقم الصلاة» التى هى من أشرف العبادات، وأفضل الطاعات «لذكرى» أى : وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص ، ليشتد تذكرك لى . واتصالك بى ، وذلك لأن الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التى فيها الثنـاء على ذاتى وصفاتى .

أو المعنى : وأقم الصلاة لذاتى خاصة ، بحيث تكون خالصة لوجهى ، ولا رياء فيها لأحد .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : «لذكرى» الظاهر أنه متعلق بأقم ، أى : أقم الصلاة لذكرى فيها لاشتمالها على الأذكار . . . وقيل : المراد «أقم الصلاة لذكرى» خاصة لا ترائى بها ولا تشوبها بذكر غيرى . . . أو لكى أذكرك بالثناء وأثيبك بها . أو لذكرى إياك فى الكتب السماوية وأمرى بها . أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة ، فاللام وقتية بمعنى عند مثلها فى قوله ـ تعالى ـ « ياليتنى قدمت لحياتى » .

ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها . والمراد : أقم الصلاة عند تذكرها . . .

ففي الحديث الصحيح : «من نام عن صلاة أو نسيها ، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك . . . »[1] .

وخص - سبحانه - الصلاة بالذكر مع أنها داخلة في العبادة المأمور بها في قوله «فاعبدني» على سبيل التشريف والتكريم ، إذ الصلاة أكمل وسيلة توصل الإنسان إلى مداومة ذكر الله - تعالى - وخشيته ، لاشتمالها على ألوان متعددة من صور العبادة والطاعة ، إذ فيها قراءة للقرآن الكريم ، وفيها الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وفيها تسبيح الله وتمجيده .

ثم بين - سبحانه - أن الساعة آتية لا ريب فيها فقال : «إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى» .

أى : إن الساعة التي هي وقت البعث والحساب والثواب والعقاب ، آتية أى : كائنة وحاصلة لا شك فيها .

وقوله «أكاد أخفيها» أى : أقرب أن أخفى وقتها ولا أظهره لا إجمالا ولا تفصيلا ، ولولا أن في إطلاع أصفيائى على بعض علاماتها فائدة ، لما تحدث عنها .

قالوا : «والحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت ، أن الله - تعالى - وعد بعدم قبول التوبة عند قربهما ، فلو عرف وقت الموت لاشتغل الإنسان بالمعصية إلى قرب ذلك الوقت ثم يتوب ، فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وهو لا يجوز»[2] .

قال الآلوسى ما ملخصه : «وقوله «أكاد أخفيها» أقرب أن أخفى الساعة

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٧١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٨٥ .

ولا أظهرها ، بأن أقول إنها آتية ... أو أريد إخفاء وقتها المعين وعدم إظهاره ... فكاد بمعنى أراد ، وإلى هذا ذهب الأخفش وغيره ... وروى عن ابن عباس أن المعنى : أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف أظهركم عليها ... وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا أراد المبالغة فى كتمان الشىء قال : كدت أخفيه عن نفسى.

وقال أبو على : المعنى أكاد أظهرها بأن اوقعها ، وهذا بناء على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها ... »[١] .

ويبدو لنا أن الإخفاء هنا على حقيقة ، وأن المقصود من الآية الكريمة إخفاء وقت مجىء الساعة عن الناس ، حتى يكونوا على استعداد لمجيئها عن طريق العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة .

فحكمة الله - تعالى - اقتضت إخفاء وقت الساعة ، وعدم إطلاع أحد عليها إلا بالمقدار الذى يأذن الله - تعالى - به لرسله .

قال الإمام ابن جرير ماملخصه : «والذى هو أولى بتأويل الآية من القول: قول من قال معناه : أكاد أخفيها من نفسى ... لأن المعروف من معنى الإخفاء فى كلام العرب : الستر . يقال : قد أخفيت الشىء إذا سترته ... وإنما اخترنا هذا القول على غيره لموافقته أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين ... »[٢] .

وقوله : «لتجزى كل نفس بما تسعى» متعلق بآتية ، وجملة «أكاد أخفيها» معترضة بينهما .

أى : إن الساعة آتية لا ريب فيها ، لكى تجزى كل نفس على حسب سعيها وعملها فى الدنيا .

---

(١) تفسير الآلوسى ج١٦ ص١٧٢ .
(٢) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١١٤ .

قال - تعالى - : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً »[1] .

وقال - سبحانه - : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ثم حذر - سبحانه - من عدم الاستعداد للساعة . ومن الشك فى إتيانها فقال : « فلا يصدنك عنها » أى : فلا يصرفنك عن الإيمان بها ، وعن العمل الصالح الذى ينفعك عند مجيئها « من لا يؤمن بها » من الكافرين والفاسقين « واتبع هواه » فى إنكارها وفى تكذيب ما يكون فيها من ثواب أو عقاب « فتردى » أى : فتهلك ، إن أنت أطعت هذا الذى لا يؤمن بها . يقال: ردى فلان - كرضى - إذا هلك وأراده غيره إذا أهلكه .

فالآية الكريمة تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة ، والمعرضين عن الاستعداد لها ، بعد أن أكد - سبحانه - فى آيات كثيرة أن الساعة آتية لاريب فيها .

قال - تعالى - : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور »[2] .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أثبتت وحدانية الله - تعالى - كما فى قوله « إننى أنا الله لا إله إلا أنا » كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما فى قوله - سبحانه - « فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » . كما أثبتت أن يوم القيامة لا شك فى إتيانه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - . كما قال - عز وجل - : « إن الساعة آتية ... » .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٩ .

(٢) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧ .

ثم بين - سبحانه - بعض التوجيهات والأوامر التي وجهها - عز وجل - إلى نبيه موسى - عليه السلام - كما حكى ما التمسه موسى من خالقه - تعالى - فقال :

« وما تلكَ بيمينكَ يا موسى (١٧) قالَ هي عصايَ أتوكأُ عليها، وأهُشُّ بها على غنمِي وليَ فيها مآربُ أُخرَى (١٨) قالَ أَلقِها ياموسى (١٩) فألقاهَا فإذا هي حيةٌ تسعَى (٢٠) قالَ خُذْها ولاتخفْ سنعيدُها سيرتَها الأولى (٢١) واضمُمْ يدكَ إلى جناحِكَ تخرُجْ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ آيةً أخرَى (٢٢) لنريكَ من آياتنا الكُبرى (٢٣) اذهبْ إلى فرعونَ إنّهُ طغى (٢٤) قالَ ربِّ اشرحْ لي صدري (٢٥) ويسِّرْ لي أَمْرِي (٢٦) واحلُلْ عقدةً منْ لسانِي (٢٧) يفقهوا قَوْلي (٢٨) واجعَلْ لي وزيراً من أهلي (٢٩) هارونَ أخي (٣٠) اشدُدْ بهِ أَزْرِي (٣١) وأشرِكْهُ في أمْرِي (٣٢) كي نسبِّحَك كثيراً (٣٣) ونذكُرَك كثيراً (٣٤) إنكَ كنتَ بِنَا بصيراً (٣٥) » .

والاستفهام في قوله - تعالى - « وما تلك بيمينك ياموسى » للتقرير، لأن الله - تعالى - عالم بما في يمين موسى، فالمقصود من هذا السؤال اعتراف موسى وإقراره بأن مافي يده إنما هي عصا، فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله - تعالى - عندما يرى العصا التي بيمينه قد انقلبت حية تسعى .

قال صاحب الكشاف : « إنما سأله - سبحانه - ليريه عظم ما يخترعه - عز وعلا - في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة - أي تحرك لسانها في فمها - ، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه، والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة. ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد - أي قطعة من حديد - ويقول لك : ماهي ؟ فتقول : زبرة حديد. ثم يريك بعد أيام لبوسا

مسردا فيقول لك : هى تلك الزبرة صيرتها إلى ماترى من عجيب الصنعة ، وأنيق السرد ... »[1] .

والآية الكريمة : شروع فى بيان ما كلف الله - تعالى - به عبده موسى - عليه السلام - من الأمور المتعلقة بالخلق ، إثر حكاية ما أمر - سبحانه - به موسى من إخلاص العبادة له ، والإيمان بالساعة ومافيها من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى : وأى شىء بيدك اليمنى ياموسى ؟ فأجاب موسى بقوله - كما حكى القرآن عنه : قال هى عصاى . أى : الشىء الذى بيمينى هو عصاى . ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به وكائنة بيده اليمنى .

ثم بين وظيفتها فقال : « أتوكأ عليها » أى : أعتمد لتساعدنى فى حال السير « وأهش بها على غنمى » أى : وأضرب بها الشجر اليابس ليسقط ، ورقه فترعاه أغنامى . يقال هش فلان الشجرة بالعصا - من باب رد - فهو يهشها هشا ، إذا ضربها بعصاه أو بما يشبهها ليتساقط ورقها .

« ولى فيها مآرب أخرى » والمآرب : جمع مأربة - بتثليث الراء - بمعنى حاجة تقول : لا أرب لى فى هذا الشىء ، أى : لا حاجة لى فيه .

أى : ولى فى هذه العصا حاجات أخرى ، ومنافع غير التى ذكرتها .

وقد كان يكفى موسى - عليه السلام - فى الجواب أن يقول : هى عصاى ، ولكنه أضاف إلى ذلك أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ... لأن المقام يستدعى البسط والإطالة فى الكلام ، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه ، والحبيب مع حبيبه .

وأجمل فى قوله : « ولى فيها مآرب أخرى » إما حياء من الله - تعالى - لطول الكلام فى الجواب ، وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب المجملة ، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا فى الخطاب .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧ .

قال القرطبي : « وفى هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ، لأنه لما قال : « وما تلك بيمينك يا موسى » ذكر معانى أربعة وهى : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ، والتوكؤ ، والهش ، والمآرب المطلقة. فذكر موسى من منافع عصاه معظمها .

وفى الحديث : سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحـــل ميتته » ، وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ولك أجر »(١) .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله « ولى فيها مآرب أخرى » : « وقد تكلف بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت ، فقيل : كانت تضىء له بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظلله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة .

والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانا ، ولما فر منها هاربا ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ... »(٢) .

وقوله - سبحانه - : « قال ألقها ياموسى » جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - لموسى بعد ذلك ؟

فكان الجواب : قال - سبحانه - لموسى : اطرح ياموسى هذه العصا التى بيمينك لترى ما يكون بعد ذلك .

فامتثل موسى أمر ربه ، فألقاها على الأرض ، ونظر إليها فإذا هى قد تحولت بقدرة الله - تعالى - إلى حيـــة - أى ثعبان عظيم - « تسعى » ، أى : تمشى على الأرض بسرعة وخفة حركة ووصفها - سبحانه - هنـا بأنها

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص١٨٦ وقد تعرض لمنافع العصا فليرجع إليها من شاء.
(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٣ .

حية تسعى ، ووصفها فى سورة الشعراء بأنها « ثعبان مبين »[١] ووصفها فى سورة النمل بأنها « تهتز كأنها جان »[٢] .

ولا تنافى بين هذه الأوصاف ، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والثعبان : هو العظيم منها ، والجان : هو الحية الصغيرة الجسم ، السريعة الحركة .

وقد صرحت بعض الآيات أن موسى ـ عليه السلام ـ عندما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك ، ولى مدبرا ولم يعقب . قال ـ تعالى ـ : « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب . . . » .

ولكن الله ـ تعالى ـ ثبت فؤاده ، وطمأن نفسه وقال له : « خذها ولا تخف » أى : هذه الحية التى تحولت عصاك إليها خذها ولا تخف منها ، كما هو الشأن فى الطبائع البشرية ، فإنا « سنعيدها سيرتها الأولى » أى : سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التى كانت عليها قبل أن تصير حية تسعى ، وهى أن نعيدها بقدرتنا التى لا يعجزها شىء إلى عصا كما كانت من قبل .

فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف ، أى : خذها ولا تخف منها ، فإن هذه الحية سنرجعها عصا كما كانت من قبل ،

وقوله ـ تعالى ـ « سيرتها » فعلة من السير ، وهى الحالة والهيئة التى يكون عليها الإنسان ، وهو منصوب بنزع الخافض . أى : سنعيدها إلى هيئتها وحالتها الأولى .

قالوا : ومن الحكم التى من أجلها حول الله ـ تعالى ـ العصا إلى حية تسعى : توطين قلب موسى ـ عليه السلام ـ على ذلك ، حتى لا يضطرب إذا ما تحولت إلى ثعبان عظيم عندما يلقيها أمام فرعون وقومه .

(١) الآية ٣٢ (٢) الآية ١٠

فقد جرت عادة الإنسان أن يقل اضطرابه من الشيء العجيب الغريب بعد رؤيته له لأول مرة .

ثم وجه - سبحانه - أمراً آخر إلى عبده موسى فقال : واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى » .

والضم : الجمع . يقال ضم فلان أصابعه إذا جمعها . والجناح : يطلق على العضد وعلى الجنب ، وعلى الإبط . . . وأصله جناح الطائر . وسمى بذلك لأنه يجنحه ، أي : يميله عند الطيران ، ثم توسع فيه فأطلق على العضد وغيره .

والمراد باليد هنا : كف يده اليمنى .

والسوء : الرديء والقبيح من كل شيء ، وكنى به هنا عن البرص لشدة قبحه.

والمعنى ، واضمم - ياموسى - يدك اليمنى إلى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط . ثم أخرجها فإنها تخرج « بيضاء من غير سوء » أي: تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض ، دون أن يلحق بها أي سوء من برص أو مرض أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله - تعالى - وإرادته .

قال الحسن البصري : أخرجها - والله - كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقى ربه - تعالى - .

وقوله : « تخرج بيضاء .... » جواب الأمر وهو قوله « واضمم يدك » .

وقوله « من غير سوء » احتراس لدفع توهم أن يكون بياضها بسبب مرض أو أذى ، وهو متعلق بتخرج .

وقوله «آية أخرى » أي : معجزة أخرى غير معجزة العصا التي سبق أن منحناها لك .

كما قال - تعالى - : « واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين »(١) .

---

(١) سورة القصص الآية ٣٢ .

وقوله : « لنريك من آياتنا الكبرى » تعليل لمحذوف : أى : فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة العصا ومعجزة اليد ، لنريك بهاتين المعجزتين بعض معجزاتنا الكبرى ، الدالة على عظيم قدرتنا ، وانفرادنا بالربوبية والألوهية .

ثم صرح - سبحانه - بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمتين فقال : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » أى : اذهب ياموسى ومعك هاتان المعجزتان ، فادعه إلى عبادتي وحدي ، ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، وانهه عن التجبر والظلم ، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل ، وزعم للناس أنه ربهم الأعلى .

وهنا لتمس موسى - عليه السلام - العون من خالقه ، لكى يتمنى له أداء ما كلفه به فقال : « رب اشرح لى صدرى » أى : أسألك يا إلهى أن توسع صدرى بنور الإيمان والنبوة ، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح .

« ويسر لى أمرى » أى : وسهل لى ما أمرتنى به ، فإنك إن لم تحطنى بهذا التيسير ، فلا طاقة لى بحمل أعباء هذه الرسالة .

قال صاحب الكشاف : « لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى - لعنه الله - عرف أنه كلف أمرا عظيما ، وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جاش رابط ، وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ، ويفسح قلبه ، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد ، التى يذهب معها صبر الصابر ... وأن يسهل عليه فى الجملة أمره الذى هو خلافة الله فى أرضه ، وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون ، ومقاساة جلائل الخطوب ... »[1] .

وقوله « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه - تعالى - أى : وأسألك يارب أن تحل عقدة من لسانى حتى يفهم الناس قولى لهم ، وحديثى معهم ، فهما يتأتى منه المقصود . فمن للتبعيض ، أى : واحلل عقدة كائنة من عقده

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٠

وقد روى أنه كانت بلسانه حبسة ، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، ويؤيده قوله - تعالى - فى آية أخرى : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون »(١) .

قال ابن كثير : « وذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه - فرعون - التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه . . . وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل حيث يزول العى ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بقدر الحاجة ، ولهذا بقيت بقية .

قال الحسن البصرى : سأل موسى ربه أن يحل عقدة واحدة من لسانه ، ولو سأل أكثر من ذلك لأعطى(٢) .

وقوله - سبحانه - « واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى » دعاء آخر تضرع به إلى ربه فى أمر خارجى عنه ، بعد أن دعاه فى أمر يتعلق بصدره ولسانه . . .

وقوله : « وزيرا » من الموازرة وهى المعاونة . يقال : وازرت فلانا موازرة ، إذا أعنته على أمره . أو من الوزر - بفتح الواو والزاى - وهو الملجأ الذى يعتصم به الإنسان لينجو من الهلاك .

أى : وأسألك - يا إلهى - أن تجعل لى « وزيرا » أى : معينا وظهيرا من أهلى فى إبلاغ رسالتك ، وهذا الوزير والمعين هو أخى هارون ، الذى أسألك أن تقوى به ظهرى ، وأن تجعله شريكا لى فى تبليغ رسالتك ، حتى نؤديها على الوجه الأكمل وكان موسى - عليه السلام - قد علم من نفسه حدة الطبع ، وسرعة الانفعال ، فالتجأ إلى ربه لكى يعينه بأخيه هارون ، ليقويه ويتشاور معه فى الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه ، وهو تبليغ رسالة الله إلى فرعون الذى طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

(١) سورة القصص الآية ٣٤

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٦

قال ابن عباس : نبيء هارون ساعتئذ حين نبيء موسى .

وقوله : « كى نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيراً » تعليل للدعوات الصالحات التى تضرع بها موسى إلى ربه - تعالى - .

أى : أجب - يا إلهى - دعائى بأن تشرح صدرى . . . وتشد بأخى هارون وزرى، كى نسبحك تسبيحا كثيراً، ونذكرك ذكراً كثيراً، إنك - سبحانك - كنت ومازلت بنا بصيراً . لايخفى عليك شىء من أمرنا أو من أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك .

بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه ، وأطال الابتهال فى بسط حاجته ، وكشف ضعفه . . . فماذا كانت النتيجة ؟

لقد كانت النتيجة أن أجاب الله له دعاءه ، وحقق له مطالبه ، وذكره ببعض مننه عليه فقال - تعالى - :

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى (٣٩) إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنْ ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) » .

وقوله - سبحانه - : « قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » حكاية لما رد الله - تعالى - به على نبيه موسى - عليه السلام - بعد أن تضرع إليه بتلك الدعوات النافعات .

والسؤال هنا بمعنى المسئول ، كالأكل بمعنى المأكول .

قال الآلوسي: «والإيتاء : عبارة عن تعلق إرادته - تعالى - بوقوع تلك المطالب وحصولها له - عليه السلام - ألبتة ، وتقديره - تعالى - إياها حتما ، فكلها حاصلة له - عليه السلام - ، وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرتقبا بعد ، كتيسير الأمر ، وشد الأزر .....»[1] .

أي : قال الله - تعالى - لموسى بعد أن ابتهل إليه - سبحانه - بما ابتهل : لقد أجبنا دعاءك يا موسى ، وأعطيناك ما سألتنا إياه، فطب نفسا وقر عينا.

وقوله - تعالى - « ولقد مننا عليك مرة أخرى » تذكير منه - سبحانه - لموسى ، بجانب من النعم التي أنعم بها عليه ، حتى يزداد ثباتا وثقة بوعد الله - تعالى - ولذا صدرت الجملة بالقسم .

أي : وبعزتي وجلالي لقد مننا عليك . وأحسنا إليك « مرة أخرى » قبل ذلك ، ومنحناك من رعايتنا قبل أن تلتمس منا أن نشرح لك صدرك ، وأن نيسر لك أمرك ...

ثم فصل - سبحانه - هذه المنن التي أمتن بها على عبده موسى، فذكر ثمانية منها : أما أول هذه المنن فتتمثل في قوله-تعالى-«إذأوحينا إلى أمك مايوحى».

و « إذ » ظرف لقوله « مننا » والإيحاء : الإعلام في خفاء . وإيحاء الله - تعالى - إلى أم موسى كان عن طريق الإلهام أو المنام أو غيرهما .

قال صاحب الكشاف : «الوحي إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبي في وقتها ، كقوله - تعالى - : « وإذ أوحيت إلى الحواريين » أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة وكما بعث إلى مريم. أو يريها ذلك في المنام فتتنبه عليه أو يلهمها كقوله - تعالى - : « وأوحى ربك إلى النحل » » .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٦ ص ١٨٦ .

أى : أوحينا إليها أمرا لاسبيل إلى التوصل إليه ، ولا إلى العلم به ، إلا بالوحى..[١] .

والمعنى : ولقد مننا عليك ياموسى مرة أخرى . وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن ، يتعلق بنجاتك من بطش فرعون .

فالتعبير بالموصول فى قوله مايوحى للتعظيم والتهويل ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

ثم وضح ـ سبحانه ـ ما أوحاه إلى أم موسى فقال : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى وعدو له . . . » .

و « أن » فى قوله « أن اقذفيه » مفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه .

والمراد بالقذف هنا : الوضع ، والمراد به فى قوله «فاقذفيه فى اليم» الإلقاء فى البحر وهو نيل مصر .

والتابوت : الصندوق الذى يوضع فيه الشىء .

والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك يا موسى أن أوحينا إلى أمك عندما خافت عليك القتل : أن ضعى إبنك فى التابوت ، ثم بعد ذلك اقذفى بالتابوت فى البحر ، و بأمرنا وقدرتنا يلقى اليم بالتابوت على شاطىء البحر وساحله ، وفى هذه الحالة يأخذه عدو لى وعدو له ، وهو فرعون الذى طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

والضمائر كلها تعود إلى موسى ـ عليه السلام ـ وقيل إن الضمير فى قوله « فاقذفيه فى اليم » .

وفى قوله « فليلقه » يعود إلى التابوت ، والأول أرجح ، لأن تفريق الضمائر هنا لاداعى له ، بل الذى يقتضيه بلاغة القرآن الكريم . عودة الضمائر إلى موسى ـ عليه السلام ـ .

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٢ .

قال بعض العلماء : وصيغة الأمر فى قوله «فليلقه اليم بالساحل» فيها وجهان معروفان عند العلماء :

أحدهما : أن صيغة الأمر معناها الخبر. قال أبو حيان فى البحر : «وقوله «فليلقه» أمر معناه الخبر ، وجاء بصيغة الأمر مبالغة ، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها .

الثانى : أن صيغة الأمر فى قوله «فليلقه» أريد بها الأمر الكونى القدرى كقوله : «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» فالبحر لابد أن يلقيه بالساحل ، لأن الله - تعالى - أمره بذلك كونا وقدرا . . »(١) .

وقوله «يأخذه» مجزوم فى جواب الطلب وهو قوله «فليلقه . . .» إلا أنه على الوجه الأول يكون الطلب باعتبار لفظه وصيغته .

وقوله - سبحانه - «وألقيت عليك محبة منى» بيان للمنة الثانية .

قال الآلوسى : «وكلمة «من» متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحذوف مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية . أى : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى ؟ لا من غيرى - قد زرعتها فى القلوب ، فكل من رآك أحبك . . .»(٢) .

ولقد كان من آثار هذه المحبة : عطف امرأة فرعون عليه ، وطلبها منه عدم قتله ، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا .

وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى فى صغره معززا مكرما فى بيت فرعون ، مع أنه فى المستقبل سيكون عدوا له .

وهكذا رعاية الله - تعالى - وحبيه لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمنا مطمئنا .

---

(١) أضواء البيان جـ ٥ ص ٤٠٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٨٩ .

قال ابن عباس : أحب الله ـ تعالى ـ موسى ، وحببه إلى خلقه .

وقوله ـ تعالى ـ : « ولتصنع على عينى بيان للمنة الثالثة .

أى : أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك وألقيت عليك محبة منى ، ليحبك الناس ، ولتصنع على عينى ، أى : ولتربى وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتى وعنايتى وعينى ، كما يراعى الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره .

وهذا ماحدث لموسى فعلا ، فقد عاش فى طفولته تحت عين فرعون . وهو عدو لله ـ تعالى ـ ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى ، لأن عين الله ـ تعالى ـ كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته .

فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى ـ عليه السلام ـ ومن الرعاية له ، ما يعجز القلم عن وصفه .

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله فى شأنه « ولتصنع على عينى » .

قال صاحب الكشاف: «أى : ولتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك كما يراعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع : اصنع هذا على عينى إنى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتى .

وقوله : « ولتصنع » معطوف على علة مضمرة مثل : ليتعطف عليك ... أو حذف معلله أى : « ولتصنع على عينى فعلت ذلك »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ المنة الرابعة على موسى فقال : « إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ... » .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٣ .

وكان ذلك بعد أن التقط آل فرعون موسى من فوق الشاطىء ، وبعد أن امتنع عن الرضاعة من أى امرأة سوى أمه .

أى : وكان من مظاهر إلقاء محبتى عليك ، ورعايتى لك ، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خبرك ، سارت فى طرقات مصر فأبصرتك فى بيت فرعون وأنت ممتنع عن الرضاعة من أى امرأة ، فقالت أختك لفرعون وامرأته « هل أدلكم على من يكفله » .

أى : ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ، وتحفظه وترعاه .

والفاء فى قوله « فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن » هى الفصيحة أى : التى تفصح عن كلام مقدر .

والمعنى : بعد أن قالت أختك لفرعون وامرأته : هل أدلكم على من يكفله ، أجابوها بقولهم : دلينا عليها ، فجاءت بأمك فرجعنا إليك كى تسر برجوعك ، ويمتلىء قلبها فرحا بلقائها بعد أن ألقتك فى اليم ، ولا تحزن بسبب فراقك عنها .

ثم حكى - سبحانه - المنة الخامسة فقال : « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم » وكان ذلك عند ما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه .

أى : وقتلت نفسا هى نفس القبطى ، عند ما استعان بك عليه الإسرائيلى فنجيناك من الغم الذى نزل بك بسبب هذا القتل .

قال الآلوسى : « وقد حصل له هذا الغم من وجهين : خوف عقاب الله - تعالى - حيث لم يقع القتل بأمره - سبحانه - وخوف القصاص ، وقد نجاه الله من ذلك بالمغفرة حين قال : « رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له » وبالمهاجرة إلى مدين . . .

والغم فى الأصل : ستر الشىء ، ومنه الغمام لستره ضوء الشمس . ويقال :

لما يغم القلب بسبب خوف أو فوات مقصود . . . »[١] .

وقوله - عز وجل - : « وفتناك فتونا » بيان للمنة السادسة التى امتن الله - تعالى - بها على موسى - عليه السلام - .

والفتون : جمع فتن كالظنون جمع ظن . والفتن : الاختبار والابتلاء ، تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم جودته من رداءته .

والمعنى : واختبرناك وابتليناك - يا موسى - بألوان من الفتن والمحن .

ونظم - سبحانه - هذا الفتن والاختبار فى سلك المنن ، باعتبار أن الله - تعالى - ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها ، ونجاه من شرورها .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية حديثا طويلا سماه بحديث الفتون ، ذكر فيه قصة مولد موسى ، وإلقائه فى اليم ، وتربيته فى بيت فرعون ، وقتله للقبطى ، وهروبه إلى مدين ، وعودته منها إلى مصر . وتكليف الله - تعالى - له بالذهاب إلى فرعون ، ودعوته إلى عبادة الله وحده . . الخ[٢] .

وقوله - تعالى - : « فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى » أى : فلبثت عشر سنين فى قرية أهل مدين ، تعمل كأجير عند الرجل الصالح . ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذى ناديناك فيه « على قدر » أى على وفق الوقت الذى قدرناه لمجيئك ، وحددناه لتكليمك واستنبائك ، دون أن تتقدم أو تتأخر ، لأن كل شىء عندنا محدد ومقدر بوقت لا يتخلف عنه .

قال - تعالى - : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقال - سبحانه - : « وكل شىء عنده بمقدار » وقال - عز وجل - « وكان أمر الله قدرا مقدورا » .

ثم حكى - سبحانه - المنة الثامنة . فقال : « واصطنعتك لنفسى » أى :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٩٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٩ وما بعدها .

وجعلتك محل صنيعى وإحسانى ، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتى وتبليغها إلى فرعون وقومه ، وإلى قومك بنى إسرائيل .

فالآية الكريمة تكريم عظيم لموسى - عليه السلام - حيث اختاره الله - تعالى - واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل .

هذه ثمانى منن ساقها - تعالى - هنا مجملة ، وقد ساقها - سبحانه - فى سورة القصص بصورة أكثر تفصيلا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ... »(١) .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المنن التى امتن بها على نبيه موسى - عليه السلام - أتبع ذلك بذكر بعض التوجيهات التى أمره بفعلها ، حيث كلفه بتبليغ الدعوة إلى فرعون ، فقال - تعالى - :

« إذْهَبْ أنتَ وأخُوكَ بِآيَاتِى ولا تَنِيَا فى ذِكْرِى (٤٢) اذْهبَا إلى فرعونَ إنَّه طغَى (٤٣) فَقُولاَ لهُ قَوْلاً لَيِّناً لعَلَّهُ يتَذكَّرُ أوْ يخْشَى (٤٤) قالا ربَّنَا إنَّنا نخافُ أنْ يفرُطَ علَيْنَا أَوْ أنْ يَطْغَى (٤٥) قالَ لا تخافَا إنَّنِى معكُماَ أسْمَعُ وأرَى (٤٦) فأتِيَاه فقولاَ إنَّا رسُولاَ ربِّكَ فأرسِلْ معنَاَ بنِى إسْرائيلَ ولاَ تُعذِّبْهُم ، قد جِئْنَاكَ بآية مِنْ رَبِّكَ والسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَع الهُدَى (٤٧) إنَّا قدْ أُوحِيَ إلَيْنَا أنَّ العَذابَ عَلَى منْ كذَّبَ وتولَّى (٤٨) » .

(١) سورة القصص الآيات من ٧ - ٩ .

وقوله - سبحانه - « ولا تنيا » فعل مضارع مصدره الونى - بفتح الواو وسكون النون - بمعنى . الضعف والفتور والتراخى فى الأمر .

يقال : ونى فلان فى الأمر ينى ونيا - كوعد يعد وعدا - إذا ضعف وتراخى فى فعله .

وقوله : « أخوك » فاعل لفعل محذوف . أى : وليذهب معك أخوك .

والمراد بالآيات : المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - ، وعلى رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى حية تسعى ، ويده التى ضمها إلى جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء .

والمعنى : إذهب يا موسى أنت وأخوك إلى حيث آمركما متسلحين بآياتى ومعجزاتى ، ولا تضعفا أو تتراخيا فى ذكرى وتسبيحى وتقديسى بما يليق بذاتى وصفاتى من العبادات والقربات ، فإن ذكركما لى هو عدتكما وسلاحكما وسندكما فى كل أمر تقدمان عليه .

فالآية الكريمة تدعو موسى وهارون ، كما تدعو كل مسلم فى كل زمان ومكان إلى المداومة على ذكر الله - تعالى - فى كل موطن ، بقوة لا ضعف معها وبعزيمة صادقة لا فتور فيها ولا كلال .

وقد مدح - سبحانه - المداومين على تسبيحه وتحميده وتقديسه فى كل أحوالهم فقال : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم »[١].

قال صاحب الكشاف : « قوله « ولا تنيا فى ذكرى » الونى : الفتور والتقصير . . أى : لا تنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيث تقلبتما ، واتخذا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد منى ، معتقدين أن أمرا من الأمور لن يتمشى لأحد إلا بذكرى . ويجوز أن يريد بالذكر : تبليغ

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .

الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات . وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر ... »(١)

وقال ابن كثير : « والمراد بقوله « ولا تنيا في ذكري » : أنهما لا يفتران في ذكر الله ، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه ، وقوة لهما . وسلطانا كاسرا له ، كما جاء في الحديث « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه »(٢) .

ثم أرشدهما - سبحانه - إلى الوجهة التي يتوجهان إليها فقال : « إذهبا إلى فرعون إنه طغى » .

أي : إذهبا إلى فرعون لتبلغاه دعوتي ، ولتأمراه بعبادتي ، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد في الأرض ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى . وقال لهم - أيضا - ما علمت لكم من إله غيري .

قال الجمل : وقوله : « إذهبا إلى فرعون » جمعهما في صيغة أمر الحاضر - مع أن هارون لم يكن حاضرا محل المناجاة بل كان في ذلك الوقت بمصر - للتغليب فغلب الحاضر على غيره ، وكذا الحال في صيغة النهي . أي : قوله « ولا تنيا » روى أنه - تعالى - أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى - عليه السلام - وقيل : سمع بإقباله فتلقاه ... »(٣) .

وقوله - تعالى - : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » إرشاد منه - سبحانه - إلى الطريقة التي ينبغي لهما أن يسلكاها في مخاطبة فرعون -

أي اذهبا إليه ، وادعواه إلى ترك ما هو فيه من كفر وطغيان ، وخاطباه بالقول اللين ، وبالكلام الرقيق ، فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٨٧ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٩٣ .

بكسر حدة الغضب ، وأن يوقظ القلب للتذكر ، كأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

وهذا القول اللين الذى أمرهما الله ـ تعالى ـ به هنا قد جاء ما يفسره فى آيات أخرى ، وهى قوله ـ تعالى ـ : « اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ... » .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على ألطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها .

قال ابن كثير : « قوله . فقولا له قولا لينا ... ، هـذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهى أن فرعون كان فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الرقاشى عند قراءته لهذه الآية : يامن يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟

والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل ، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع ، كما قال ـ تعالى ـ « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ... »(1) .

والترجى فى قوله ـ تعالى ـ « لعله يتذكر أو يخشى » على بابه إلا أنه يعود إلى موسى وهارون .

أى : إذهبا إليه ، وألينا له القول ، وباشرا الأمر معه مباشرة من يرجو ويطمع فى نجاح سعيه ، وحسن نتيجة قوله .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « والترجى لهما . أى : إذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يثمر عمله فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد ـ أى ـ يستعد ويتأهب ـ بأقصى وسعه . وجدوى إرسالها إليه مع العلم أنه لن يؤمن ، إلزام الحجة ، وقطع المعذرة . كما قال

(1) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٨٨ .

ـ تعالى ـ : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »(١) .

ويرى بعضهم أن الترجى هنا للتعليل . أى : فقولا له قولا لينا لأجل أن يتذكر أو يخشى .

قال الآلوسى : وقال الفراء ، « لعل » هنا بمعنى كى التعليلية . . . وعن الواقدى : أن جميع ما فى القرآن من « لعل » فإنها للتعليل ، إلا قوله ـ تعالى ـ « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » فإنها للتشبيه ـ أى : كأنكم تخلدون . . »(٢).

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله موسى وهارون عند أمرهما ـ جل جلاله ـ بذلك فقال : « قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » .

أى : قال موسى وهارون بعد أن أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق : ياربنا إننا نخاف « أن يفرط علينا » أى يعاجلنا بالعقوبة قبل أن ننتهى من الحديث معه فى الأمر .

يقال : فرط فلان يفرط إذا عاجله بالعقوبة وآذاه بدون تمهل ، ومنه قولهم : فرس فارط ، أى سابق لغيره من الخيل .

« أو أن يطغى » أى يزداد طغيانه ، فيقول فى حقك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه ، ويقول فى حقنا مانحن براء منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا .

وقد جمع ـ سبحانه ـ بين القولين اللذين حكاهما عنهما ، لأن الطغيان أشمل من الإفراط ، إذ الجملة الأولى تدل على الإسراع بالأذى لأول وهلة ، أما الثانية فتشمل الإسراع بالأذى ، وتشمل غيره من ألوان الاعتداء سواء أكان فى الحال أم فى الاستقبال .

وهنا يجيبهما الخالق ـ جل وعلا ـ بما يثبت فؤادهما ، ويزيل خوفهما « قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى » .

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٦٥ (٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٩٥

أى : قال الله - تعالى - لهما لا تخافا من بطش فرعون ، إننى معكما بقوتى وقدرتى ورعايتى ، وإننى أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى فعلكما وفعله . لا يخفى على شىء من حالكما وحاله ، فاطمئنا أننى معكما بحفظى ونصرى وتأييدى ، وأن هذا الطاغية ناصيته بيدى ، ولا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى ...

ثم رسم لهما - سبحانه - طريق الدعوة فقال : « فأتياه فقولا إنا رسولا ربك .... » .

أى : فأتيا فرعون ، وأدخلا عليه داره أو مكان سلطانه ، وقولا له بلا خوف أو وجل « إنا رسولا ربك » الذى خلقك فسواك فعدلك .

وكان البدء بهذه الجملة ، لتوضيح أساس رسالتهما ، ولإحقاق الحق من أول الأمر ، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين . لدعوته إلى الدين الحق ، وإلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإلى التخلى من الكفر والطغيان . وأنهما لم يأتياه بدافع شخصى منهما ، وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين .

أما الجملة الثانية التى أمرهما الله - تعالى - أن يقولاها لفرعون ، فقد حكاها - سبحانه - بقوله : « فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » أى : فأطلق سراح بنى إسرائيل ، ودعهم يعيشون أحرارا فى دولتك ، ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم ، وقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم ...

قال - تعالى - : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »[١] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٩ .

قال الآلوسى : والمراد بالإرسال : إطلاقهم من الأسر ، وإخراجهم من تحت يده العادية ، لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام ، كما ينبىء عنه قوله - سبحانه - « ولا تعذبهم » أى : بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، «فإنهم كانوا تحت سيطرة القبط ، يستخدمونهم فى الأشغال الشاقة كالحفر والبناء ... »(١).

وقوله - تعالى - « قد جئناك بآية من ربك » جملة ثالثة تدل على صدقهما فى رسالتهما » .

والمراد بالآية هنا : جنسها ، فتشمل العصا واليد وغيرهما عن المعجزات التى أعطاها الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - .

أى : قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا ، وتؤيد مدعانا ، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله - تعالى - إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول فى الدين الحق .

فالجملة الكريمة تقرير لما تضمنه الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين ، وتعليل لوجوب إطلاق بنى إسرائيل ، وكف الأذى عنهم .

أما الجملة الرابعة التى أمرهما الله - تعالى - بأن يقولاها لفرعون فهى قوله - سبحانه - : « والسلام على من اتبع الهدى » .

أى : وقولا له - أيضاً - السلامة من العذاب فى الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...

فالسلام مصدر بمعنى السلامة ، وعلى بمعنى اللام . ويفهم من الآية الكريمة أن من لم يتبع الهدى ، لا سلامة له ، ولا أمان عليه .

وفى هذه الجملة من الترغيب فى الدخول فى الدين الحق ما فيها ، ولذا استعملها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كثير من كتبه ، ومن ذلك قوله - صلى الله عليه

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ١٩٨ .

وسلم - فى رسالته إلى هرقل ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . .

ثم حكى - سبحانه - الجملة الخامسة التى أمر موسى وهارون أن يخاطبا بها فرعون فقال : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .

أى : وقولا له « إنا قد أوحى إلينا » من عند ربنا وخالقنا « أن العذاب » فى الدنيا والآخرة « على من كذب » بآياته وحججه - سبحانه - « وتولى » عنها . وأعرض عن الاستجابة لها .

وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها، فهى قد بدأت بالأساس الذى تقوم عليه كل رسالة سماوية « إنا رسولا ربك » وثنت ببيان أهم ماأرسل موسى وهارون من أجله « فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » وثلثت بإقامة الأدلة على صدقهما « قد جئناك بآية من ربك » وربعت بالترغيب والاستمالة « والسلام على من اتبع الهدى »

ثم ختمت بالتحذير من المخالفة « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .

وبعد أن غرس - سبحانه - الطمأنينة فى قلب موسى وهارون وزودهما بأحكم الوسائل وأجمعها فى الدعوة إلى الحق . . أتبع ذلك بحكاية جانب من الحوار الذى دار بينهما وبين فرعون بعد أن التقوا جميعا وجها لوجه فقال - تعالى - :

« قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

أخرى (٥٥) ولقدْ أرَيناه آياتِنا كلَّها فكذَّب وأبَى (٥٦) قالَ أجئْتَنا لتُخرِجَنا من أرْضِنا بِسِحْرِكَ يا موسَى (٥٧) فَلَنأتِينَّكَ بسحرٍ مِثله فاجْعَلْ بيننا وبَيْنَكَ موعداً لا نُخلِفُه نحن ولا أنتَ مكاناً سُوًى (٥٨) قال مَوْعِدكُم يومُ الزِّينةِ وأن يُحشَرَ الناسُ ضُحًى (٥٩) فتولَّى فرعونُ فجمَعَ كيدَهُ ثم أتَى (٦٠) » .

فقوله ـ تعالى ـ : « قال فن ربكما ياموسى » حكاية لما قاله فرعون لموسى وهارون ، بعد أن ذهبا إليه ليبلغاه دعوة الحق كما أمرهما ربهما ـ سبحانه ـ .

ولم تذكر السورة الكريمة كيف وصلا إليه . . . لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التي لا تتوقف عليها العبر والعظات ، وإنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث .

والمعنى : قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا عليه . وأبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه . من ربكما ياموسى الذي أرسلكما إلى ؟

وكأنه ـ لطغيانه وفجوره ـ لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه . كما قالا له قبل ذلك « إنا رسولا ربك » .

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسى ـ عليه السلام ـ هو الأصل فى حمل رسالة الحق إليه ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه . وأنه لخبثه ومكره . تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى ـ عليهما السلام ـ .

قال صاحب الكشاف : « خاطب ـ فرعون ـ الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى ، لأنه الأصل فى النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته ـ أى فسقه ـ على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من فصاحة هارون ، والرتة فى لسان موسى ، ويدل عليه قوله « أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين »(١) .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٧ .

ولا شك أن ما حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله «من ربكما يا موسى» يدل على نهاية الغرور والفجور والجحود، وشبيه بذلك قوله - سبحانه - حكاية عنه: «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ..».

وقوله - تعالى -: «فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى».

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا يخرسه ويكبته فقال: «قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى».

وقوله «خلقه» مصدر بمعنى اسم المفعول، وهو المفعول الثاني لقوله «أعطى»، والمفعول الأول قوله: «كل شيء».

وللعلماء في تفسير هذه الآية الكريمة إتجاهات يؤيد بعضه بعضا، منها ما يراه بعضهم من أن معنى الآية الكريمة:

١ - قال موسى في رده على فرعون: يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي أعطى كل مخلوق من مخلوقاته، وكل شيء من الأشياء، الصورة التي تلائمه، والهيئة التي تتحقق معها منفعته ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها، وأمده بالوسائل والملكات التي تحقق هذه الوظيفة.

وثم في قوله «ثم هدى» للتراخي في الرتبة، إذ اهتداء المخلوق إلى وظيفته مرتبة تعلو كثيرا عن خلقه دون أن يفقه شيئا.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: «أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار والأذن الشكل الذي يوافق السمع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان، كل واحد منها مطابق لما علق به من منفعة غير ناب عنه.

«ثم هدى»، أي: عرفه كيف يرتفق بما أعطى، وكيف يتوصل إليه ولله

ر هذا الجواب ، وما أحصره وما أبينه ، لمن ألقى الذهن ، ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق »(١) .

٢ - ومنهم من يرى أن المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذى أعطى كل شىء نظير خلقه فى الصورة والهيئة ، كالذكور من بنى آدم ، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا ، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها فى صورتها وهيئتها من الإناث أزواجا . . . ثم هدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب ووسائل التناسل .

وقد صدر الإمام ابن جرير تفسيره للآية بهذا المعنى فقال ما ملخصه : « وقوله : « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه » يعنى نظير خلقه فى الصورة والهيئة . . . ثم هداهم للمأتى الذى منه النسل والنماء كيف يأتيه ، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب وغير ذلك »(٢) .

٣ - ويرى بعضهم أن : المعنى أعطى كل شىء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه .

٤ - ومنهم من يرى أن قوله « خلقه » هو المفعول الأول لأعطى ، وأن قوله « كل شىء » هو المفعول الثانى فيكون المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذى أعطى الخلائق كل شىء يحتاجون إليه . ثم هداهم إلى طريق استعماله والانتفاع به .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع لهذه المعانى جميعها ، لأنه - سبحانه - هو الذى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون إليه فى معاشهم ، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم كما أعطى كل نوع من أنواع خلقه الصورة التى تناسبه ، والشكل الذى يتناسب مع جنسه « صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٦ . ص ١٣١

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى فقال : « فما بال القرون الأولى » .

والبال فى الأصل : الفكر . تقول : خطر ببالى كذا ، أى : بفكرى وعقلى ، ثم أطلق على الحال التى يهتم بشأنها . وهذا الإطلاق هو المراد هنا .

أى : قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم : ياموسى فما حال القرون الأولى . كقوم نوح وعاد وثمود . . . الذين كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله - تعالى - الذى تدعونى لعبادته ؟

وسؤاله هذا يدل على خبثه ومكره ، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله السابق « من ربكما ياموسى » ، أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق بأمور لا صلة لها برسالة موسى إليه وهى دعوته لعبادة الله - تعالى - وحده ، وإطلاق سراح بنى إسرائيل من الأسر .

ولذا رد عليه موسى - عليه السلام - بما يخرس لسانه ، ويبطل كيده ، فقال - كما حكى القرآن عنه - « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » .

أى : علم حال هذه القرون الأولى محفوظ عند ربى وحده فى كتاب هو اللوح المحفوظ : وهو - سبحانه - لايخفى عليه شىء من حالهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقوله « لا يضل ربى ولا ينسى » مؤكدا لما قبله . أى : لايخطىء ربى فى علمه ، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه منزه عن ذلك . فالضلال هنا بمعنى الخطأ وقلة الإدراك .

وجمع - سبحانه - بين نفى الضلال والنسيان ، لإفادة تنزهه عن أن يغيب شىء من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شىء ، ولبيان أن علمه باق بقاء أبديا لا نسيان معه ، ولا زوال له .

ثم بين له آثار علم الله ـ تعالى ـ وقدرته فقال : « الذي جعل لكم الأرض مهدا .... » .

أي : هو ـ سبحانه ـ الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش ، ليتسنى لكم الانتفاع بخيراتها وقرأ الأكثرون من السبعة « مهادا » أي : فراشا . والمهاد في الأصل ما يمهد للصبي لينام عليه .

« وسلك لكم فيها سبلا » والسلك : الإدخال . أي : وجعـل لكم في داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان ، ومن بلدة إلى أخرى ، اقتضاء مصالحكم .

« وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » والأزواج : الأصناف .

أي : وأنزل ـ سبحانه ـ بقدرته من السماء ماء نافعا كثيرا . فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى ـ أي متفرقة ـ من النبات ، هذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم والروائح ، مما يدل على كمال قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا .

وفي قوله « فأخرجنا » النبات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم ، التنبيه على عظم شأن هذا الإخراج ، وأثره الكبير في حياة الناس .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع منن قد امتن الله بها على عبـاده ، وهي تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات المتنوع من الأرض .

وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة في جميع فجاج الأرض ، إلا أنها أظهر ماتكون وأوضح ماتكون في أرض مصر التي كان يعيش فيها فرعون ، حيث تبدو الأرض فيها منبسطة ممهدة على جانبي النيل الممتد امتـداداً كبيراً .

وكان الأجدر بفرعون - لو كان يعقل - أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن، ومسدى هذه النعم، وهو الله رب العالمين.

والأمر فى قوله - سبحانه - «كلوا وارعوا أنعامكم» للإباحة.

أى: هـذه الأرض وما اشتملت عليه من طرق ومن نبات شتى هى لمنفعتكم ومصلحتكم، فكلوا - أيها الناس - من هـذه الثمار المتنوعة التى انشقت عنها الأرض، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم فى المكان الصالح للرعى من هذه الأرض، واشكروا الله - تعالى - على هذه النعم لكى يزيدكم منها.

واسم الإشارة فى قوله «إن فى ذلك لآيات لأولى النهى» يعود إلى المذكور من تلك النعم السابقة.

و «النهى» جمع نهية - بضم النون وإسكان الهاء - وهى العقل. سمى بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق. تقول العرب: نهو الرجل - ككرم - إذا كملت نهيته. أى عقله.

والمعنى: إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من نعمة تمهيد الأرض، وجعل الطرق فيها. وإنزال المطر عليها، وإخراج النبات منها... إن فى كل ذلك لآيات وعظات وعبر، لأصحاب العقول السليمة، والأفكار القويمة.

ثم بين - سبحانه - أن هـذه الأرض منها خلق الإنسان، وإليها يعود، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة، فقال - تعالى -: «منها خلقناكم، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

والضمير فى «منها وفيها» يعود إلى الأرض المذكورة قبل ذلك فى قوله - تعالى -: «الذى جعل لكم الأرض مهدا...» والتارة: بمعنى المرة.

أى : من هذه الأرض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له ، وفرع عنه ، كما قال - تعالى - : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

وقوله : « وفيها نعيدكم » أى : وفى الأرض نعيدكم عند موتكم ، حيث تكون محل دفنكم واستقرار أجسادكم .

. وقوله : « ومنها نخرجكم تارة أخرى » أى : ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة ، للحساب والجزاء .

قال - تعالى - : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون »(١) .

وقال - سبحانه - : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون »(٢) .

قال ابن كثير : « وهذه الآية كقوله - تعالى - : « قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » (٣) .

وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال « ومنها خلقناكم » ثم أخذ أخرى وقال : « وفيها نعيدكم » ثم أخرى وقال : « ومنها نخرجكم تارة أخرى »(٤) .

وقوله - تعالى - : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » بيان للموقف

(١) سورة المعارج الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) سورة يس الآيتان ٥١ ، ٥٢ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٩٢ .

الجحودى الذى وقفه فرعون من الحجج والمعجزات التى طرحها أمامه موسى ـ عليه السلام ـ .

وأريناه : من الرؤية البصرية المتعدية إلى مفعول واحد . فلما دخلت عليها الهمزة تعدت إلى اثنين أولهما الهاء والثانى آياتنا .

والإضافة فى « آياتنا » قائمة مقام التعريف العهدى . أى : آياتنا المعهودة لموسى ، والتى على رأسها اليد والعصا . .

والمعنى : ولقد أرينا فرعون بعينيه آياتنا كلها الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق نبينا موسى ، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها ، وأبى أن يستجيب للحق . . .

كما قال ـ تعالى ـ : « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين »[1] .

وكما قال ـ سبحانه ـ : « فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون »[2] .

والآية الكريمة تؤكد جحود فرعون وطغيانه بجملة من المؤكدات ، وهى لام القسم ، وقد ، والرؤية البصرية ، ولفظ كل الدال على الشمول والإحاطة.

والفاء فى قوله « فكذب » للتعقيب ، أى : فكذب بدون تريث أو تمهل .

والمفعول محذوف . أى : فكذب الآيات أو فكذب موسى بدون تردد أو تأخير .

والتعبير بقوله « فكذب وأبى » لزيادة ذمه وتحقير شأنه . لأنه لم يكتف بالتكذيب بل أضاف إلى ذلك الامتناع عن قبول الآيات ، والجحود لها ، والتعالى على من جاء بها كما ينبىء عنه قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك . . قال أجئتنا

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٢

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٧ .

لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، أى : قال فرعون لموسى على سبيل التهديد والوعيد : ياموسى أجئتنا من المكان الذى هربت إليه ، ومعك هذه الآيات التى رأيناها ، لكى تخرجنا من أرضنا التى عشنا فيها وهى أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر وخفة يد .

وسمى اللعين ماجاء به موسى - عليه السلام - من معجزات سحراً، ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة

وقال : « لتخرجنا من أرضنا » ليحمل أتباعه على الوقوف فى وجه موسى - بإبراز أن موسى جاء ليحتل أرضهم ، ويحوز أموالهم ، ويجعل السلطان لغيرهم .

وقد تكرر هذا المعنى فى آيات كثيرة منه قوله - تعالى - : « قال الملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون »(١) .

وقوله - سبحانه - : « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين »(٢) .

ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديداً آخر فقال : « فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى » .

وقوله : « فلنأتينك . . » جواب لقسم محذوف . أى : والله لنأتينك بسحر مثله . .

قال الجمل: «وقوله : «موعدا» يجوز أن يكون زمانا ، ويرجحه قوله: « قال موعدكم يوم الزينة » .

والمعنى : عين لنا وقت اجتماع ؛ ولذلك أجابهم بقوله : « موعدكم يوم

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٣٤ ، ٣٥

(٢) سورة يونس الآية ٧٨

الزينة » . ويجوز أن يكون مكانا ، والمعنى : بين لنا مكانا معلوما نعرفه نحن وأنت فنأتيه ، وهذا يؤيده قوله : « مكانا سوى » .

ويجوز أن يكون مصدرا ، ويؤيده هذا قوله « لانخلفه نحن ولا أنت » لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه ... »(١) .

وقوله : « لانخلفه » من الاخلاف بمعنى عدم إنجاز الوعد .

وقوله : « سوى » قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة بضم السين ، وقرأه الباقون بالكسر ومعنى القراءتين واحد .

وأصله من الاستواء . يقال : مكان سوى وسواء . أي : عدل ووسط ، بحيث يستوى طرفاه بالنسبة للفريقين .

أى : قال فرعون لموسى مهددا ومتوعدا : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، والله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة، لانخلف نحن ولا أنت هذا الموعد ، وأن يكون مكان منازلتنا لك فى مكان يتوسط المدينة ، بحيث يستطيع سكانها أن يحضروا إليه .

والمتأمل فى الآية الكريمة يرى أن فرعون قد قال ماقال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه .

ويمهد لذلك : تصديره كلامه بالقسم « فلنأتينك » . وتركه لموسى اختيار الموعد الذى يناسبه « فاجعل بيننا وبينك موعدا » واشتراطه عدم الخلف فى الوعد « لانخلفه نحن ولا أنت » واقتراحه أن يكون مكان المبارزة فى وسط المدينة ، حتى يراها جميع الناس « مكانا سوى » .

ولقد حكى القرآن أن موسى ـ عليه السلام ـ قد قبل تحدى فرعون ، ورد عليه بقوله : « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٩٧

والمراد بيوم الزينة : يوم كانوا يتزينون فيه ، ويجتمعون فيه ، لأنه يوم عيد لهم .

قيل : إنه كان يوم عاشوراء ، وقيل : يوم النيروز ...

أى : قال موسى لفرعون : موعد المنازلة بينى وبينكم هو يوم زينتكم وعيدكم ، وفى هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا فى وقت الضحى عند ارتفاع الشمس ، لكى يشهدوا ما سيكون بينى وبين سحرتك يافرعون .

وبذلك نرى أن موسى - عليه السلام - قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم ، فقد طلب منه ان يكون موعد المبارزة يوم العيد ، كما طلب منه - أيضا - أن يجمع الناس فى وقت الضحى لكى يشاهدوا تلك المباراة .

قال صاحب الكشاف : « وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم ، ليكون علو كلمة الله ، وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفى المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب فى اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياعهم ، ويكثر الحديث بذلك فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر »(١) .

ثم حكى القرآن ما كان من فرعون بعد أن حدد موسى - عليه السلام - موعد المبارزة فقال : « فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى » .

أى : وبعد أن استمع فرعون إلى موسى ، انصرف من المجلس ، وولى مدبرا « فجمع كيده » .

أى : فجمع كبار سحرته من أطراف مملكته « ثم أتى » بهم فى الموعد المحدد ، ليتحدى موسى - عليه السلام - .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٧١

المحاورات التي دارت بين موسى وفرعون، وأرينا كيف واجه موسى طغيان فرعون وغروره، برباطة جأش، وقوة إرادة، ومضاء عزيمة . . .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عما دار بين موسى والسحرة من محاورات، انتهت بإيمانهم وإعترافهم بالحق الذي جاء به موسى من عند ربه، قال - تعالى - :

« قالَ لهُم مُوسَى وَيلَكُم لا تفترُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فيُسحِتَكُم بعَذابٍ وقد خابَ مَنِ افترَى (٦١) فتنازَعُوا أمرَهُم بينَهُم وأسرُّوا النَّجوَى (٦٢) قالُوا إنْ هذَانِ لساحِرانِ يُرِيدَانِ أنْ يُخرِجَاكُم من أرضِكُم بِسِحْرِهما ويَذْهَبا بطرِيقَتِكُم المثلَى (٦٣) فأجمِعُوا كيدَكُم ثم ائتُوا صفًّا وقدْ أفلَحَ اليومَ مَنِ استَعلَى (٦٤) قالُوا يا مُوسَى إمَّا أنْ تُلقِيَ وإمَّا أنْ نكونَ أولَ مَنْ ألقَى (٦٥) قالَ بَلْ أَلقُوا، فإذَا حبالُهُم وعِصيُّهم يُخَيَّلُ إلَيْهِ من سِحْرِهِم أنَّها تسْعَى (٦٦) فأوجسَ في نَفْسِهِ خيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلنَا لا تَخَفْ إنَّكَ أنتَ الأعلَى (٦٨) وألقِ ما في يمِينِكَ تَلقَفْ ما صَنَعُوا إنَّما صنَعُوا كَيْدَ ساحِرٍ ولا يُفلِحُ الساحِرُ حيثُ أتَى (٦٩) فأُلقِيَ السحَرَةُ سُجَّدًا قالُوا آمَنَّا بربِّ هارُونَ ومُوسَى (٧٠) » .

فقوله - تعالى - : « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب » . . . حكاية لما وجهه موسى - عليه السلام - من نصح وإنذار . قيل : كان عددهم اثنين وسبعين . وقيل أكثر من ذلك .

قال الجمل : قوله (فيسحتكم) قرأ الأخوان وحفص عن عاصم فيسحتكم - بضم الياء وكسر الحاء - . وقرأ الباقون بفتحهما . فقراءة الأخوين من أسحت الرباعى ، وهى لغة نجد وتميم . وقراءة الباقين من سحت الثلاثى - وبابه قطع - وهى لغة الحجازيين .

وأصل هذه المادة . الدلالة على الاستقصاء ، والنفاد . ومنه سحت الحالق الشعر ، أى : استقصاه فلم يترك منه شيئاً ، ويستعمل فى الإهلاك والإذهاب . ونصبه بإضمار أن فى جواب النهى »(1) .

أى : قال موسى - عليه السلام - للسحرة الذين التقى بهم وجها لوجه بعد أن حشدهم فرعون أمامه ، قال لهم : الويل والهلاك لكم ، لا تفتروا على الله - تعالى - كذباً ، بأن تقفوا فى وجهى ، وتزعموا أن معجزاتى هى نوع من السحر ، فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله - تعالى - وأبادكم بعذاب عظيم من عنده

وجملة « وقد خاب من افترى » معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها .

أى : وقد خاب وخسر كل من قال على الله - تعالى - قولا باطلا لا حقيقة له ، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا فى ركابه ، أو أن تطيعوا له أمراً .

ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها الطيب فى نفوس بعض السحرة ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى » والنجوى : المسارة فى الحديث .

أى : وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم ، وتهديده لهم بالاستئصال والهلاك إذا ما استمروا فى ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم ، « وأسروا النجوى » أى : وبالغوا فى إخفاء ما يتسارون به عن موسى وأخيه - عليهما السلام - .

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص ٩٨ .

فمنهم من قال - كما روى عن قتادة - : إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر .

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر .

ومنهم من أخذ فى حض زملائه المترددين على منازلة موسى-عليه السلام-، لأنه جاء هـو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان، ولسلب المنافع التى تأتى - أى للسحرة - عن طريق السحر ...

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذى استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة فى النهاية ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك: «قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ».

فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم فى تجميع صفوفهم ، وفى تشجيع بعضهم لبعض، حتى لا يستلب موسى - عليه السلام - منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم ...

أى : قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجى والإسرار ، ما استقر عليه رأيهم ، من أن موسى وهارون ساحران ويريدان » عن طريق سحرهما « أن يخرجا » السحرة من أرضهم مصر ، ليستوليا هما وأتباعهما عليها .

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى . أى بمذهبكم ودينكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها ، وبملككم الذى أنتم فيه ، وبعيشكم الذى تنعمون به .

فالمثلى : مؤنث أمثل بمعنى أشرف وأفضل . وإنما أنث باعتبار التعبير بالطريقة هنا . وهناك قراءات فى قوله - تعالى - : « إن هذان لساحران» ذكرها الإمام القرطبى .

فقال ما ملخصه : «قوله - تعالى - : «إن هذان لساحران» قرأ أبو عمرو: « إن هذين لساحران » ورويت - هذه القراءة - عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ....

وقرأ الزهري والخليل ابن أحمد وعاصم في رواية حفص عنه «إن هذان» بتخفيف «إن» «لساحران» .... وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها: ما هذان إلا ساحران.

وقرأ المدنيون والكوفيون: «إن هذان» بتشديد «إن» «لساحران» فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب.

فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة من الأئمة ...

والعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال: الأول أنها لغة بني الحارث بن كعب وزبيد وخثعم ... يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه بالألف .. وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ..»(١).

والفاء في قوله - تعالى - «فأجمعوا كيدكم ....» فصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما ... «فأجمعوا كيدكم»، أي: فأحكموا سحركم واعزموا عليه ولا تجعلوه متفرقا.

يقال: أجمع فلان رأيه وأزمعه، إذا عزم عليه وأحكمه واستعد لتنفيذه وقوله «ثم ائتوا صفا» أي: ثم ائتوا جميعا مصطفين، حتى يكون أمركم أكثر هيبة في النفوس، وأعظم وقعا على القلوب، وأدعى إلى الترابط والثبات وقوله «وقد أفلح اليوم من استعلى» تذييل مؤكد لما قبله.

أي: وقد أفلح وفاز بالمطلوب في يوم النزال من طلب العلو، وسعى من أجله، واستطاع أن يتغلب على خصمه، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا الجوائز العظمى، وإذا تغلب علينا خسرنا خسارة ليس هناك ما هو أشد منها.

وحانت ساعة المبارزة والمنازلة، فتقدم السحرة نحو موسى - عليه السلام - وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم -: «ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى».

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢١٦

والإلقاء فى الأصل : طرح الشيء ، ومفعول « تلق » محذوف للعلم به ، والمراد به العصا .

أى : قال السحرة لموسى على سبيل التخيير الذى يبدو فيه التحدى والتلويح بالقدرة : ياموسى إما أن تلق أنت عصاك قبلنا ، وإما تتركنا لنلقى حبالنا وعصينا قبلك .

قال الآلوسى : خيروه - عليه السلام - وقدموه على أنفسهم إظهارا للثقة بأمرهم . وقيل . مراعاة للأدب معه - عليه السلام - وأن مع ما فى حيزها منصوب بفعل مضمر . أى : إما تختار إلقاءك أو تختار كوننا أول من ألقى . أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .

أى : « الأمر إما إلقاؤك أو كوننا أول من ألقى ... »[١] .

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - ترك فرصة البدء لهم ، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة ، فقال - تعالى - : « قال بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » . والتخييل : هو إبداء أمر لا حقيقة له . ومنه الخيال ، وهو الطيف الطارق فى النوم .

أى : قال موسى - عليه السلام - للسحرة فى الرد على تخييرهم له : ابدءوا أنتم بإلقاء ما معكم من حبال وعصى .

والفاء فى قوله : « فإذا حبالهم وعصيهم ... » فصيحة وهى معطوفة على كلام محذوف ، وإذا هى الفجائية .

أى : قال لهم موسى بل ألقوا أنتم أولا . فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم فإذا حبالهم وعصيهم التى طرحوها . جعلت موسى - لشدة اهتزازها واضطرابها - يخيل إليه من شدة سحرهم ، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها قال ابن كثير : « وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص ٢٢٦ .

وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جما غفيرا ، وجمعا كبيرا ـ أى السحرة ـ ، فألقى كل منهم عصا وحبلا، حتى صار الوادى ملآن حيات ، يركب بعضها بعضا . . »[1] .

ويبدو أن فعل السحرة هذا ، قد أثر فى موسى ـ عليه السلام ـ بدليل قوله ـ تعالى ـ : « فأوجس فى نفسه خيفة موسى . . » .

والإيجاس : الإخفاء والإضمار . والخيفة : الخوف . أى : فأخفى موسى ـ عليه السلام ـ فى نفسه شيئا من الخوف ، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى على بطونها ، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عندما رأى هذا الأمر الهائل من السحر ، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر فى نفوس الناس فيصرفهم عما سيفعله .

وهنا ثبته الله ـ تعالى ـ وقواه ، وأوحى إليه ـ سبحانه ـ بقوله : « قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى » .

أى : قلنا له عندما أوجس فى نفسه خيفة من فعل السحرة : لا تخف ياموسى مما فعلوه ، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر . أنت الأعلى لأن معك الحق ومعهم الباطل .

وقد أكد الله ـ تعالى ـ هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها: إن المؤكدة، وثانيها : تكرير وثالثها : التعبير العلو المفيد الاستعلاء عليهم.

وقوله ـ سبحانه ـ: « وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا . . . » زيادة فى فى تشجيعه وتثبيته .

وتلقف من اللقف بمعنى الأخذ للشىء بسرعة وخفة . يقال : لقف فلان يلقفه لقفا ولقفانا ، إذا تناوله بسرعة وحذق باليد أو بالفم .

وفى هذه الكلمة ثلاث قراءات سبعية ، أحدها : « تلقف » بتاء مفتوحة

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٩٤ ـ طبعة دار الشعب ـ .

مخففة، بعدها لام مفتوحة، ثم قاف مشددة وفاء ساكنة، وأصل الفعل تتلقف، فحذفت إحداهما تخفيفا، وهو مجزوم فى جواب الأمر وهو «ألق».

وثانيها: «تلقف» كالقراءة السابقة مع ضم الفاء، على أن الفعل خبر لمبتدأ محذوف. أى: وألق ما فى يمينك فهى تلقف ماصنعوا.

وثالثها: «تلقف» بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف المخففة وجزم الفعل كالقراءة الأولى.

والمراد بما فى يمينه عصاه، كما جاء ذلك صريحا فى آيات أخرى منها قوله - تعالى -: «فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون».

وعبر عنها بقوله «ما فى يمينك» على سبيل التهويل من شأنها، أو لتذكيره بما شاهده منها بعد أن قال الله - تعالى - له قبل ذلك «وماتلك بيمينك ياموسى... قال ألقها ياموسى، فألقاها فإذا هى حية تسعى...».

والمعنى: وألق ياموسى ما فى يمينك تبتلع كل ماصنعه السحرة من تمويه وتزوير وتخييل، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيهم تسعى.

قال ابن كثير: «وذلك أنها صارت تنينا هائلا - أى حية عظيمة - ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا نهاراً... فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون»[1].

وقوله: «إنما صنعوا كيد ساحر» تعليل لقوله «تلقف ماصنعوا» و«ما» موصولة وهى اسم إن، و«كيد» خبرها، والعائد محذوف.

والتقدير: وألق ياموسى عصاك تلقف ماصنعوه، فإن الذى صنعوه إنما كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم وتمويهم...

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٦١.

« ولا يفلح الساحر » أي ولا يفوز هذا الجنس من الناس « حيث أتى » أي : حيث كان ، فحيث ظرف مكان أريد به التعميم .

أي : أن الساحر لا يفلح ولا يفوز أينما كان، وحيثما ، أقبل وأنى اتجه ، لأنه يصنع للناس التخييل والتمويه والتزوير والتزييف للحقائق .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم وحد ساحر ولم يجمع ؟ قلت لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد . فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد »(١) .

ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا ما رأوا بعد أن ألقى موسى ما فى يمينه ، قال - تعالى - : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى » .

قال الآلوسى : « والفاء فى قوله « فألقى ... » فصيحة معربة من جمل غنية عن التصريح .

أى : فزال الخوف ، وألقى موسى ما فى يمينه ، وصارت حية ، وتلقفت حبالهم وعصيهم ، وعلم السحرة أن ذلك معجزة ، فخروا سجدا لله على وجوههم قائلين آمنا برب موسى ... »(٢) .

والحق أن التعبير بقوله - تعالى - « فألقى السحرة سجدا .. » يدل على قوة البرهان الذى عاينوه ، حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التى عاينوها ، وأطلق - سبحانه - عليهم اسم السحرة فى حال سجودهم له - تعالى - وإيمانهم به ، نظرا إلى حالهم الماضية .

وهكذا النفوس النقية عندما يتبين لها الحق ، لا تلبث أن تفىء إليه ، وتستجيب لأهله قال الكرخى : خروا ساجدين لله لأنهم كانوا فى أعلى

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٣٠ .

طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر البتة(١)

وقال صاحب الكشاف : « ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود . ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين »(٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ماتوعد فرعون به السحرة ، وموقفهم من الوعيد فقال - تعالى - :

« قالَ آمنتُم لهُ قبلَ أنْ آذَنَ لكُم، إنهُ لكَبيرُكُم الذى علمكُم السحرَ. فلأقطعنَّ أيديَكُم وأرجلَكُم مِنْ خِلافٍ ولأصلبنَّكُم فى جُذُوعِ النخلِ ، ولتعلمُنَّ أيُّنَا أشدُّ عذاباً وأبقَى (٧١) قالُوا لَنْ نؤثِرَكَ على ما جاءَنَا من البيناتِ والذى فطرَنَا فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنما تقضِى هذه الحياةَ الدُّنيَا (٧٢) إنَّا آمنَّا بربِّنَا ليغفرَ لنا خطايانَا وما أكرهتنَا عليه من السحرِ واللهُ خيرٌ وأبقَى (٧٣) إنَّهُ مَنْ يأتِ ربَّه مجرمًا فإنَّ له جهنَّمَ لا يموتُ فيها ولا يحيي (٧٤) ومَنْ يأته مؤمنًا قد عملَ الصالحاتِ فأولئك لهم الدرجاتُ العلى (٧٥) جناتُ عدنٍ تجرى من تحتها الأنهارَ خالدينَ فيها ، وذلكَ جزاءُ مَنْ تزكَّى (٧٦) » .

أى : قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم وقد خروا لله - تعالى - ساجدين : « آمنتم له قبل أن آذن لكم » أى : هل آمنتم لموسى وصدقتموه فى دعوته وانقدتم له ، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك . فالاستفهام للتقريع والتهديد .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٠١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٧٥ .

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » أى : إن موسى الذى انقدتم له هو كبيركم وشيخكم الذى علمكم فنون السحر ، فأنتم تواطأ منه . وآمنتم به لأنكم من أتباعه .

وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى بهم ، وعن الإيمان بالحق الذى آمن به السحرة والظهور أمام قومه بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبد به وبهم الخوف والهلع . من هول ما رأوه .

ثم أضاف إلى قوله هذا تهديداً أشد فقال : « فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل » .

أى : فوالله لأقطعن أيديكم اليمنى - مثلا - مع أرجلكم اليسرى ، ولأصلبنكم على جذوع النخل . لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل فعلكم .

فالمراد من قوله « من خلاف » أى : من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن يقطع اليد اليمنى ومعها الرجل اليسرى ، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شىء كامل صحيح ، بخلاف قطعهما من جهتين مختلفتين فإنه إفساد للجانبين .

واختار أن يصلبهم فى جذوع النخل، لأن هذه الجذوع أخشن من غيرها والتصليب عليها أشق من التصليب على غيرها ، وأظهر للرائى لعلوها عن سواها .

فهو لطغيانه وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب ، لعقاب هؤلاء المؤمنين .

قال الجمل : « قوله « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » يحتمل أن يكون حقيقة . وفى التفسير أنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعاً وعطشاً .

ويحتمل أن يكون مجازاً وله وجهان : أحدهما : أنه وضع حرفاً مكان

آخر . والأصل على جذوع النخل. والثانى : أنه شبه تمكنهم بتمكن من حواه الجذع واشتمل عليه .

وقال الكرخى « فى » بمعنى على مجازا، من حيث إنه شبه تمكن المصلوب بالجذع ، بتمكن المظروف فى الظرف وهذا هو المشهور(١) .

وقوله : « ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » تهديد فوق تهديد ، ووعيد إثر وعيد .

أى : ووالله لتعلمن أيها السحرة أينا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى فى إنزال الهلاك بكم ، أنا أم موسى وربه .

وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم ، ومن كل عقاب غير عقابه إياهم .

وهذا التهديد الذى حكاه الله ـ تعالى ـ هنا، قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى منها قوله ـ تعالى ـ : « قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنه لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين »(٢) .

ثم حكى ـ سبحانه ـ أن السحرة بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث فقال : « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ، والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ... » .

أى : قال السحرة فى ردهم على تهديد فرعون لهم : لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك ؛ ولن نقدم سلامتنا من عذابك ... على ما ظهر لنا من المعجزات التى جاءنا بها موسى، والتى على رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى تبتلع حبالنا وعصينا .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص ١٠١ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ .

وجملة « والذى فطرنا » الواو فيها للعطف على «ما» فى قوله « ما جاءنا » .

أى : لن نختارك يا فرعون على الذى جاءنا من البينات على يد موسى ، ولا على الذى فطرنا أى : خلقنا وأوجدنا فى هذه الحياة .

ويصح أن تكون هذه الواو للقسم ، والموصول مقسم به ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما قبله، والمعنى : وحق الذى فطرنا لن نؤثرك يافرعون على ما جاءنا من البينات .

وقوله : « فاقض ما أنت قاض » تصريح منهم بأن تهديده لهم لا وزن له عندهم ، ورد منهم على قوله : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف » .

أى : لن نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق، فافعل ماأنت ما فعله ، ونفذ ما تريد تنفيذه فى جوارحنا ، فهى وحدها التى تملكها، أما قلوبنا فقد استقر الإيمان فيها : ولا تملك شيئا من صرفها عما آمنت به .

قال بعض العلماء : واعلم أن العلماء اختلفوا : هل فعل بهم فرعون ماتوعدهم به ، أو لم يفعله بهم ؟

فقال قوم : قتلهم وصلبهم ، وقوم أنكروا ذلك وأظهرهما عندى:أنه لم يقتلهم، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله - تعالى - لأن الله قال لموسى وهارون : « أنتما ومن اتبعكما الغالبون »(١) .

وقوله : إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا..» تعليل لعدم مبالاتهم بتهديده لهم .

أى : افعل يا فرعون ما أنت فاعله بأجسامنا ، فإن فعلك هذا إنما يتعلق بحياتنا فى هذه الحياة الدنيا . وهى سريعة الزوال ، وعذابها أهون من عذاب الآخرة .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص٤٧٤ للشيخ الشنقيطى .

« إنا آمنا بربنا » وخالقنا ومالك أمرنا « ليغفر لنا خطايانا » السالفة، التى اقترفناها بسبب الكفر والإشراك به - سبحانه -.

وليغفر لنا «ما أكرهتنا عليه من السحر» لكى نعارض به موسى - عليه السلام - معارضة من هو على الباطل لمن هو على الحق، وقد كنا لا نملك أن نعصيك.

وخصوا السحر بالذكر مع دخوله فى خطاياهم، للإشعار بشدة نفورهم منه، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان.

وقوله: «والله خير وأبقى» تذييل قصدوا به الرد على قول فرعون لهم: «ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى».

أى: والله - تعالى - خير ثوابا منك يا فرعون، وأبقى جزاء وعطاء، فإن ثوابه - سبحانه - لا نقص معه، وعطاءه أبقى من كل عطاء.

وقوله - عز وجل -: «إنه من يأت ربه مجرما...» يصح أن يكون كلاماً مستأنفاً ساقه الله - تعالى - لبيان سوء عاقبة المجرمين، وحسن عاقبة المؤمنين.

ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة فى ردهم على فرعون.

والمعنى: «إنه» أى الحال والشأن «من يأت ربه» يوم القيامة فى حال كونه «مجرما».

أى: مرتكباً لجريمة الكفر والشرك بالله - تعالى - «فإن له» أى: لهذا المجرم «جهنم» يعذب فيها عذابا شديدا من مظاهره أنه «لا يموت فيها» فيستريح «ولا يحيى» حياة فيها راحة.

كما قال - تعالى -: «والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، كذلك نجزى كل كفور».

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين فقال: «ومن يأته مؤمنا» به إيمانا حقاً، و «قد عمل» الأعمال «الصالحات» بجانب إيمانه «فأولئك» الموصوفون بتلك الصفات «لهم» بسبب إيمانهم وعملهم الصالح «الدرجات العلى» أى: المنازل الرفيعة، والمكانة السامية.

وقوله : « جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار » بدل من الدرجات العلى ، أى : لهم جنات باقية دائمة تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار « خالدين فيها » خلودا أبديا .

« وذلك » العطاء الجزيل الباقى « جزاء من تزكى » أى من تطهر وتجرد من دنس الكفر والمعاصى .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت لنا بأسلوبها البليغ المؤثر ، تلك المحاورات الطويلة التى دارت بين موسى وفرعون والسحرة . . . والتى انتهت بانتصار الحق وإندحار الباطل .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، وحذرهم من جحودها ، فقال - تعالى - :

« ولقدْ أوحيْنَا إلى موسى أنْ أسْرِ بعبادِى فاضْرِب لهم طريقاً فى البحرِ يبساً لا تخافُ دركاً ولا تخشَى (٧٧) فأتبعهم فرعونُ بجنودِه فغشيهم من اليمِّ ما غَشِيهم(٧٨) وأضلَّ فرعونُ قومهُ وما هدَى (٧٩) يا بنى إسرائيلَ قد أنجيناكُم من عدوكُم وواعدناكُم جانبَ الطورِ الأيمنَ ونزلنا عليكم المنَّ والسَّلْوَى (٨٠) كلُوا من طيباتِ مارزقناكُم ولا تطغوْا فيه فيحِلَّ عليكُم غضبى ، ومن يحلِلْ عليه غضبى فقد هوَى (٨١) وإنى لغفار لمن تابَ وآمن وعمِلَ صالحاً ثم اهتدَى(٨٢) » .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وقوله - سبحانه - : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى . . . . » حكاية إجمالية لما انتهى إليه فرعون وقومه ، وقد طوى - سبحانه - ذكر ماجرى عليهم بعد أن تغلب موسى على السحرة . . . وبعد أن مكث موسى يبلغهم معه . . . »(١) .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢١٥ .

وصدرت الآية الكريمة باللام الموطئة للقسم وقد، تأكيداً لهذا الإيحاء، وتقريراً له.

أى: والله لقد أوحينا إلى عبدنا موسى - عليه السلام - وقلنا له: سر بعبادى من بنى إسرائيل فى أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر فإذا ما وصلت إليه «فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا».

أى: فاجعل لهم طريقا فى البحر يابسا. فالضرب هنا بمعنى الجعل كما فى قولهم: ضرب له فى ماله سهما، إذا جعل له سهما.

والمراد بالطريق جنسه. فإن الطرق التى حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر، كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بنى إسرائيل.

وعبر - سبحانه - عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان العبودية لله - تعالى - للإشعار بعطفه - عز وجل - عليهم ورحمته بهم، وللتنبيه على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عبادا للخالق - سبحانه -، وجعلهم عبيدا له.

قال الجمل: «وقوله «يبسا» صفة لقوله «طريقا» وصف به لما يؤول إليه، لأنه لم يكن يبسا بعد، وإنما مرت عليه الصبا فجففته. وقيل: هو فى الأصل مصدر وصف به للمبالغة. أو على حذف مضاف، أو من يابس كخادم وصف به الواحد مبالغة»(١)

وقوله - سبحانه -: «لا تخاف دركا ولا تخشى» تذييل قصد به تثبيت فؤاد موسى - عليه السلام - وإدخال الطمأنينة على قلبه.

والدرك اسم مصدر بمعنى الإدراك. والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل «أضرب».

أى: أضرب لهم طريقا فى البحر يابسا، حالة كونك غير خائف من أن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص١٠٢.

يدركك فرعون وجنوده من الخلف؛ وغير وجل من أن يغرقكم البحر من أمامكم .

فالآية الكريمة قد إشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان فى قلب موسى ومن معه .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقومه من مصر فقال - تعالى - : «فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم» .

أي : وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبنى إسرائيل من مصر ، جمع جنوده وأسرع فى طلب موسى ومن معه ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أغرق الله - تعالى - فرعون وجنوده فى البحر . وأهلكهم عن آخرهم .

والتعبير بالاسم المبهم الذى هو الموصول فى قوله : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله ، أي : فعلاهم وغمرهم من ماء البحر مالا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - بحيث صاروا جميعا فى طيات أمواجه .

ونظيره قوله - تعالى - : « إذ يغشى السدرة مايغشى » وقوله : «فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

قال - صاحب الكشاف : «قوله - تعالى - «ماغشيهم» من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها بالمعانى الكثيرة . أي : غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - . وقرىء فغشاهم من اليم ما غشاهم . والتغشية : التغطية ...»(١) .

وقوله - سبحانه - « وأضل فرعون قومه وما هدى » بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله - تعالى - بالغرق .

أى : وأضل فرعون فى حياته قومه عن طريق الحق ، وما هداهم إليها وإنما هداهم إلى طريق الغى والباطل ، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٧٨ .

وما اشتملت عليه الآيتان من إجمال بالنسبة لتلك الأحداث ، قد جاء مفصلا فى آيات أخرى ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : «وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين » .

ثم ذكر - سبحانه - بنى إسرائيل بنعمه عليهم فقال : « يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم » فرعون وجنده ، بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم ، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب .

« وواعدناكم جانب الطور الأيمن » أى : وواعدنا نبيكم موسى فى هذا المكان لإعطائه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم ، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله - تعالى - :

«وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة» .

قال صاحب الكشاف : ذكرهم النعمة فى نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة فى الألواح . وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التى قام بها دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه ...»[1]

وقال القرطبى ما ملخصه : «وقوله : « جانب » نصب على المفعول الثانى لقوله واعدنا ..

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٧٩

و « الأيمن » نصب لأنه نعت للجانب ، إذ ليس للجبل يمين ولا شمال . . وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطور ثم حذف المضاف : أى : أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام. وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ، ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم ... »[1]

وقوله: «ونزلنا عليكم المن والسلوى» نعمة ثالثة من نعمه - سبحانه - عليهم.

والمن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

والسلوى : طائر لذيذ الطعم ، يشبه الطائر الذى يسمى السمانى ، كانوا يأخذونه ويتلذذون بأكله .

وقيل : هما كناية عما أنعم الله به عليهم . وهما شىء واحد ، سمى أحدهما « منا » لامتنان الله - تعالى - عليهم ، وسمى الثانى سلوى لتسليتهم به .

أى : ونزلنا عليكم بفضلنا ورحمتنا وأنتم فى التيه تلك المنافع والخيرات التى تأخذونها من غير كد أو تعب .

والأمر فى قوله - سبحانه - : « كلوا من طيبات مارزقناكم » للإباحة ، والجملة مقول لقول محذوف . أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات مارزقناكم من المن والسلوى ، ومن غيرهما من اللذائذ التى أحلها الله لكم .

وقوله - تعالى - : « ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل غضبى فقد هوى » تحذير لهم من تجاوز الحدود التى شرعها الله - تعالى - لهم ، إذ الطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء .

والضمير فى قوله « فيه » يعود إلى الموصول الذى هو « ما » فى قوله :

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢٣٠ .

« مارزقناكم » ، ويحل - بكسر الحاء - بمعنى يجب . يقال : حل أمر الله على فلان يحل حلالا بمعنى وجب .

وقرأ الكسائي «فيحل» بضم الحاء بمعنى ينزل . يقال : حل فلان بالمكان يحل - بالضم - حلولا ، إذا نزل به .

والمعنى : كلوا يابني إسرائيل من الطيبات التي رزقكم الله إياها واشكروه عليها ، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التي شرعناها لكم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم غضبي ، ونزل بكم عقابي ، ومن حق عليه غضبي ونزل به عقابي « فقد هوى » أي : هلك وصار إلى الهاوية أي : إلى النار .

وأصله السقوط من مكان مرتفع كجبل ونحوه . يقال : هوى فلان - بفتح الواو - يهوي - بكسرها - إذا سقط إلى أسفل ، ثم استعمل في الهلاك للزومه له .

ثم فتح - سبحانه - باب الأمل لعباده فقال : «وإني لغفار» أي : لكثير المغفرة « لمن تاب » من الشرك والمعاصي « وآمن » بكل مايجب الإيمان به « وعمل صالحا » أي : وعمل عملا مستقيما يرضي الله - تعالى - « ثم اهتدى » أي : ثم واظب على ذلك ، وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقي الله - تعالى - .

وثم في قوله « ثم اهتدى » للتراخي النسبي ، إذ أن هناك فرقا كبيرا بين من يتوب إلى الله - تعالى - ويقدم العمل الصالح ، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى الله - تعالى - وبين من لا يداوم على ذلك .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فتنة قوم موسى - عليه السلام - بعد أن ذهب لمناجاة ربه ، وكيف انقادوا لخديعة السامري لهم .. فقال - تعالى - :

« وما أعجلكَ عن قومِكَ يا موسى (٨٣) قالَ هُمْ أُولاَءِ على أثَرِى

وعجلتُ إليكَ ربِ لترضَى (٨٤) قالَ فإنَّا قد فتنا قومَك مِنْ بعدِكَ وأضلَّهم السامرى (٨٥) فرجعَ موسَى إلى قومِه غضبانَ أسفاً ، قالَ يا قومِ ألم يعدكُم ربكُم وعداً حسناً أفطالَ عليكُم العهدَ أمْ أردتُم أن يحِلَّ عليكُم غضبٌ مِنْ ربكُم فأخلفتُمْ موْعِدى (٨٦) قالوا ما أخلفْنا موعِدَك بِملكنا ولكنا حملنا أوزاراً مِنْ زينةِ القومِ فقذفْناها فكذلك ألقى السامِرِىُّ (٨٧) فأخرجَ لهمْ عجلاً جسداً لهُ خوارٌ فقالوا هذا إلهكُم وإلهُ موسى فنسى (٨٨) أفلاَ يروْنَ ألاَّ يرجعُ إليهمْ قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً (٨٩)» .

وهذه الآيات الكريمة تحكى قصة ملخصها : أن موسى عليه السلام بعد أن أهلك الله تعالى فرعون وجنوده ، سار ببنى إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلفا عليهم أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من رجالهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره - سبحانه - بما أحدثه قومه فى غيبته عنهم . وجملة « وما أعجلك عن قومك يا موسى » مقول لقول محذوف .

والمعنى : وقلنا لموسى : أى شىء جعلك تتعجل المجىء إلى هذا المكان ، قبل قومك وتخلفهم وراءك ، مع أنه ينبغى لرئيس القوم أن يتأخر عنهم فى حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم ونافذاً فيهم ؟

فأجاب موسى معتذراً لربه - تعالى - بقوله : « هم أولاء على أثرى » أى : على مقربة منى ، وسيلحقون بى بعد زمن قليل « وعجلت إليك ربى لترضى » أى : وقد حملنى على أن أحضر قبلهم ، شوقى إلى مكالمتك - يا إلهى - وطمعى فى زيادة رضاك عنى .

موسى - عليه السلام - قد علل تقدمه على قومه فى الحضور بعلتين : الأولى : أنهم كانوا على مقربة منه . والثانية : حرصه على رضى ربه عنه .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : «ما أعجلك» سؤال عن سبب العجلة، فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال . طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك .. وقوله : «هم أولاء على أثرى» كما ترى غير منطبق عليه ؟

قلت : قد تضمن ما واجهه رب العزة شيئين : أحدهما : إنكار العجلة فى نفسها ، والثانى : السؤال عن سببها الحامل عليها ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر ، وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير ، مثله لا يعتد به فى العادة ، ولا يحتفل به ، وليس بينى وبين من سبقته إلا مسافة قريبة ، يتقدم بمثلها الوفد رئيسهم ومقدمهم . ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال «وعجلت إليك رب لترضى»[1] .

وقوله - تعالى - : «قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى» إخبار منه - سبحانه - بما فعله قومه بعد مفارقته لهم .

وكلمة «فتنا» من الفتن ومعناه لغة : وضع الذهب فى النار ليتبين أهو خالص أم زائف .

والفتنة تطلق فى القرآن بإطلاقات متعددة منها : الدخول فى النار كما فى قوله - تعالى - : «يوم هم على النار يفتنون» . ومنها الحجة كما فى قوله - تعالى - : «ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين» . ومنها : الاختبار والامتحان ، كما فى قوله - تعالى «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» ومنها : الإضلال والإشراك كما فى قوله - تعالى - : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» وقوله - سبحانه - : «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ...» .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨١ .

ويبدو أن المراد بالفتنة هذا المعنى الأخير وهو الإضلال والشرك، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل فى غيبة موسى - عليه السلام - .

ويدل على هذا قوله - تعالى - « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار . . . » .

والسامرى : اسم للشخص الذى كان سببا فى ضلال بنى إسرائيل . قيل : كان من زعماء بنى إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة . وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر ، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة .

أى : قال الله - تعالى - لموسى : « فإنه قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم ، وكان السبب فى ضلالهم السامرى ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه .

وقوله - تعالى - « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا » بيان لما كان منه - عليه السلام - بعد أن علم بضلال قومه .

وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه ، وتلقى منه التوراة .

قال الآلوسى ما ملخصه : « فرجع موسى إلى قومه ، عند رجوعه المعهود أى : بعد ما استوفى الأربعين ذى القعدة وعشر ذى الحجة ، وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار المذكور ، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله « غضبان أسفا » لا باعتبار نفسه ، وإن كانت داخلة عليه حقيقة ، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار . . . »(١) .

والمعنى : فرجع موسى إلى قومه - بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة حالة كونه غضبان أسفا ، أى : غضبان شديد الغضب .

فالمراد بالأسف شدة الغضب ، وقيل المراد به الحزن والجزع .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٤٤ .

ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال: «قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ...»

أى: قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لا سبيل لكم إلى إنكاره، ومن هذا الوعد الحسن: إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم وإهلاك عدوكم أمام أعينكم... فلماذا أعرضتم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون فى خيره ورزقه ... ؟

ثم زاد فى تأنيبهم وفى الإنكار عليهم فقال: «أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى»

فالاستفهام فى قوله «أفطال ...» للنفى والإنكار و «أم» بمعنى بل

والمعنى: أفطال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه ؟ لا إنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، فأخلفتم موعدى الذى وعدتمونى إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله - تعالى -

ومعنى إرادتهم حلول الغضب عليهم، أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك وهو طاعتهم للسامرى فى عبادتهم للعجل.

قال ابن جرير: «كان إخلافهم موعده: عكوفهم على عبادة العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذى كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه فى أثر موسى: «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى»[1].

ثم حكى - سبحانه - معاذيرهم الواهية التى تدل على بلادة عقولهم، وانتكاس أفكارهم، وتفاهة شخصيتهم فقال - تعالى - : «قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ...»

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦، ص ١٤٦

وقوله (بملكنا) قرأه نافع عن عاصم - بفتح الميم وسكون اللام - أى: بأمرنا . وقرأه حمزة والكسائى (بملكنا) بكسر الميم وسكون اللام - أى : بطاقتنا : وقرأه الباقون - بضم الميم وسكون اللام - أى : بسلطاننا ، وهو مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف ، أى : بملكنا أمرنا .

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذى هو اقبح من ذنب ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا وإختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامرى ما سول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله - تعالى - وحده .

وقوله : « ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى » حكاية لبقية ما قالوه من أعذار قبيحة

ولفظ : « حملنا » قرأه ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم - بضم الحاء وتشديد الميم - على أنه فعل ونائب فاعل ، وقرأه الباقون - بفتح الحاء والميم - على أنه فعل وفاعل .

قال الآلوسى ما ملخصه : «والمراد بالقوم : القبط ، وبالأوزار : الأحمال وتسمى بها بالآثام ، وقصدوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلى فى عيد لهم قبيل الخروج من مصر ، وقيل: إستعاروه باسم العرس . وقيل : هى ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا وهم فرعون وجنوده فأخذ بنو إسرائيل ذلك على أنه غنيمة مع أنها لم تكن حلالا لهم(١)» .

أى : قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القبط التى أخذناها منهم بدون حق «فقذفناها» فى النار بتوجيه من السامرى ، « فكذلك » أى : فكما ألقينا ما معنا « ألقى السامرى » ما معه من تلك الزينة .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٤٦

قال ابن كثير: «وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط. فألقوها عنهم، فعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير ...»(١).

ثم بين - سبحانه - ماصنعه لهم السامري من تلك الحلي فقال: «فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي».

والخوار: الصوت المسموع.

أي: فكانت نتيجة ما قذفوه من الحلي في النار، أن أخرج السامري لهم من ذلك، عجلا جسدا له خوار، أي صوت كصوت البقر.

قيل: إن الله - تعالى - خلق الحياة في ذلك العجل على سبيل الإختبار والإمتحان لهم.

وقيل: لم تكن به حياة، ولكن السامري صنعه لهم بدقة، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتا كصوت خوار البقر.

فقال بنو إسرائيل عند ما رأوا العجل الذي صنعه لهم السامري: هـــذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه. لأن موسى نسي إلهه هنا، وذهب ليبحث عنه في مكان آخر. فالضمير في قوله «فنسي» يعود لموسى.

وقولهم هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل، بل زعموا أن نبيهم الداعي لهم إلى توحيد الله، قد كان يعبد العجل وأنه قد نسي مكانه فذهب يبحث عنه.

وقيل: أن الذي حدث منه النسيان هو السامري، وأن النسيان بمعنى الترك، أي: فترك السامري ما كان عليه من الإيمان الظاهري، ونبذ الدين الذي بعث الله - تعالى - به موسى، وحض الناس على عبادة العجل الذي صنعه لهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٠٤.

والقول الأول أرجح، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة. ولأنه هو المأثور عن السلف.

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال بالصواب عندنا أن يكون «فنسى» خبرا من الله - تعالى - عن السامرى. وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه، وأن ربه الذى ذهب يريده هو العجل الذى أخرجه السامرى، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، ولأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من السامرى عنه بذلك أشبه من غيره»(١).

وقوله - تعالى - «أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا» تقريع لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم.

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام. أى: أبلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل الذى اتخذوه إلها، لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه، ولا يرد عليهم قولا يقولونه له، ولا يملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين»(٢).

ثم بين - سبحانه - موقف هارون - عليه السلام - من هؤلاء الجاهلين الذين عبدوا العجل، فقال - تعالى - :

«ولقد قالَ لهُم هارونُ مِنْ قبلُ يا قوم إنما فُتِنْتُم بِهِ وإنَّ ربَّكُم الرَّحمنُ فاتَّبعونِي وأطيعُوا أمْرِي (٩٠) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عليه عاكفِينَ حتَّى يرجِعَ إلينا موسَى (٩١)».

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٤٨.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٨.

وجملة : « ولقد قال لهم هارون من قبل ... » قسمية مؤكدة لما قبلها .

أي : والله لقد نصح هارون - عليه السلام - عبدة العجل من قومه ، قبل رجوع موسى إليهم ، فقال لهم مستعطفا : « ياقوم إنما فتنتم به » أي : ياقوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم العجل ، فالضمير في «به» يعود إلى العجل .

« وإن ربكم الرحمن » هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .

وجمع - سبحانه - بين لفظي الربّ والرحمن ، لجذبهم نحو الحق ، واستمالتهم نحوه ، وللتنبيه على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم ، لأنه - سبحانه - هو الرحمن الرحيم .

والفاء في قوله : « فاتبعوني وأطيعوا أمري » لترتيب مابعدها على ماقبلها .

أي : وما دام الأمر كذلك فاتبعوني وأطيعوا أمري ، في الثبات على الحق ، وفي نبذ عبادة العجل ، وفي المحافظة على ماعاهدكم عليه موسى - عليه السلام -

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية . بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ماهم فيه من ضلال ، إذ قالوا في الرد عليه : « لن نبرح عليه عاكفين » أي : سنستمر على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة « حتى يرجع إلينا موسى » لنرى ماذا سيكون منه .

فهم لجهالاتهم وانطماس بصائرهم ، وسوء أدبهم ، يرون أن هارون - عليه السلام - ليس أهلا للنصيحة والطاعة ، مع أنه قد خاطبهم بأحكم أسلوب ، وألطف منطق .

قال الرازي : «واعلم أن هارون - عليه السلام - سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لزجرهم عن الباطل - أولا - بقوله : « ياقوم إنما فتنتم به » ثم دعاهم إلى معرفة الله - ثانياً - بقوله : « وإن ربكم الرحمن » ثم دعاهم - ثالثاً - إلى معرفة

النبوة بقوله : « فاتبعونى » ثم دعاهم - رابعاً - إلى الشرائع بقوله : « وأطيعوا أمرى » .

وهذا هو الترتيب الجيد . لأنه لابد قبل كل شىء من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ، ثم معرفة الله - تعالى - هى الأصل ، ثم النبوة ثم الشريعة : فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال ، بالتقليد والجمود فقالوا : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى »(١) .

ثم بين - سبحانه - ماقاله موسى لأخيه هارون بعد أن رأى ماعليه قومهما من ضلال ، فقال - تعالى - :

« قَالَ يَاهَارُونُ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهم ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى ولاَ بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيل ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤) » .

أى : قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبة : ياهارون أى شىء منعك من مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل و « لا » فى قوله : « أن لا تتبعن » مزيدة للتأكيد والاستفهام فى قوله : « أفعصيت أمرى » للإنكار .

أى : ما الذى منعك من أن تتبعنى فى الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين على عبادة العجل ، أفعصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولى : « اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » وفيما أمرتك به من الصلابة فى الدين ، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله - تعالى - يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٦٧ .

وكان موسى - عليه السلام - كان يريد من أخيه هارون - عليه السلام - موقفا يتسم بالحزم والشدة مع هؤلاء الجاهلين، حتى ولو أدى الأمر لمقاتلتهم ...

وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرفق والاستعطاف فيقول: «يابنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي».

أي: قال هارون لموسى محاولا أن يهدىء من غضبه، باستجاشة عاطفة الرحم فى قلبه: يا بن أمى لا تمسك بلحيتي ولا برأسي على سبيل التأنيب لى. فإنى لست عاصيا لأمرك، ولا معرضا عن اتباعك.

قال الآلوسى ما ملخصه: وخص الأم بالإضافة استعطافا وترقيقا لقلبه، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه، فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين.

وقوله: «لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي» ... روى أنه أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله، وكان موسى - عليه السلام - حديدا متصلبا غضوبا لله - تعالى -، وغلب على ظنه أن هارون قد قصر معهم ...»[1].

وقوله: «إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى» استئناف لتعليل موجب النهى، بتحقيق أنه غير عاص لأمره، وغير معرض عن اتباعه.

أى: يابن أمى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، فإنى ما حملنى على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل، إلا خوفى من أن تقول لى-لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين -: إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين، ولم ترقب قولى، أى: ولم تتبع وتطع قولى لك: «اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين»، ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم، بل بقيت معهم ناصحا واعظا. حتى تعود أنت إليهم فتتدارك الأمر بنفسك، وتعالجه برأيك.

(١) تفسير الآلوسى ج١٦ ص ٢٥١.

قال بعض العلماء ماملخصه : « وهذه الآية الكريمة ... تدل على لزوم إعفاء اللحية وعدم حلقها ، لأنه لو كان هارون حالقاً لحيته لما أخذ بها موسى - إذ من المشهور أن اللحية تطلق على الشعر النابت فى العضو المخصوص وهو الذقن - وبذلك يتبين لك أن إعفاء اللحية سمت الرسل الكرام الذين أمرنا الله - تعالى - بالاقتداء بهم .

فقد قال - تعالى - بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء منهم هارون : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ... »[١] .

والعجيب من الذين مسخت ضمائرهم ... حتى صاروا ينفرون من صفات الذكورية ، وشرف الرجولة ، إلى خنوثة الأنوثة ... »[٢] .

هذا : وبعد أن انتهى موسى من سماع إعتذار أخيه هارون ، اتجه بغضبه إلى السامرى - رأس الفتنة ومدبرها - فأخذ فى زجره وتوبيخه ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - :

« قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) » .

أى : قال موسى - عليه السلام - للسامرى : « ماخطبك » أى : ماشأنك ،

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٠ .

(٢) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٥٠٧ .

وما الأمر العظيم الذى جعلك تفعل ما فعلت ؟ مصدر خطب يخطب ـ كقعد يقعد ـ ومنه قولهم : هـذا خطب يسير أو جلل ، وجمعه خطوب . وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور . وأصله : الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب والتشاور ، ويخطب الخطيب الناس من أجله .

وقد رد السامرى على موسى بقوله : « بصرت بما لم يبصروا به » أى : علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ورأيت ما لم يروه .

قال الزجاج : يقال : بصر بالشىء يبصر ـ ككرم وفرح ـ إذا علمه ، وأبصره إذا نظر إليه .

وقيل : هما بمعنى واحد .

« فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها » روى أن السامرى رأى جبريل ـ عليه السلام ـ حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة من الله ـ عز وجل ـ ولم ير جبريل أحد غير السامرى من قوم موسى ، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شىء اخضرت ، فعلم أن للتراب الذى تضع عليه الفرس حافرها شأنا ، فأخذ منه حفنة وألقاها فى الحلى المذاب فصار عجلا جسداً له خوار .

والمعنى : قال السامرى لموسى : علمت ما لم يعلمه غيرى « فأخذت حفنة من تراب أثر حافر فرس الرسول وهو جبريل ـ عليه السلام ـ فألقيت هذه الحفنة فى الحلى المذاب » فصار عجلا جسدا له خوار » .

« وكذلك سولت لى نفسى » أى : ومثل هذا الفعل سولته لى نفسى ، أى زينته وحسنته لى نفسى ، لأجعل بنى إسرائيل يتركون عبادة إلهك ياموسى ، ويعبدون العجل الذى صنعته لهم .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه كثير من المفسرين ، يكون المراد بالرسول :

جبريل - عليه السلام - ، ويكون المراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر فرسه .

هذا ، وقد نقل الفخر الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى رأيا آخر فى تفسير الآية فقال ما ملخصه : وليس فى القرآن ما يدل على ما ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - وبأثره : سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير : أن موسى لما أقبل على السامرى بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل ، رد عليه بقوله : « بصرت بما لم يبصروا به » أى : عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى : أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته ، أى : طرحته . . . » (١) .

وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه أبو مسلم يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : دينه وسنته وعلمه .

ويكون المعنى الإجمالى للآية : أن السامرى قال لموسى - عليه السلام - : كنت قد أخذت جانبا من دينك وعلمك ، ثم تبين لى أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك وسولت لى نفسى أن أصنع للناس عجلا لكى يعبدوه ، لأن عبادته أراها هى الحق .

وقد رجح الإمام الرازى فى تفسيره ما ذهب إليه أبو مسلم فقال : واعلم أن هذا القول الذى قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ، ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه :

١ - أن جبريل ليس مشهورا باسم الرسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٧٠ .

٢ ــ أنه لابد فيه من الإضمار ، وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول ، والإضمار خلاف الأصل .

٣ ــ أنه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن اتراب حافر فرسه هذا الأثر ؟ والذى ذكروه من أن جبريل هو الذى رباه بعيد . . . »(١) .

وقد رد الإمام الآلوسى على الإمام الفخر الرازى ـ رحمهما الله ـ فقال ما ملخصه :

١ ـ عهد فى القرآن الكريم إطلاق الرسول على جبريل ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « إنه لقول رسول كريم » . وعدم جريان ذكره فيما تقدم لا يمنع أن يكون معهوداً ، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه كان شائعا فى بنى إسرائيل .

٢ ـ تقدير المضاف فى الكلام أكثر من أن يحصى ، وقد عهد ذلك فى كتاب الله غير مرة .

٣ ـ رؤية السامرى دون غيره لجبريل ، كان ابتلاء من الله ـ تعالى ـ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ومعرفته تأثير ذلك الأثر دون غيره كانت بسبب ما ألقى فى روعه من أنه لا يلقيه على شىء فيقول له كن كذا إلا كان ـ كما فى خبر ابن عباس ـ أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء ـ كما فى بعض الآثار . . . »(٢) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه أبو مسلم ، أقرب إلى ما يفيده ظاهر القرآن الكريم ، إذا ما استبعدنا تلك الروايات التى ذكرها المفسرون فى شأن السامرى وفى شأن رؤيته لجبريل .

ولا نرى حرجا فى استبعادها ، لأنها عارية عن السند الصحيح إلى النبى

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٧١ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٦ ص ٢٠٤ .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إلى أصحابه ، ويغلب على ظننا أنها من الإسرائيليات التي نرد العلم فيها إلى الله ـ تعالى ـ .

وقوله ـ سبحانه ـ : «قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ...» حكاية لما قاله موسى ـ عليه السلام ـ للسامري .

والمساس : مصدر مس ـ بالتشديد ـ كقتال من قاتل ، وهو منفي بلا التي لنفي الجنس .

والمعنى : قال موسى للسامري : مادمت قد فعلت ذلك فاذهب ، فإن لك في مدة حياتك ، أن تعاقب بالنبذ من الناس ، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحد منك : « لا مساس » أي : لا أمس أحدا ولا يمسني أحد ، ولا أخالط أحدا ولا يخالطني أحد .

قال صاحب الكشاف : «عوقب في الدنيا بعقوبة لاشيء أطم منها وأوحش وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته ، وكل مايعايش به الناس بعضهم بعضا . وإذا اتفق أن مس أحدا أو امرأة ، حم الماس والممسوس ـ أي : أصيبا بمرض الحمى ـ فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس . وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ، ومن الوحش النافر في البرية ...»(١) .

وقال الآلوسي ما ملخصه : «والسر في عقوبته على جنايته بما ذكر . أنه ضد ماقصده من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه ، فكان مافعله سببا لبعدهم عنه وتحقيره وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل ، حيث نبذ فنبذ ، فإن ذلك التحامي عنه أشبه شيء بالنبذ ...»(٢) .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٥ .

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٦ ص ٢٥٦ .

قالوا : وهذه الآية الكريمة أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وعدم مخالطتهم .

ثم بين - سبحانه - عقوبة السامرى فى الآخرة ، بعد بيان عقوبته فى الدنيا فقال : « وإن لك موعداً لن تخلفه » .

وقوله : « تخلفه » قرأها الجمهور بضم التاء وفتح اللام . أى : وإن لك موعداً فى الآخرة لن يخلفك الله - تعالى - إياه . بل سينجزه لك ، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذى تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك ، كما عاقبك فى الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «لن تخلفه» بضم التاء وكسر اللام أى : وإن لك موعداً فى الآخرة لن تستطيع التخلف عنه ، أو المهرب منه ، بل ستأتيه وأنت صاغر ...

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى - عليه السلام - بالعجل الذى صنعه السامرى لإضلال الناس . فقال : « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا » .

أى : وقال موسى - أيضا - للسامرى : وانظر إلى معبودك العجل الذى أقمت على عبادته أنت وأتباعك فى غيبتى عنكم .

« لنحرقنه » بالنار أمام أعينكم . والجملة جواب لقسم محذوف ، أى : والله لنحرقنه « ثم لننسفنه فى اليم نسفاً » أى : ثم لنذرينه فى البحر تذرية ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

يقال : نسف الطعام ينسفه نسفاً . إذا فرقه وذراه بحيث لا يبقى منه شىء .

وقد نفذ موسى - عليه السلام - ذلك . حتى يظهر للأغبياء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، أنه لا يستحق ذلك . وإنما يستحق الذبح والتذرية ، وأن عبادتهم له إنما هى دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وشدة جهلهم .

وقوله - تعالى - : « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما »

استئناف مسوق لإحقاق الحق وإبطال الباطل . أى : إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله - تعالى - وحده ، الذى وسع علمه كل شىء . ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد قصت علينا بأسلوب بليغ حكيم ، جوانب من رعاية الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - ورحمته به ، كما قصت علينا تلك المحاورات التى تمت بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة كما حدثنا عن جانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على بنى إسرائيل ، وكيف أنهم قابلوها بالجحود والكنود وبإيذاء نبيهم موسى - عليه السلام - .

ثم أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى العبرة من قصص الأولين ، وإلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وإلى أن يوم القيامة آت لاريب فيه ، فقال - تعالى - :

« كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) » .

والكاف فى قوله - تعالى - « كذلك » فى محل نصب نعت لمصدر محذوف . أى : نقص عليك - أيها الرسول الكريم - من أنباء ماقد سبق من أحوال الامم الماضية ، قصصا مثل ماقصصناه عليك عن موسى وهارون . ومادار بينهما وبين فرعون وبين بنى إسرائيل .

و « من » فى قوله « من أنباء ماقد سبق » للتبعيض ، ويشهد لذلك أن القرآن قد صرح فى كثير من آياته ، أن الله - تعالى - لم يقص على الرسول

ـ صلى الله عليه وسلم ـ جميع أحوال الأمم السابقة، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ...»

ومن فوائد ما قصه الله ـ عليه ـ من أنباء السابقين: زيادة علمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وتكثير معجزاته، وتثبيت فؤاده، وتسليته عما أصابه من سفهاء قومه، وتذكير المؤمنين بأحوال تلك الأمم السابقة ليعتبروا ويتعظوا...

وقوله ـ سبحانه ـ: «وقد آتيناك من لدنا ذكرا» تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم.

أي: وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا «ذكرا» عظيما، وهو القرآن الكريم، كما قال ـ تعالى ـ «وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون».

قال الفخر الرازي: «وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس، ففيه التذكير والوعظ.

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك، كما قال ـ سبحانه ـ «وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون»(٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال: «من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا».

والوزر في الأصل يطلق على الحمل الثقيل، وعلى الإثم والذنب، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام.

قال صاحب الكشاف: والمراد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها

(١) سورة النساء الآية ١٦٤

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٧١

وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذى يفدح الحامل . وينقض ظهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم »(١) .

وقد أخبرنا القرآن فى كثير من آياته ، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم ، أى : أثقال ذنوبهم على ظهورهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون »(٢) .

أى : من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم ، فإنه بسبب هذا الإعراض والترك ، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة ، تؤدى به إلى العقوبة المهينة من الله - تعالى - .

وقوله : « خالدين » أى : فى العذاب المترتب على هذا الوزر .

« وساء لهم يوم القيامة حملا » أى : وبئس ماحملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم .

قال الآلوسى : « قوله : « وساء لهم يوم القيامة حملا» إنشاء للذم ، على أن « ساء » فعل ذم بمعنى بئس ... وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على « حملا » الواقع تمييزا . . . والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير . ساء حملهم حملا وزرهم »(٣) .

ثم بين - سبحانه - أحوال المجرمين عند الحشر فقال : « يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » .

أى : اذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٦ .
(٢) سورة النحل الآية ٢٥
(٣) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٥٩

ونحشر المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول، أو حالة كونهم «زرقا» أي: عميا، لأن العين إذا ذهب ضوؤها ازرق ناظرها. أو «زرقا» معناه: عطاشا، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق.

قال - تعالى -: «ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله. ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»[1].

وقوله - سبحانه -: «يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا» استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت.

أي: إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم في هذا اليوم العصيب، قائلين ما لبثتم في قبوركم إلا عشرا من الليالي أو الأيام.

ومقصدهم من هذا القول: - استقصار المدة، وسرعة انقضائها، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب، بعد أن تبين لهم أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون.

وقوله - تعالى -: «نحن أعلم بما يقولون ...» بيان لشمول علمه - سبحانه -.

أي: نحن وحدنا أعلم بما يقولونه فيما بينهم، لا يخفى علينا شيء مما يتخافتون به في شأن مدة لبثهم في قبورهم أو في الدنيا.

«إذ يقول أمثلهم طريقة» أي: أعدلهم رأيا، وأرجحهم عقلا «إن لبثتم إلا يوما» واحدا في المدا. والمراد باليوم: مطلق الوقت، وتنكيره للتقليل والتحقير. أي: ما لبثتم في قبوركم إلا زمنا قليلا.

ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدل على شدة الهول.

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨.

قال - تعالى - : « كأنهم يوم يرونها - أى الساعة - لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس يوم القيامة فقال - تعالى - :

« ويَسألُونَكَ عن الجبالِ فقُلْ ينسِفُها ربِّى نَسْفاً (١٠٥) فيذرُها قاعاً صَفْصفاً (١٠٦) لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً (١٠٧) يومئذٍ يتَّبعونَ الداعِيَ لا عِوَجَ له ، وخَشَعتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تَسمعُ إلا هَمْساً (١٠٨) يومئذٍ لا تَنفَعُ الشفاعةُ إلاَّ مَن أَذِنَ له الرحمنُ ورَضِيَ له قولاً (١٠٩) يعلمُ ما بينَ أيدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يُحيطُونَ به عِلْماً (١١٠) وعَنَتِ الوجُوهُ لِلحَيِّ القيومِ وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) ومَنْ يعمَلْ من الصالحاتِ وهُو مُؤمنٌ فلا يَخافُ ظلماً ولا هَضْماً (١١٢) » .

والسائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة ، روى أنهم قالوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الاستهزاء : يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى ، وأننا نبعث بعد الموت ، فأين تكون هذه الجبال ، فنزل قوله - تعالى - : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا » .

وقيل : السائلون هم المؤمنون على سبيل طلب المعرفة والفهم .

وقوله : « ينسفها » من النسف بمعنى القلع . يقال : نسفت الريح التراب نسفا - من باب ضرب - إذا اقتلعته وفرقته .

أى ويسألك أيها الرسول الكريم - بعض الناس عن أحوال الجبال يوم القيامة ، فقل لهم : ينسفها ربى نسفا ، بأن يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمل المتناثر ، أو كالصوف المنفوش الذى تفرقه الرياح .

والفاء فى قوله : « فقل » للمسارعة إلى إزالة ما فى ذهن السائل من توهم أن الجبال قد تبقى يوم القيامة .

والضمير فى قوله « فيذرها قاعا صفصفا » يعود إلى الجبال باعتبار أجزائها السفلى الباقية بعد النسف ، ويصح أن يعود إلى الأرض المدلول عليها بقرينة الحال . لأنها هى الباقية بعد قلع الجبال . والقاع : هو المنكشف من الأرض دون أن يكون عليه نبات أو بناء .

والصفصف : الأرض المستوية الملساء حتى لكأن أجزاءها صف واحد من كل جهة .

اى . فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء ، لا نبات فيها ولا بناء .

« لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » أى : لا ترى فى الأرض بعد اقتلاع الجبال منها ، مكانا منخفضا ، كما لا ترى فيها « أمتا » أى : مكانا مرتفعا ، بل تراها كلها مستوية ملساء كالصف الواحد .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قد فرقوا بين العوج والعوج ، فقالوا : العوج بالكسر فى المعانى ، والعوج بالفتح فى الأعيان ، والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين ؟

قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع فى وصف الأرض بالاستواء والملاسة ، ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها ، وبالغت فى التسوية على عينك وعيون البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأى المهندس فيها ، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية . لعثر فيها على عوج فى غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى ، فنفى الله ذلك العوج الذى دق ولطف عن الإدراك ، اللهم إلا بالقياس الذى يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق

بالمعانى ، فقيل فيه ، عوج بالكسر . والأمت : النتوء اليسير ، يقال : مدحبله حتى ما فيه أمت » .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس يوم القيامة فقال : « يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له . . . » .

والمراد بالداعى : الملك الذى يدعوهم إلى المثول للحساب

قيل يناديهم بقوله : أيتها العظام البالية ، والجلود المتخرقة ، واللحوم المتفرقة . . . قومى إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون الصوت ويتبعون من يناديهم للحساب والجزاء ، دون أن يحيدوا عن هذا المنادى أو أن يملكوا مخالفته أو عصيانه ، بل الجميع يسمع دعاءه ويستجيب لأمره

كما قال - تعالى - « فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

وقوله : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا » أى : وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفا من الرحمن - عز وجل - فلا تسمع - أيها المخاطب - فى هذا اليوم الهائل الشديد ، « إلا همسا » أى : إلا صوتا خفيا خافتا . يقال : همس الكلام يهمسه همسا ، إذا أخفاه . ويقال للأسد الهموس ، لخفاء وطئه .

« يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن . ورضى له قولا » أى : فى هذا اليوم الذى تخشع فيه الأصوات لا تنفع الشفاعة أحدا كائنا من كان ، إلا شفاعة من أذن له الرحمن فى ذلك « ورضى له قولا » أى : ورضى سبحانه قول الشافع فيمن يشفع له .

قال الإمام ابن كثير : « وهذه الآية كقوله - تعالى - : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » وكقوله : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا

إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، وكقوله : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ... »

وفى الصحيحين من غير وجه ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : آتى تحت العرش ، وأخر لله ساجدا ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقول - سبحانه - : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع قولك ، واشفع تشفع . قال - صلى الله عليه وسلم - : فيحد لى حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود . فذكر أربع مرات - صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء - .

وفى الحديث : يقول - تعالى - : أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان، فيخرجون خلقا كثيرا . ثم يقول - سبحانه - : أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان . أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة ، من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ... »[1] .

وقوله - تعالى - « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يعلم جميع أحوال خلقه - وما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأهوال الموقف . أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا أمامهم فإنهم لا يحيط علمهم لا بذاته - تعالى - ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته .

فالضمير فى قوله « ما بين أيديهم وما خلفهم » يعود على المتبعين للداعى ، وهم الخلق جميعا .

وقيل : يعود للشافعين ، وقيل للملائكة ، والأول لعمومه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣١١ .

وقوله - سبحانه - : « وعنت الوجوه للحى القيوم . . . » مؤكد ومقرر لما قبله من خشوع الأصوات يوم القيامة للرحمن ، ومن عدم الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - .

والفعل « عنت » بمعنى ذلت يقال : عنا فلان يعنو عنوا - من باب سما - إذا ذل لغيره وخضع وخشع ، ومنه قيل للأسـير : عانٍ لذله وخضوعه لمن أسره .

أي : وذلت وجوه الناس وخضعت فى هذا اليـوم لله - تعالى - وحده « الحى » أي : الباقى الذى له الحياة الدائمة التى لا فناء معها « القيوم » أى : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وإحيائهم وإماتتهم ورزقهم . . . وسائر شئونهم .

وهذا اللفظ مبالغة فى القيام . وأصله قيووم بوزن فيعول ، من قام بالأمر إذا حفظه ودبره .

وخصت الوجوه بالذكر ، لأنهـا أشرف الأعضاء ، وآثار الذل أكثر ما تكون ظهوراً عليها .

وظاهر القرآن يفيد أن المراد بالوجوه جميعـا ، سواء أ كانت للمؤمنين أم لغيرهم ، فالكل يوم القيامة خاضع لله - تعالى - ومستسلم لقضائه ، فالألف واللام للاستغراق .

قال ابن كثير : « قوله - تعالى - « وعنت الوجوه للحى القيوم » قال ابن عباس وغير واحد - من السلف - : خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لخالقها وجبارها الحى الذى لا يموت . . »(١) .

ويرى بعضهم أن المراد بالوجوه التى ذلت وخشعت فى هذا اليوم وجوه الكفار والفاسقين ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال : المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا - يوم القيامة - الخيبة والشقوة وسوء

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣١١ .

الحساب « صارت وجوههم عانية » أى : ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى ، ونحوه قوله - تعالى - : « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا »(١) .

ويبدو لنا أن القول الأول أقرب إلى الصواب . لأن جميع الوجوه يوم القيامة تكون خاضعة لحكم الله - تعالى - ومستسلمة لقضائه .

وقوله : « وقد خاب من حمل ظلما » جملة حالية ، أى : ذلت جميع الوجوه لله - تعالى - يوم القيامة ، والحال أنه قد خاب وخسر من حمل فى دنياه ظلما ، أى : شركا بالله - تعالى - أو فسوقا عن أمره - سبحانه - ولم يقدم العمل الصالح الذى ينفعه فى ذلك اليوم العسير .

ثم بشر - سبحانه - المؤمنين بما يشرح صدورهم فقال : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » .

أى : ومن يعمل فى دنياه الأعمال الصالحات ، وهو مع ذلك مؤمن بكل ما يجب الإيمان به ، فإنه فى هذه الحالة « لا يخاف ظلما » ينزل به ، « ولا يخاف هضما » لشىء من حقوقه أو ثوابه .

يقال : هضم فلان حق غيره ، إذا انتقصه حقه ولم يوفه إياه .

قالوا : والفرق بين الظلم والهضم : أن الظلم قد يكون بمنع الحق كله ، أما الهضم فهو منع لبعض الحق . فكل هضم ظلم ، وليس كل ظلم هضما .

فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين ، بأن الله - تعالى - بفضله وكرمه سيوفيهم أجورهم يوم القيامة ، بدون أدنى ظلم أو نقص من ثوابهم ، والتنكير فى قوله « ظلما وهضما » للتقليل .

ثم نوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم ، وبين بعض الحكم من إنزاله ، وطلب من نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسأله المزيد من العلم فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٨٩

« وكذلكَ أنزلناهُ قُرآناً عَربيًّا وصَرَّفنا فيهِ من الوعيدِ لعلَّهم يتقونَ أوْ يحدِث لهُم ذِكْراً (١١٣) فتعالَى اللهُ الملكُ الحقُّ، ولا تعجَلْ بالقُرآنِ من قبلِ أن يُقضَى إليكَ وَحيُهُ وقُلْ ربِّ زِدْنِي عِلماً (١١٤) » .

وقوله - سبحانه - « وكذلك أنزلناه . . . » معطوف على قوله : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ... » والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود على إنزال ما سبق من آيات .

أى : ومثل ما أنزلنا الآيات السابقة المشتملة على الآداب والأحكام والقصص ، أنزلنا عليك يا محمد القرآن كله ، فما نزل منه متأخراً يشبه فى هدايته وإعجازه ما نزل منه متقدما .

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعله « قرآنا عربيا » أى : بلغة العرب ، لكى يفهموه ويقفوا على ما فيه من هدايات وإرشادات وإعجاز للبشر .

وقوله : « وصرفنا فيه من الوعيد » معطوف على « أنزلناه » أى : أنزلناه قرآنا عربيا وكررنا ونوعنا فيه ألوانا من الوعيد على سبيل التخويف والتهديد .

« لعلهم يتقون » أى : لعل الناس يتقون بسبب ذلك الوقوع فى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجتنبون الآثام والسيئات ، ويصونون أنفسهم عن الموبقات فمعمول « يتقون » محذوف .

وقوله - سبحانه - « أو يحدث لهم ذكرا » بيان لحكمة أخرى من الحكم التى من أجلها أنزل الله القرآن الكريم .

أى : أنزلناه بهذه الصفة ، وجعلناه مشتملا على ضروب من الوعيد ، لعل قومك - أيها الرسول الكريم - يتقون الكفر والمعاصى ، أو لعل القرآن يحدث فى نفوسهم « ذكراً » .

أى : اتعاظا واعتباراً يصرفهم عن التردى فيما ترددت فيه الأمم السابقة آثام وموبقات أدت إلى هلاكها .

وقال - سبحانه - « أنزلناه » بالإضمار مع أن القرآن لم يسبق له ذكر فى الآيات السابقة ، للإيذان بنباهة شأنه . وعلو قدره ، وكونه مركوزا فى العقول ، حاضرا فى الأذهان والقلوب .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما يستحقه من صفات كريمة فقال : « فتعالى الله الملك الحق » .

أى : فجل وعظم شأن الله - سبحانه - عن إلحاد الملحدين ، وإشراك المشركين ، فإنه هو وحده « الملك » المتصرف فى شئون خلقه ، وهو وحده الإله « الحق » ، وكل ما سواه فهو باطل .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى كيفية تلقى القرآن من جبريل - عليه السلام - فقال : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . » .

أى : ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من إبلاغه إليك ، قالوا : وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - كلما قرأ عليه جبريل آية قرأها معه ، وذلك لشدة حرصه على حفظ القرآن ، ولشدة شوقه إلى سماعه ، فأرشده الله - تعالى - فى هذه الآية إلى كيفية تلقى القرآن عن جبريل . ونهاه من التعجل فى القراءة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - : ان يسأله المزيد من العلم فقال : « وقل رب زدنى علماً » .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا ربك ومتوسلا إليه ، يارب زدنى من علمك النافع .

قال الآلوسى: «واستدلوا بالآية على فضل العلم حيث أمر - صلى الله عليه وسلم - بطلب الزيادة منه وذكر بعضهم أنه - صلى الله عليه وسلم - ما أمر بطلب الزيادة من شىء سوى العلم. وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول: اللهم انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علما، وكان يقول: «اللهم زدنى إيمانا وفقها ويقينا وعلما»(١).

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة آدم - عليه السلام - فذكر لنا كيف أنه نسى عهد ربه له، فأكل من الشجرة التى نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها، ومع ذلك فقد قبل - سبحانه - توبته، وغسل حوبته... قال - تعالى -:

«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)».

واللام فى قوله - تعالى -: «ولقد عهدنا..» هى الموطئة للقسم، والمعهود محذوف، وهو النهى عن الأكل من شجرة معينة، كما وضحه فى آيات أخرى منها قوله - تعالى -: «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين».

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٦٩.

أى : والله لقد عهدنا إلى آدم - عليه السلام - وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة « من قبل » أن يخالف أمرنا فيقربها ويأكل منها ، أو قبل أن نخبرك بذلك - أيها الرسول الكريم -

والفاء فى قوله « فنسى » للتعقيب ، والمفعول محذوف . أى : فنسى العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها .

والنسيان هنا يرى بعضهم بمعنى أنه الترك ، وقد ورد النسيان بمعنى الترك فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا » أى : نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا وهو يوم القيامة .

وعليه يكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل بعدم الأكل من الشجرة فترك الوفاء بعهدنا ، وخالف ما أمرنا به .

وعلى هذا التفسير فلا إشكال فى وصف الله - تعالى - له بقوله : « وعصى آدم ربه فغوى » ، لأن آدم بمخالفته لما نهاه الله - تعالى - عنه - وهو الأكل من الشجرة - صار عاصيا لأمر ربه .

ومن العلماء من يرى أن النسيان هنا على حقيقته ، أى : أنه ضد التذكرة فيكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ما عاهدناه عليه ، وغاب عن ذهنه ما نهيناه عنه ، وهو الأكل من الشجرة .

فإن قيل : إن الناسى معذور . فكيف قال الله - تعالى - فى حقه : « وعصى آدم ربه فغوى » ؟

فالجواب : أن آدم - عليه السلام - لم يكن معذورا بالنسيان ، لأن العذر بسبب الخطأ والنسيان والإكراه من خصائص هذه الأمة الإسلامية ، بدليل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

قال القرطبي ما ملخصه : «قوله - تعالى - : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ... والنسيان معنيان : أحدهما : الترك ، أي ترك الأمر والعهد ، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ، ومنه « نسوا الله فنسيهم » . وثانيهما : قال ابن عباس : « نسى » هنا من السهو والنسيان، وإنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسى ... وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم فى ذلك الوقت مؤاخذا بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا .

والمراد تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - أي : أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم أى : إن نقض هؤلاء ، المشركون - العهد ، فإن آدم - أيضا-عهدنا إليه فنسى .. »(١) .

وقوله : « ولم نجد له عزما » مقرر لما قبله من غفلة آدم عن الوفاء بالعهد.

قال الجمل : « وقوله : « نجد » يحتمل أنه من الوجدان بمعنى العلم : فينصب مفعولين ، وهما « له وعزما » . ويحتمل أنه من الوجود الذى هو ضد العدم فينصب مفعولا وهو « عزما » والجار والمجرور متعلق بنجد »(٢) .

والعزم : توطين النفس على الفعل ، والتصميم عليه ، والمعنى فى التنفيذ للشيء . .

أى : نسى آدم عهدنا ، ولم نجد له ثبات قدم فى الأمور ، يجعله يصبر على عدم الأكل من الشجرة . بل لانت عريكته ، وفترت همته بسبب خديعة الشيطان له .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك بشيء من التفصيل ، الأسباب التى أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال : « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢٥١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١١٣

أى : واذكر ـ أيها المخاطب وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة ، فامتثلوا أمرنا ، إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم تكبرا وغرورا وحسدا على التكريم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله لآدم بعد إباء إبليس عن السجود له فقال : «يا آدم إن هذا» أى : إبليس «عدولك ولزوجك» بسبب حسده لكما وحقده عليكما «فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى» أى : فاحذرا أن تطيعاه ، فإن طاعتكما له ستؤدى بكما إلى الخروج من الجنة ، فيترتب على ذلك شقاؤك ، أى : تعبك فى الحصول على مطالب حياتك .

وأسند ـ سبحانه ـ إلى إبليس الإخراج لهما من الجنة، لأنه هو المتسبب فى ذلك ، عن طريق الوسوسة لهما ، وطاعتهما له فيما حرضهما عليه وهو الأكل من الشجرة . وعبر عن التعب فى طلب المعيشة بالشقاء ، لأنه بعد خروجه من الجنة سيقوم بحراثة الأرض وفلاحتها وزرعها وريها ... ثم حصدها ... ثم إعداد نتاجها للأكل ، وفى كل ذلك ما فيه من شقاء وكد وتعب .

وقال ـ سبحانه ـ «فتشقى» ، ولم يقل فتشقيا كما قال «فلا يخرجنكما» ، لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده ، أو لأن شقاء الرجل يدخل فيه شقاء أهله ، كما أن فى سعادته سعادتهم ، أو لأنه هو الذى يعود عليه التعب إذ هو المكلف بأن يقدم لها ما تحتاجه من مطالب الحياة . كالمسكن والملبس والمطعم والمشرب .

قال القرطبى ما ملخصه : «قوله «فتشقى» يعنى أنت وزوجك لأنهما فى استواء العلة واحد، ولم يقل:فتشقيا لأن المعنى معروف، وآدم ـ عليه السلام ـ هو المخاطب ، وهو المقصود . وأيضا لما كان هو الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص .

وفى ذلك تعليم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم، كانت كذلك نفقات

بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . . . »(١)

وقوله - تعالى - : «إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى» تعليل لما يوجبه النهى عن طاعة إبليس التى ستؤدى بهما إلى الإخراج من الجنة وإلى الشقاء فى الدنيا .

والجوع : ضد الشبع . وقوله «تعرى» من العرى الذى هو خلاف اللبس .

يقال : عرى فلان من ثيابه يعرى عريا ، إذا تجرد منها .

وقوله «تضحى» أى : لا يصيبك حر الشمس فى الضحى . يقال : ضحا فلان يضحى ضحوا - كسعى - إذا كان بارزا لحر الشمس فى الضحا .

أى : احذر يا آدم أن تطيع إبليس فيحل بك الشقاء ، وتخرج من الجنة التى لا يصيبك فيها شىء من الجوع ، ولا شىء من العرى أو الظمأ ، ولا شىء من حر الشمس فى الضحا . . . وإنما أنت فيها متمتع بكل مطالب الحياة الهنيئة الناعمة الدائمة .

قال صاحب الكشاف : «الشبع والرى والكسوة والسكن - هذه الأربعة - هى الأقطاب التى يدور عليها كفاف الإنسان . فذكره استجماعها له فى الجنة وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا .

وذكرها بلفظ النفى لنقائضها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحو ، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التى حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها(٢) .

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢٥٣ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٩٢ .

ثم بين - سبحانه - أن آدم - عليه السلام - مع هذه النصائح والتحذيرات لم يستطع أن يستمر على الاستجابة لنهى ربه إياه عن الأكل من الشجرة، بل تغلب عليه ضعفه فاستمع إلى مكر الشيطان، قال - تعالى - : «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى».

والوسوسة : الخطرة الرديئة، وأصلها من الوسواس ، وهو صوت الحلى ، والهمس الخفى . والوسواس - بكسر الواو الأولى - مصدر ، وبفتحها الاسم وهو من أسماء الشيطان ، كما قال - تعالى - : «قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس».

ويقال : وسوس فلان إلى فلان، أى : أوصلها إليه ، ووسوس له ، أى: من أجله أى فأوصل الشيطان وسوسته إلى آدم ، وأنهاها إليه ، بأن قال له : يا آدم ، هل أدلك على الشجرة التى من أكل منها عاش مخلدا لايدركه الموت، وصار صاحب ملك لايفنى ، ولا يصبح باليا أبداً .

وناداه باسمه ، ليكون أكثر إقبالا عليه ، وأمكن فى الاستماع إليه .

وعرض عليه ماعرض فى صورة الاستفهام الذى بمعنى الحث والحض، ليشعره بأنه ناصح له وحريص على مصلحته ومنفعته .

ثم أكد كل هذا التحريض بالقسم كما فى قوله - تعالى - : «وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين»(١)

فكانت نتيجة مكره بآدم وخداعه له ، أن أطاعه فى الأكل من الشجرة كما قال - تعالى - «فأكلا منها» أى : فأكل آدم وزوجه من الشجرة التى نهاه ربه عن الأكل منها .

«فبدت لهما سوءاتهما» أى : عوراتهما ، وسميت العورة سوءة ، لأن إنكشافها يسوء صاحبها ويحزنه . ويجعل الناس تنفر منه .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢١

«وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ...» أى : وشرعا وأخذا يلزقان على أجسادهما من ورق الجنة ليستترا عوراتهما .

وكثير من المفسرين يقولون : إن ورق الجنة الذى أخذ آدم وحواء فى لزقه على أجسادهما هو ورق شجر التين لكبر حجمه .

وقد أخذ العلماء من ذلك وجوب ستر العورة ، لأن قوله - تعالى - «وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» ، يدل على قبح انكشافها ، وأنه يجب بذل أقصى الجهد فى سترها .

وقوله : «وعصى آدم ربه فغوى» ، أى : وخالف آدم أمر ربه فى اجتناب الأكل من الشجرة «فغوى» ، أى : فأخطأ طريق الصواب ، بسبب عدم طاعته ربه .

قالوا : ولكن آدم فى عصيانه لربه كان متأولا ، لأنه اعتقد أن النهى عن شجرة معينة لا عن النوع كله ، وقالوا : وتسمية ذلك عصيانا لعلو منصبه . وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ،

كما قالوا : إن من الأسباب التى حملت آدم على الأكل من الشجرة ، أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصح ، فصدقه آدم - عليه السلام - لاعتقاده أنه لا يمكن لأحد أن يقسم بالله كاذبا ، والمؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم ، كما جاء فى الحديث الشريف .

وقوله - سبحانه - : «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» ، وبيان لفضل الله - تعالى - على آدم ، حيث قبل توبته ، ورزقه المداومة عليها .

والاجتباء : الاصطفاء والاختيار ، أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم على ما فعل هو وزوجه «اجتباه ربه» أى : اصطفاه وقربه واختاره «فتاب عليه» ، أى : فقبل توبته «وهدى» أى : وهداه إلى الثبات عليها ، وإلى المداومة على طاعة الله - تعالى - ، فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما ، كما فى

قوله - تعالى - : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »(١) .

وقد أوحى الله - تعالى - إليه بكلمات كانت السبب فى قبول توبته ، كما قال - سبحانه - : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »(٢) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال - تعالى - « قال اهبطا منها جميعا . . . » .

أى : انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين ، فألف الاثنين هنا تعود إلى آدم وحواء .

أما الآيات الأخرى التى جاءت بضمير الجمع ، والتى منها قوله - تعالى - : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو . . . »(٣) .

فالضمير فيها يعود إلى آدم وزوجته وذريتهما .

وقوله : « بعضكم لبعض عدو » أى : بعض ذريتكما لبعض عدو ، بسبب التخاصم والتنازع والتدافع على حطام هذه الدنيا .

« فإما يأتينكم منى هدى » يابنى آدم عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب فعليكم أن تتبعوا رسلى ، وتعملوا بما اشتملت عليه كتبى .

« فمن اتبع هداى » بأن آمن برسلى وصدق بكتبى .

« فلا يضل ولا يشقى » لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بسبب استمساكه بالعروة الوثقى التى انفصام لها .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٣٧ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٤ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»(١).

وبعد أن بين - سبحانه - حسن عاقبة من اتبع هداه ، اتبع ذلك ببيان سوء عاقبة من أعرض عن ذكره وطاعته فقال - تعالى - :

« ومَنْ أعرَضَ عن ذِكْرِي فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمَى (١٢٤) قالَ ربِّ لِمَ حشَرتَنِي أعمَى وقد كنتُ بصيراً (١٢٥) قال كذَلِكَ أتتْكَ آياتُنا فنَسِيتَها وكذَلِكَ اليومَ تُنْسَى (١٢٦) وكذَلِكَ نَجزِي من أسرَفَ ولم يؤمِنْ بآياتِ ربِّه ، ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقَى (١٢٧) أفلَم يهدِ لهُم كم أهلَكْنا قبلَهُمْ مِنَ القُرونِ يمشُونَ في مَساكِنِهم إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأولي النُّهَى (١٢٨) ولولا كلمةٌ سبقَت مِنْ ربِّكَ لكانَ لِزاماً وأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) » .

وقوله : «ضنكا» أى : شديدة الضيق . وكل شيء ضاق فهو ضنك .

وهو مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع يقال : ضنك - ككرم - عيش فلان ضنكا وضناكة إذا ضاق .

والمعنى : من اتبع هداى الذى جاءت به رسلى فلن يضـل وان يشقى ، أما من أعرض عن ذكرى ، أى : عن هداى الذى جاءت به رسلى ، واشتملت عليه كتبى «فإن له معيشة ضنكا» .

أى : فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة ، حتى ولو ملك المال الوفير ، والطعام الكثير ... فإن المعيشة الطيبة لاتكون إلا مع طاعة الله ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ...

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٨ .

قال ـ تعالى ـ : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ... »

قال الإمام ابن كثير : « قوله « فإن له معيشة ضنكا » أى : فى الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه مالم يخلص إلى اليقين والهدى . فهو فى قلق وحيرة وشك ، فلا يزال فى ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة . . .

وقال سفيان بن عيينة ، عن أبى حازم ، عن أبى سلمة ، عن أبى سعيد فى قوله « معيشة ضنكا » قال : يضيق عليه قبره . حتى تختلف أضلاعه »(١) .

والمراد بالعمى فى قوله ـ سبحانه ـ « ونحشره يوم القيامة أعمى » : عمى البصر ، بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا » .

وقوله ـ سبحانه ـ فى آية أخرى : « ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ... »(٢)

وقيل: المراد بالعمى هنا: أنه لا حجة له يدافع بها عن نفسه . وقيل: المراد به : العمى عن كل شىء سوى جهنم .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الحق ، لأنه هو الظاهر من الآية الكريمة . ولا قرينة تمنع من إرادة هذا الظاهر .

ويجمع بين هذه الآية وما يشبهها وبين الآيات الأخرى التى تدل على أن الكفار يبصرون ويسمعون ويتكلمون يوم القيامة ، والتى منها قوله ـ تعالى ـ : « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ... »

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢١٦ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٧ .

أقول : يجمع بين هذه الآية وما يشبهها . وبين الآيات الأخرى بوجوه منها : أن عماهم وصممهم يكون فى أول حشرهم ، ثم يرد الله - تعالى - عليهم بعد ذلك أبصارهم وسمعهم ، فيرون النار ، ويسمعون ما يحزنهم

قال الجمل: «قوله: «أعمى» حال من الهاء فى نحشره ، والمراد عمى البصر وذلك فى المحشر ، فإذا دخل النار زال عنه عماه ليرى محله وحاله ، فهو أعمى فى حال أخرى(١) .

ومنها : تنزيل سمعهم وبصرهم وكلامهم منزلة العدم لعدم انتفاعهم بذلك فقد قال - تعالى - فى شأن المنافقين : «صم بكم عمى» بتنزيل سماعهم وكلامهم وإبصارهم منزلة العدم ، حيث إنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس .

وقوله - سبحانه - : «قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا» استئناف مسبق لبيان ما يقوله ذلك المعرض عن طاعة الله يوم القيامة .

أى : قال ذلك الكافر الذى حشره الله - تعالى - يوم القيامة أعمى ، يارب لماذا حشرتنى على هذه الحال مع أنى كنت فى الدنيا بصيرا !؟

وهنا يأتيه الجواب الذى يخرسه ، والذى حكاه الله - تعالى - فى قوله : «قال كذلك» ، أى: قال الله - تعالى - فى الرد عليه : الأمر كذلك . «فإنك «آتتك آياتنا» الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا «فنسيتها» أى : فتركتها وأعرضت عنها «وكذلك اليوم تنسى» أى : كما تركت آياتنا فى الدنيا وأعرضت عنها ، نتركك اليوم فى النار وفى العمى جزاء وفاقا .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : «وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» .

أى : ومثل ذلك الجزاء الأليم الذى أنزلناه بهؤلاء المعرضين عن ذكرنا نجازى كل من أسرف فى إرتكاب السيئات والموبقات ، وكل من لم يؤمن

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١١٦

بآيات ربه، كذب بها وأعرض عنها، ولعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، «وأبقى»، أي: وأكثر بقاء، وأطول زمانا من عذاب الدنيا.

ثم وبخ - سبحانه - أولئك الذين لم ينتفعوا بآياته فقال: «أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ...»

والهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى، والفاء للعطف على مقدر.

والمعنى: أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المشركين، أنهم لم يتبين لهم، أننا أهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية، الذين كانوا يمشون آمنين لاهين فى مساكنهم.

وكان إهلاكنا لهم بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان، والغى على الرشد، والعمى على الهدى.

فالآية الكريمة تقريع وتوبيخ لكفار مكة الذين لم يعتبروا بما أصاب أمثالهم من الأمم السابقة، كقوم نوح وعاد وثمود ...

قال الآلوسى: «وقوله: «يمشون فى مساكنهم» حال من «القرون» أو من مفعول «أهلكنا» أى: أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم. واختار بعضهم كونه حالا من الضمير فى «لهم» مؤكدا للإنكار، والعامل فيه «يهد» أى: أفلم يهد المشركين حال كونهم ماشين فى مساكن من أهلكنا من القرون السالفة من أصحاب الحجر، وثمود، وقوم لوط، مشاهدين لآثار هلاكهم إذا سافروا إلى بلاد الشام وغيرها ...»[1].

وقوله - سبحانه -: «إن فى ذلك لآيات لأولى النهى» تذييل قصد به تعليل الإنكار، أى: إن فى ذلك الذى أخبرناهم به. وأطلعناهم عليه من إهلاك المكذبين السابقين، «لآيات» عظيمة، وعبر كثيرة، ودلائل واضحة لأصحاب العقول السليمة، التى تنهى أصحابها عن القبائح والآثام.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٥٨٠.

والنهى : جمع نهية - بضم النون وإسكان الهاء - سمى العقل بها لنهيه عن القبائح .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على هؤلاء المشركين الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - لإنقاذهم من الكفر والضلالة فقال - تعالى -: « ولولا كلمة سبقت من ربك ، لكان لزاما وأجل مسمى » .

والمراد بالكلمة السابقة : ما تفضل الله - تعالى - به من تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة التى بعث فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما قال - تعالى - : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ... » . أو لأن من نسلهم من يؤمن بالله حق الإيمان ، أو لحكم أخرى يعلمها - سبحانه - ولزاما : مصدر بمعنى اسم الفاعل ، وفعله لازم كقاتل .

وقوله : « وأجل مسمى » معطوف على « كلمة » .

والمعنى : ولولا الوعد السابق منا بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين إلى يوم القيامة . ولولا الأجل المسمى المحدد فى علمنا لانتهاء أعمارهم ، لما تأخر عذابهم أصلا . بل لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا ، ونازلا بهم كما نزل بالسابقين من أمثالهم فى الكفر والضلال

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالمداومة على الصبر ، وعلى الإكثار من ذكره - تعالى - ونهاه عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا . . فقال - تعالى - :

« فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) » .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فاصبر على ما يقولون ... » فصيحة ، أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن تأخير عذاب أعدائك الإمهال وليس الإهمال ... فاصبر على مايقولونه فى شأنك من أنك ساحر أو مجنون ... وسر فى طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم أو مكرهم واستهزائهم .

ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يشرح صدره ، ويجلو همه فقال : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » .

أى : وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تكثر من تسبيح ربك وتحميده وتنزيهه . قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفى ساعات الليل وفى « أطراف النهار » .

أى : فى الوقت الذى يجمع الطرفين، وهو وقت الزوال، إذ هو نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الثانى منه ، إذ فى هذا التسبيح والتحميد والتنزيه لله - تعالى - والثناء عليه بما هو أهله ، جلاء للصدور ، وتفريج للكروب وأنس للنفوس ، واطمئنان للقلوب .

ويرى كثير من المفسرين ، أن المراد بالتسبيح هنا : إقامة الصلاة والمداومة عليها .

قال ابن كثير: «قوله « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس » يعنى صلاة الفجر « وقبل غروبها » يعنى صلاة العصر ، كما جاء فى الصحيحين ، عن جرير ابن عبدالله البجلى قال: كنا جلوسا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته - أى : لا ينالكم ضيم ، بأن يراه بعضكم دون بعض - فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية » .

وقوله « ومن آناء الليل فسبح » أى : من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء . « وأطراف النهار » فى مقابلة آناء الليل « لعلك ترضى » كما قال - سبحانه - « ولسوف يعطيك ربك فترضى »(١) .

وبعد هذا الأمر بالتسبيح ، جاء النهى عن الإعجاب بالدنيا وزينتها فقال - تعالى - « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . . . » .

أى : أكثر - أيها الرسول الكريم - من الاتجاه إلى ربك ، ومن تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة ولا تطل نظر عينيك بقصد الرغبة والميل إلى ما متعنا به « أزواجا منهم » .

أى : إلى ما متعنا به أصنافا من هؤلاء المشركين . بأن منحناهم الجاه والمال والولد .

وما جعلناه لهم فى هذه الدنيا بمثابة الزهرة التى سرعان ما تلمع ثم تذبل وتزول .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله « أزواجا منهم » أى : أصنافا من الكفرة . وهو مفعول « متعنا » قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به . . . وقيل الخطاب له - صلى الله عليه وسلم - والمراد أمته ، لأنه كان أبعد الناس عن إطالة النظر إليها ، وهو القائل : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ما أريد به وجه الله - تعالى - » وكان - صلى الله عليه وسلم - شديد النهى عن الاغترار بها .

ويؤخذ من الآية أن النظر الغير الممدود معفو منه ، وكأن المنهى عنه فى الحقيقة هو الإعجاب بذلك ، والرغبة فيه ، والميل إليه .

وقوله « زهرة الحياة الدنيا » أى : زينتها وبهجتها . وهو منصوب بمحذوف يدل عليه « متعنا » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣١٩

أى: جعلنا لهم زهرة، أو على أنه مفعول ثان، بتضمين متعنا معنى أعطينا، فأزواجا مفعول أول. وزهرة هو المفعول الثانى ....»[١].

وقوله «لنفتنهم فيه» بيان للحكمة من هذا التمتيع والعطاء أى متعنا هؤلاء الكافرين بالأموال والأولاد ... لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم بهذا المتاع، فإذا آمنوا وشكروا زدناهم من خيرنا، وإذا استمروا فى طغيانهم وجحودهم، وكفرهم، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

فالجملة الكريمة تنفر العقلاء من التطلع إلى ما بين أيدى الكفار من متاع، لأن هذا المتاع سىء العاقبة، إذا لم يستعمل فى طاعة الله - تعالى -.

وقوله - سبحانه -: «ورزق ربك خير وأبقى» تذييل قصد به الترغيب فيما عند الله - تعالى - من طيبات.

أى: وما رزقك الله إياه - أيها الرسول الكريم - فى هذه الدنيا من طيبات وما أدخر لك فى الآخرة من حسنات، خير وأبقى مما متع به هؤلاء الكافرين من متاع زائل سيحاسبهم الله - تعالى - عليه يوم القيامة حسابا عسيرا، لأنهم لم يقابلوا أنعم الله عليهم بالشكر، بل قابلوها بالجحود والكفران.

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها، لكى يحيا حياة فاضلة طيبة، حياة يعتز فيها صاحبها بالمعانى الشريفة الباقية، ويعرض عن المظاهر والزخارف الزائلة.

ثم كلف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر أهل بيته بالمداومة على إقامة الصلاة فقال: «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها».

والمراد بأهل بيته - صلى الله عليه وسلم -: أزواجه وبناته؟ وقيل: ما يشملهم ويشمل معهم جميع المؤمنين من بنى هاشم. وقيل المراد بهم: جميع أتباعه من أمته.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص٢٨٣.

أى : وأمر - أيها الرسول الكريم - أهل بيتك بالمداومة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص واطمئنان ، واصطبر على تكاليفها ومشاقها ، وعلى إقامتها كاملة غير منقوصة ، وعلى تحقيق آثارها الطيبة فى نفسك .

وقد ساق بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآية أحاديث منها ما أخرجه البيهقى عن عبد الله بن سلام قال : كان للنبى - صلى الله عليه وسلم - إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية : « وأمر أهلك بالصلاة .... » .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل ما شاء الله - تعالى - أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاة الصلاة ويتلو هذه الآية ... »[1] .

وقوله - سبحانه - « لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » تشجيع وتحريض للمؤمنين على إقامة الصلاة ، ودفع لما يتوهمه البعض من أن المداومة على إقامة الصلاة قد تشغل الإنسان عن السعى فى طلب المعاش .

أى : مر - أيها الرسول الكريم - أهلك بالمداومة على الصلاة ، واصطبر على تكاليفها ، فهذه الصلاة هى من أركان العبادات التى خلقك الله وخلق عباده من أجلها ، ولا يصح أن يشغلكم عنها أى شاغل من سعى فى طلب الرزق أو غيره ، فنحن لا نكلفكم أن ترزقوا أنفسكم أو غيركم ، وإنما نحن الذين نرزقكم ونرزق الخلق جميعا قال - تعالى - : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ... »

وقال - سبحانه - : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٨٥ .

وقوله « والعاقبة للتقوى » أى : والعاقبة الحميدة لأهل التقوى والخشية من الله - تعالى - الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ...

روى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الله - تعالى - : « يابن آدم . تفرغ لعبادتى املأ صدرك غنى، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك » .

وروى ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كانت الآخرة نيته ، جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بإيراد بعض الشبهات التى أثارها المشركون حول النبى - صلى الله عليه وسلم - ورد عليها بما يبطلها فقال - تعالى - :

« وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) » .

ومرادهم بالآية فى قوله - سبحانه - : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه » معجزة حسية من المعجزات التى اقترحوها عليه - صلى الله عليه وسلم - كتفجير الأنهار حول مكة ، وكرقيه إلى السماء ، وكنزول الملائكة معه ...

أى : وقال الكافرون على سبيل التعنت والعناد للرسول - صلى الله عليه وسلم - هلا أتيت لنا يا محمد بآية من الآيات التى طلبناها منك ، أو بآية من

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٠٢ .

الآيات التى أتى بها الأنبياء من قبلك ، كالعصا بالنسبة لموسى ، والناقة بالنسبة لصالح .

فهم - كما يقول الآلوسى - : «بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال ، من قبيل الآيات ، حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء» .

وقوله - سبحانه - : «أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى» رد على جهالاتهم وجحودهم .

والمراد بالبينة القرآن الكريم الذى هو أم الآيات ، ورأس المعجزات.

والمراد بالصحف الأولى : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور .

والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والاستفهام لتقرير الإتيان وثبوته .

والمعنى : أجهلوا ولم يكفهم اشتمال القرآن الذى جئت به - أيها الرسول الكريم - على بيان ما فى الصحف الأولى التى أنزلناها على الرسل السابقين ، ولم يكفهم ذلك فى كونه معجزة حتى طلبوا غيرها ؟

قال صاحب الكشاف : «اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة، فقيل لهم : أو لم تأتكم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز ، يعنى القرآن ، من جهة أن القرآن برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ، ودليل صحته لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة ...»(١) .

وقال ابن كثير : قوله : «أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى» يعنى : القرآن العظيم ، الذى أنزله الله - تعالى عليه - صلى الله عليه وسلم - ، وقد جاء

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٩٩

فيه أخبار الأولين بما كان منهم فى سالف الدهور ، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها . . . وهذه الآية كقوله - تعالى - : «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» .

وفى الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر. وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى . وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[1] .

ومنهم من يرى أن المراد بالبينة : الكتب السماوية السابقة .

فيكون المعنى : أو لم يكف هؤلاء الجاهلين أن الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل قد بشرت بك . وبينت نعوتك وصفاتك ، وهم معترفون بصدقها ، فكيف لا يقرون بنبوتك .

قال القرطبي: «قوله : «أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى» يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب المتقدمة من البشارة ...»[2].

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة شهادة من الله - تعالى - بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغه عنه ، ورد مبطل لشبهات الكافرين ولأقوالهم الباطلة ، وإن كان تفسير البينة هنا بالقرآن أظهر وأوضح .

وقوله - تعالى - : «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى» ، كلام مستأنف لتقرير ما قبله من أن القرآن الكريم هو معجزة المعجزات ، وآية الآيات . وأرفعها وأنفعها .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٢٣

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢٦٤

أى : ولو أنا أهلكنا هؤلاء الكافرين بعذاب الاستئصال ، من قبل مجىء الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم ومعه هذا القرآن الكريم معجزة له ، لقالوا على سبيل الاعتذار يوم القيامة : ياربنا هلا أرسلت إلينا فى الدنيا رسولا من عندك ومعه المعجزات التى تدل على صدقه ، فكنا فى هذه الحالة اتبعنا آياتك التى جاءنا بها وصدقناه وآمنا به ، من قبل أن يحصل لنا الذل والهوان والخزى والافتضاح فى الآخرة .

والمقصود من الآية الكريمة قطع أعذارهم ، أى : لو أنا أهلكناهم قبل ذلك ، لقالوا ما قالوا ، ولكنا لم نهلكهم بل أرسلنا إليهم رسولنا ، فبلغهم ما أرسلنا به ، فانقطع عذرهم ، وبطلت حجتهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين »(١) .

ثم ختم - سبحانه السورة الكريمة بهذه الآية التى أمر فيها رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يهددهم بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى طغيانهم يعمهون ، فقال - تعالى - : « قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين : كل واحد منا ومنكم متربص بالآخر ، ومنتظر لما يؤول إليه أمر صاحبه .

وما دام الأمر كذلك ، فتربصوا ، وانتظروا مايؤول إليه حالنا وحالكم « فستعلمون » بعد زمن قريب .

« من » هم « أصحاب الصراط السوى » أى : الطريق الواضح المستقيم الذى لا اعوجاج فيه و« من » هم الذين تجنبوا الضلالة ، واهتدوا إلى مايسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم .

(١) سورة القصص الآية ٤٧ .

وقريب من هذه الآية فى المعنى قوله ـ تعالى ـ « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر »[١] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا »[٢] .

* * *

وبعد فهذه سورة طه ، وهذا تفسير تحليلى لها ، وكما أنها قد افتتحت بنفى إرادة الشقاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقد اختتمت بهذه البشارة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأتباعه ، وبهذه التهديد لأعدائهم ...

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا وبهجة صدورنا ، وشفيعنا يوم الدين « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د / محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

(١) سورة القمر آية ٢٦ (٢) سورة الفرقان آية ٤٢

فهرس إجمالى لتفسير « سورة طـه »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة	١٠١
١	طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ...	١٠٦
٩	وهل أتاك حديث موسى ...	١١١
١٧	وما تلك بيمينك ياموسى ...	١١٨
٣٦	قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ...	١٢٥
٤٢	اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى ...	١٣٢
٤٩	قال فمن ربكما ياموسى ...	١٣٩
٦١	قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا . . .	١٥١
٧١	قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ...	١٥٩
٧٧	ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ...	١٦٤
٨٣	وما أعجلك عن قومك ياموسى ...	١٦٩
٩٠	ولقد قال لهم هارون من قبل . .	١٧٦
٩٢	قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ...	١٧٨
٩٥	قال فما خطبك ياسامرى ...	١٨٠
٩٩	كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق ...	١٨٦
١٠٥	ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ...	١٩٠
١١٣	وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ...	١٩٦
١١٥	ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ...	١٩٨
١٢٤	ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ...	٢٠٦
١٣٠	فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك ...	٢١٠
١٣٣	وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ...	٢١٥

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الأنبياء

دكتور
محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

الجزء السابع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة (الأنبياء) وأسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وشفيعا لنا يوم نلقاه . (يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾

صدق الله العظيم

تمهيد بين يدى السورة

١ - سورة الأنبياء، من السور المكية. وعدد آياتها اثنتا عشرة ومائة عند الكوفيين.

وعند غيرهم إحدى عشرة آية ومائة. وكان نزولها بعد سورة إبراهيم.

قال الآلوسى: وهى سورة عظيمة، فيها موعظة فخيمة، فقد أخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية، وابن عساكر، عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرمه عامر، وكلم فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءه الرجل فقال: إنى استقطعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واديا ما فى العرب واد أفضل منه. وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك.

فقال عامر: لا حاجة لى فى ذلك، فقد نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا.

ثم قرأ: «اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون...»[1].

٢ - وعندما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل، نراها فى مطلعها تسوق لنا ما يهز القلوب، ويحملها على الاستعداد لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح، ويزجرها عن الغفلة والإعراض.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٢

قال - تعالى - : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ... » .

٣ - ثم تحكى السورة بعد ذلك ألوانا من الشبهات التى أثارها المشركون حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحول دعـــوته ، وردت عليهم بما يبطل شبهاتهم وأقوالهم ، فقال - تعالى - : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » .

« ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ... » .

٤ - ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك أدلة متعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى شمول قدرته ، منها قوله - عز وجل - : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ... » .

وقوله - سبحانه - : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ... » .

٥ - وبعد أن ذكرت السورة ألوانا من نعم الله على خلقه ، وحكت جانبا من تصرفات المشركين السيئة مع النبى - صلى الله عليه وسلم - أتبعت ذلك بتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما قالوه فى شأنه .

قال - تعالى - : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .

٦ - ثم عرضت السورة الكريمة جانبا من قصص بعض الأنبياء ، تارة

على سبيل الإجمال ، وتارة بشيء من التفصيل ، فتحدثت عن موسى وهارون، وعن إبراهيم ولوط ، وعن إسحاق ويعقوب ، وعن نوح وأيوب ، وعن داود وسليمان ، وعن إسماعيل وإدريس ، وعن يونس وزكريا .

وفي نهاية حديثها عنهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عقبت بالمقصود الأساسي من رسالتهم ، وهو دعوة الناس جميعا إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، وأنهم جميعا قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها ، فقال ـ تعالى ـ : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

٧ — ثم تحدثت في أواخرها عن أشراط الساعة ، وعن أهوالها ، وعن أحوال الناس فيها ...

قال ـ تعالى ـ : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ، ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ... » .

٨ — ثم ختم ـ سبحانه ـ سورة الأنبياء بالحديث عن سنة من سننه التي لا تتخلف ، وعن رسالة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن موقفه من أعدائه، فقال ـ تعالى ـ :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون . فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وإن أدري أقريب أم بعيد ماتوعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون . وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » .

وبعد : فهذا عرض إجمالى لسورة الأنبياء ، ومنه نرى أنها قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق ...

كما حكت شبهات المشركين وردت عليها بما يبطلها ، كما ساقت نماذج متعددة من قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

* * *

قال الله تعالى: « اقتربَ للنَّاسِ حِسابُهم وهُم فى غفلةٍ مُعرِضُون(١) ما يأْتِيهم من ذِكْرٍ مِنْ ربِّهم مُحْدَثٍ إلاَّ استمعُوهُ وهُم يلعَبُونَ (٢) لاهيةً قلوبُهم وأَسَرُّوا النَّجْوى الذين ظلمُوا هَل هذَا إلا بشرٌ مِثلُكم أفتأتُونَ السِّحر وأنتم تُبصِرُونَ (٣) قالَ ربِّى يعلَمُ القولَ فى السَّماء والأرضِ وهُو السميعُ العليمُ (٤) بلْ قالُوا أَضغاثُ أحلامٍ بل افتَراهُ بلْ هُو شاعرٌ فليأْتِنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأوَّلُونَ (٥) ما آمنتْ قبلَهُم من قريةٍ أهلكْناهَا أفهُم يؤمِنُونَ (٦) ».

وقوله ـ سبحانه ـ : « اقترب » من القرب الذى هو ضد البعد .

والمعنى : قرب الزمن الذى يحاسب فيه الناس على أعمالهم فى الدنيا ، والحال أن الكافرين منهم فى غفلة تامة عن هذا الحساب، وفى إعراض مستمر عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .

قال الإمام ابن كثير : هذا تنبيه من الله ـ عز وجل ـ على إقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس فى غفلة عنها ، أى لا يعملون لها ، ولا يستعدون من أجلها .

قال ـ تعالى ـ : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... » وقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر »[1] .

وعبر سبحانه ـ بالقرب مع أنه قد مضى على نزول هذه الآية وأمثالها أكثر من أربعة عشر قرنا، لأن كل آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٢٤ .

قريب الوقوع ، ولأن ذلك الوقت وإن كان كبيرا في عرف الناس ، إلا أنه عند الله - تعالى - قليل ، كما قال - سبحانه - : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »(١) .

وقال - تعالى - : « إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا »(٢) .

وقال - سبحانه - : « اقترب للناس . . . » بلفظ العموم ، مع أن ما بعده من ألفاظ الغفلة والإعراض يشعر بأن المراد بهم الكافرون ، للتنبيه على أن الحساب سيشمل الجميع ، إلا أنه بالنسبة للكافرين سيكون حسابا عسيرا .

قال صاحب الكشاف : « وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء للمحسن والمسيء . وإذا قرعت لهم العصا . ونبهوا عن سنة الغفلة ، وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا »(٣) .

وفي التعبير عن اقتراب يوم القيامة باقتراب الحساب ، زيادة في الترهيب والتخويف . وفي الحض على الاستعداد لهذا اليوم ، لأنه يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا حسابا دقيقا . ولن تملك فيه نفس لنفس شيئا ، وإنما يجازى فيه كل إنسان بحسب عمله .

وقوله - سبحانه - : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » ، بيان لمواقف هؤلاء الغافلين اللاهين عن يذكرهم بأهوال ذلك اليوم .

والمراد بالذكر : ما ينزل من آيات القرآن عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد بالمحدث : الحديث العهد بالنزول على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو صفة لذكر .

---

(١) سورة الحج الآية ٤٧ (٢) سورة المعارج الآية ٦ ، ٧
(٣) تفسير الكشاف جـ٣ ص ١٠١

أى : أن هؤلاء الغافلين المعرضين عن الاستعداد ليوم الحساب ، لا يصل إلى أسماعهم شىء من القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - على قلب نبيه - صلى الله عليه وسلم - آية فآية ، أو سورة بعد سورة فى أوقات متقاربة ، إلا استمعوا إلى هذا القرآن المحدث تنزيله على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم يلعبون ، دون أن يحرك منهم عاطفة نحو الإيمان به ، فهم لانطماس بصيرتهم ، وقسوة قلوبهم ، وجحود نفوسهم للحق ، لا يتعظون ولا يعتبرون .

وقوله : « ما يأتيهم من ذكر . . . » يشعر بأن مانزل من قرآن قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم فى الحصول عليه ، بل أتاهم وهم فى أماكنهم بدون سعى إليه .

وقوله « ذكر » فاعل و « من » مزيدة للتأكيد .

وقوله « من ربهم » متعلق بمحذوف صفة لذكر ، و « من » لابتداء الغاية أى : ما يأتيهم من ذكر كائن من ربهم وخالقهم ورازقهم ، فى حال من الأحوال ، إلا استمعوه وهم هازلون مستهترون .

وقوله : « لاهية قلوبهم » حال أخرى من أحوالهم الغريبة التى تدل على نهاية طغيانهم وفجورهم ، لأنهم بجانب إستماعهم إلى ماينزل من القرآن بلعب وغفلة ، تستقبله قلوبهم - التى هى محل التدبر والتفكر - بلهو واستخفاف .

ثم حكى - سبحانه - لونا من ألوان مكرهم وخبثهم فقال : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » والنجوى : المسارة بالحديث ، وإخفاؤه عن الناس .

أى : بعد أن استمعوا إلى القرآن بإعراض ولهو واستهتار ، اختلى بعضهم ببعض ، وبالغوا فى إخفاء مايضمرونه من سوء نحو النبى - صلى الله عليه وسلم - ونحو ما جاء به من عند الله - تعالى - ، وحاولوا أن يظهروا ذلك فيما بينهم فحسب ، مبالغة منهم فى المكر السيىء الذى حاق بهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : «هل هذا إلا بشر مثلكم، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون» بيان لما قالوه فى تناجيهم من سوء.

والاستفهام للنفى والانكار.

أى: أنهم قالوا فى تناجيهم: ماهذا الذى يدعى النبوة، وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا بشر مثلكم، ولا يمكن أن يكون رسولا، وماجاء نابه إنما هو السحر بعينه، فكيف تذهبون إليه، وتقبلون منه مايدعيه، والحال أنكم تعاينون بأبصاركم سحره.

وما حملهم على هذا القول الباطل إلا توهمهم أن لا يكون من البشر، وأن كل مايظهر على يد مدعى النبوة من البشر من خوارق، إنما هو قبيل السحر.

قال الآلوسى: «وأرادوا بقولهم: «ما هذا إلا بشر مثلكم» أى: من جنسكم، وما أتى به سحر، تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر. قالوا ذلك بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر. وعنوا بالسحر. هنا القرآن الكريم. ففى ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه، قاتلهم الله ـ تعالى ـ أنى يؤفكون. وإنما أسروا ذلك، لأنه كان على طريق توثيق العهد، وترتيب مبادىء الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة. وإطفاء نور الدين، يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون..»(١)

هذا، ودعوى المشركين أن الرسول لا يكون بشرا، قد حكاها القرآن فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا»(٢).

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ٩.
(٢) سورة الإسراء الآية ٩١

وقد رد الله - تعالى - عليهم هذه الدعوى الكاذبة فى كثير من آيات كتابه - أيضا - ، ومن ذلك قوله عز وجل - : « وما أرسلناك من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى .... »(1) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما لقنه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - من الرد عليهم ، فقال : « قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم » .

أى : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الرد على ما تناجوا به سرا : ربى الذى أرسلنى لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . يعلم ما تقولونه سواء أكان سرا أم جهرا ، وسواء أكان القائل موجودا فى السماء أم فى الأرض ، وهو وحده السميع لجميع ما يسمع ، العليم بكل شىء فى هذا الكون .

وما دام الأمر كذلك فأنا سأمضى فى طريق مبلغا رسالته - سبحانه - ، أما أنتم فسترون سوء عاقبتكم إذا ما سرتم فى طريق الكفر والعناد .

وفى قراءة سبعية بلفظ « قل » على الأمر للنبى - صلى الله عليه وسلم - .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم .

وقوله - تعالى - : « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » أضراب من جهته - تعالى - ، وانتقال من حكاية قولهم السابق « هل هذا إلا بشر مثلكم ... » إلى حكاية أقوال أخرى باطلة قالوها فى شأنه - صلى الله عليه وسلم - وفى شأن ما جاء به .

أى : ان هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بما قالوه قبل ذلك فى شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أنه بشر وما جاء به سحر ، بل أضافوا إلى ذلك

(1) سورة يوسف الآية ١٠٩ .

أن القرآن أضغاث أحلام . أى : أخلاط كأخلاط الأحلام ، وأنه أباطيل لا حقيقة لها.

والأضغاث : جمع ضغث . وأصله ما جمع من أنواع شتى من النبات ثم حزم فى حزمة واحدة.

والأحلام : جمع حلم - بضم الحاء وسكون اللام - وهو ما يراه النائم مما ليس بحسن .

وقد استعير هذا التركيب لما يراه النائم من وساوس وأحلام خلال نومه « بل افتراه » أى : اختلق هذا القرآن من عند نفسه .

« بل هو شاعر » أى: أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاعر - فى زعمهم - وما أتى به هو نوع من الشعر التخييلى الذى لا حقيقة له .

ثم أضافوا إلى هذا التخطيط واضطراب قولهم : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » .

ومرادهم بالآية هنا :آية كونية . والجملة جواب لشرط محذوف يفصح عنه السياق ، والتقدير : إن لم يكن كما قلنا فى شأنه من أنه شاعر بل كان رسولا حقا . فليأتنا بخارق يدل على صدقه كناقة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى للأموات . . . فإن المرسلين السابقين فعلوا ذلك .

وكأنهم - لانطماس بصائرهم وشدة جهالاتهم - لا يعتبرون القرآن الذى هو آية الآيات - لا يعتبرونه آية ومعجزة تدل على صدقه - صلى الله عليه وسلم - .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد صورت تخبط هؤلاء المشركين تصويراً حكيما ، شأنهم فى ذلك شأن الحائر المضطرب الذى لا يستطيع الثبات على قرار ، بل هو لتمحله وتعلله ينتقل من دعوى باطلة إلى أخرى أشد منها بطلانا . . .

وقد نفى القرآن عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل هذه الدعاوى الباطلة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين .. »(١).

وقوله - سبحانه - « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين »(٢) .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بهؤلاء الذين أرسل إليهم رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون » .

أى : أن هؤلاء الجاهلين من قومك - أيها الرسول الكريم - قد طلبوا منك آية كونية كالتى جاء بها موسى وعيسى وصالح . . وهذه الخوارق عندما جاء بها هؤلاء الرسل ولم يؤمن بها أقوامهم أهلكنا هؤلاء الأقوام . وفقا لسنتنا التى لا تتخلف فى إهلاك من يكذبون بآياتنا . ولو أنا أعطيناك هذه الخوارق ولم يؤمن بها قومك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين ، لذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نمنع عنهم ماطلبوه ، لأنهم بشر كالسابقين . وما دام السابقون لم يؤمنوا بهذه الخوارق فهؤلاء أيضاً لن يؤمنوا بها .

فالاستفهام فى قوله : « أفهم يؤمنون » للإنكار . أى : أن هؤلاء الكافرين من أمتك - أيها الرسول الكريم - لن يؤمنوا بهذه الخوارق التى طلبوها متى جاءتهم لأنهم لا يقلون عتوا وعنادا عن السابقين الذين لم يؤمنوا بها فأهلكهم الله .

وصدق الله إذ يقول : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم »(٣) .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤١ - ٤٣
(٢) سورة يس الآية ٦٩ ، ٧٠
(٣) سورة يونس الآية ٩١ ، ٩٧

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يكون جميع الرسل من البشر وأن يعيشوا الحياة التى تقتضيها الطبيعة البشرية ، وأن يؤيدهم الله - تعالى - بالمعجزات الدالة على صدقهم ، فقال - تعالى - :

« وما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وما كانُوا خالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) » .

أى : وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول الكريم - إلى الأمم السابقة إلا رسلا من البشر ، ليعيشوا حياة البشر ، ويتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم ، ولو كان الرسل من غير البشر لما كانت هناك وشيجة ورابطة بينهم وبين أقوامهم .

وهذه الجملة رد مفحم على المشركين الجاهلين الذين استبعدوا أن يكون الرسول بشرا وقالوا قبل ذلك : « ما هذا إلا بشر مثلكم ... » .

وقوله - تعالى - « نوحى إليهم » استئناف مبين لكيفية الإرسال .

أى : اقتضت حكمتنا أن يكون الرسل من الرجال ، وأن نبلغهم ما نكلفهم به عن طريق الوحى المنزل إليهم من جهتنا . .

وقوله - سبحانه - : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » توبيخ لهم وتجهيل ، لأنهم قالوا ما قالوا بدون تعقل أو تدبر .

والمراد بأهل الذكر : علماء أهل الكتاب الذين كان المشركون يرجعون إليهم فى أمور دينهم .

والفاء فى قوله : « فاسألوا . . . » لترتيب ما بعدها على ما قبلها . وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه .

أي : مادامت قد بلغت بكم الجهالة أن تستبعدوا أن يكون الرسول بشرا . فاسألوا أهل العلم فى ذلك ، فسيبينون لكم أن الرسول السابقين لم يكونوا إلا رجالا .

قال القرطبي: «قوله - تعالى - : «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»، يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وسماهم أهل الذكر ، لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء ، مما لم تعرفه العرب ، وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقال ابن زيد : أراد بالذكر: القرآن . أي: فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ... »[1] .

ثم أكد - سبحانه - هـــذه الحقيقة وهى كون الرسل من البشر فقال : «وما جعلناهم جسدا لا يأكون الطعام وما كانوا خالدين» .

والضمير فى «جعلناهم» يعود إلى الرسل ، والجسد مصدر جسد الدم يجسد - من باب فرح - إذا التصق بغيره ، وأطلق على الجسم جسد ، لالتصاق أجزائه بعضها ببعض ، ويطلق هذا اللفظ على الواحد المذكر وغيره ولذلك أفرد ، أو هو أفرد لإرادة الجنس .

أي : وما جعلنا الرسل السابقين عليك يا محمد أجسادا لا تأكل ولا تشرب كالملائكة وإنما جعلناهم مثلك يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعتريهم ما يعترى البشر من سرور وحزن ، ويقظة ونوم . . . وغير ذلك مما يحسه البشر .

وما جعلناهم - أيضا - خالدين فى هذه الحياة بدون موت ، وإنما جعلنا لأعمارهم أجلا محددا تنتهى حياتهم عنده بدون تأخير أو تقديم

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٧٢

قال - تعالى - : « إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون »(١).

وقوله - سبحانه - : « ثم صدقناهم الوعد . . . » بيان لسنة الله - تعالى - الجارية مع رسله - عليهم الصلاة والسلام - .

أي : ثم صدقنا هؤلاء الرسل ما وعدناهم به من جعل العاقبة لهم « فأنجيناهم » من العـــذاب الذي أنزلناه بأعدائهم ، وأنجينا معهم « من نشاء » إنجاءهم من المؤمنين بهم . . .

« وأهلكنا المسرفين » الذين تجاوزوا الحدود في كفرهم وتطاولهم على الرسل الكرام ، وإعراضهم عن دعوتهم .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، قد أنذرت الناس باقتراب يوم الحساب ، وحذرتهم من الغفلة عنه ، ومن الإعراض عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ، وحكت ماقاله المشركون من تهم باطلة تتعلق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به من عنـــد ربه - تعالى - وردت عليها بما يزهقها ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

ثم بين - سبحانه - أن ما أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - هو خير الآيات وأخلدها وأشرفها ، وأن يشرف الأمة التي تنتسب إليه ، وأن الأمم السابقة التي كذبت بالخوارق والمعجزات التي جاء بها الرسل - عليهم السلام - أهلكها الله - تعالى - هلاك استئصال ، فقال - تعالى - :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا

---

(١) سورة الزمر الآية ٣٠ ، ٣١

أحسُّوا بأسَنا إذا هُم منها يرْكُضُونَ (١٢) لا تركُضُوا وارجِعُوا إلى ما أُترِفتُم فيه ومَساكِنِكُم لعلكُم تُسألُونَ (١٣) قالوا يا وَيلَنا إنّا كنّا ظالمِينَ (١٤) فما زالَتْ تِلكَ دعواهُم حتَّى جعلناهُم حَصِيداً خامِدِينَ (١٥)».

قال الآلوسى : « قوله - تعالى - : « لقد أنزلنا إليكم كتابا ... » كلام مستأنف لتحقيق حقية القرآن العظيم ، الذى ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته ، واستهزاؤهم به ، واضطرابهم فى أمره ، وبيان علو مرتبته ، إثر تحقيق رسالته - صلى الله عليه وسلم - وبيان أنه كسائر الرسل الكرام ، وقد صدر الكلام بالتوكيد القسمى ، إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانا ، بأن المخاطبين فى أقصى مراتب النكير والخطاب لقريش . وجوز أن يكون لجميع العرب ...»[1].

والمعنى : لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب عن طريق رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - كتابا عظيم الشأن ، نير البرهان ، مشتملا على ما يسعدكم وهذا الكتاب « فيه ذكركم » أى : فيه شرفكم ، وعلو منزلتكم ، وحسن موعظتكم ، وشفاء صدوركم ...

« أفلا تعقلون » ذلك ، مع أن هذا الأمر واضح ، ولا يحتاج إلى جدال أو مناقشة .

فالاستفهام لإنكار عدم تدبرهم فى شأن هذا الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - ليظفروا بسببه بالذكر الجميل ، وبالموعظة الحسنة ، كما قال - تعالى - « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »[2] .

وأن من مظاهر كون القرآن الكريم فيه ذكر العرب وشرفهم ، أنه نزل

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص١٤ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

بلغتهم ، وأنه المعجزة الباقية الخالدة بخلاف غيره من المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها الرسل السابقين ، وأنه الكتاب الذى قادوا به البشرية قرونا طويلة . عندما حملوه إلى الناس ، فقرءوه عليهم ، وشرحوا لهم أحكامه وآدابه وتشريعاته . . . وما أصيب العرب فى دينهم ودنياهم إلا يوم أن تخلوا عن العمل بهدايات هذا الكتاب ، وقصروا فى تبليغه إلى الناس . . .

ثم بين - سبحانه - ما أنزله بالقوم الظالمين فقال : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين » .

و « كم » هنا خبرية مفيدة للتكثير ، وهى فى محل نصب على أنها مفعول مقدم « لقصمنا » .

وأصل القصم : كسر الشىء حتى ينقطع وينفصل عن غيره . يقال : قصم فلان ظهر فلان ، إذا كسره حتى النهاية ، بخلاف الفصم فهو صدع الشىء من غير قطع وانفصال .

قال القرطبى : « والقصم : الكسر ، يقال : قصمت ظهر فلان ، وانقصمت سنه ، إذا انكسرت .

والمعنى ها هنا به الإهلاك . وأما الفصم - بالفاء - فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة »[1] .

أى : وكثيرا من القرى الظالمة، التى تجاوز أهلها حدود الحق، ومردوا على الكفر والضلال ، أبدناها مع أهلها ، وعذبناها عذابا نكرا ، بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين ليسوا مثلهم .

وأوقع - سبحانه - فعل القصم على القرى ، للإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها . فالكل قد دمره - سبحانه - تدميراً .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٧٤ .

أما عند الإنشاء فقد أوقع الفعل على القوم فقال : « وأنشأنا بعدها قوما آخرين » للإيماء إلى أن هؤلاء القوم الآخرين، الذين لم يكونوا أمثال السابقين، هم الذين ينشئون القرى ويعمرونها .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً »(١) .

ثم صور ـ سبحانه ـ حال هؤلاء الظالمين عندما أحسوا بالعذاب وهو نازل بهم فقال : « فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون » .

وقوله : « أحسوا » من الإحساس . وهو إدراك الشيء بالحاسة . يقال: أحس فلان الشيء ، إذا علمه بالحس وشعر به بحاسته .

وقوله : « يركضون » من الركض، وهو السير السريع، وأصله : أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجرى لتسرع فى المشى . والمقصود به هنا : الهروب بسرعة .

أى . فلما أحس هؤلاء الظالمون عذابنا المدمر ، وأيقنوا نزوله بهم ، وعلموا ذلك علما مؤكدا ، إذا هم يخرجون من قريتهم «يركضون» أى: يهربون بسرعة وذعر، حتى لكأنهم من اضطرابهم وخوفهم يظنون أن ذلك سينجيهم .

وإذا هنا فجائية . والجملة بعدها جواب « لما » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم » حكاية لما تقوله لهم الملائكة ـ وهم يركضون هربا ـ على سبيل التهكم والاستهزاء .

أى : يقال لهم من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين، لا تركضوا فارين

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٧ .

« وارجعوا إلى » قريتكم وإلى « ما أترفتم فيه » أى : وإلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء . والخير الوفير ، الذى أبطركم وجعلكم تجحدون النعم ، ولم تستعملوها فيما خلقت له .

فقوله: «أترفتم» من الترفة - بالتاء المشددة مع الضم - وهى النعمة والطعام الطيب . يقال : ترف فلان - كفرح - إذا تنعم . وفلان أترفته النعمة ، إذا أطغته أو نعمته .

وقوله : « ومساكنكم » معطوف على « ما » .

أى : لا تهربوا وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء ، وإلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها ، وتتفاخرون بها .

« لعلكم تسألون » أى : يقصدكم غيركم لسؤالكم عما نزل بكم ، فتجيبوه عن علم ومشاهدة .

قال صاحب الكشاف : « قوله « لعلكم تسألون » تهكم بهم وتوبيخ . أى : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم . فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة .

أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم ، وترتبوا فى مراتبكم حتى يسألكم حشمكم وعبيدكم ، ومن تملكون أمره . وينفذ فيه أمركم ونهيكم ، ويقول لكم : بم تأمرون ؟ وبماذا ترسمون ؟

وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدمين .

أو يسألكم الناس فى أنديتكم . . . ويستشيرونكم فى المهمات . ويستضيئون بآرائكم .

أو يسألكم الوافدون عليكم ، ويستمطرون سحائب خيركم . . . قيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخا إلى توبيخ »(١) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٠٦ .

وهنا أدرك هؤلاء الظالمون ، أن الأمر جد لا هزل ، وأن العذاب نازل بهم لا محالة ، وأن القائلين لهم لا تركضوا .. إنما يتهكمون بهم. فأخذ أولئك الظالمون يتفجعون ويتحسرون قائلين : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين » .

والويل : الفضيحة والبلية والمصيبة التى يعقبها الهلاك . وهى كلمة جزع وتحسر .

وتستعمل عندما تحيط بالإنسان داهية عظيمة ، وكأن المتحسر لنزول مصيبة به ، ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من ينادى ...

أى : قالوا عندما تيقنوا أن الهلاك نازل بهم : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين للعذاب . بسبب إعراضنا عن الحق . وتكذيبنا لمن جاء به .

، واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « فما زالت تلك دعواهم » يعود إلى الكلمات التى قالوها على سبيل التحسر عند ما يئسوا من الخلاص والهرب ، وتأكدوا من الهلاك ، وهى قولهم : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين » .

أى : فما زالوا يرددون تلك الكلمات بتفجع وتحسر واستعطاف .

وسميت هذه الكلمات دعوى ، لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا : أيها الويل هذا أوانك فأقبل نحوى .

وقوله « حتى جعلناهم حصيدا خامدين » بيان لما آل إليه حالهم .

وخامدين : من الخمود بمعنى الهمود والانطفاء والانتهاء . يقال : خمدت النار تخمد خمدا وخمودا ، إذا سكن لهيبها ، وانطفاء شررها .

أى : فما زالت تلك كلماتهم حتى جعلناهم فى الهمود والهلاك كالنبات المحصود بالمناجل ، وكالنار الخامدة بعد اشتعالها .

وهكذا تكون عاقبة الظالمين . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على قدرته ووحدانيته، وعلى أن من في السموات والأرض لا يستكبرون عن عبادته - تعالى -، فقال - عز وجل -:

« وما خَلَقْنَـا السمواتِ والأرضَ وما بَيْنَهمـا لاعِبِينَ (١٦) لو أَرَدْنا أن نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخذناهُ مِنْ لَدُنَّا إنْ كُنَّا فاعِلِينَ (١٧) بلْ نَقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فَيدمَغُهُ فإذَا هُو زاهِقٌ، ولكُم الويلُ مما تصِفُـونَ (١٨) ولهُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، ومَنْ عِندَه لا يَستـكْبِرونَ عن عبادَتِه ولا يَستحسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهارَ لا يفتَرونَ (٢٠) ».

والمعنى: إننا لم نخلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله، لم نخلق ذلك عبثا. وإنما خلقناهذه المخلوقات بحكمتنا السامية، وقدرتنا النافذة، ومشيئتنا التي لا يقف في وجهها شيء.

وقوله - تعالى -: « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » استئناف مقرر لمضمون ما قبله، من أن خلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثا، وإنما لحكم بالغة، مستتبعة لغايات جليلة، ومنافع عظيمة.

و« لو » هنا حرف امتناع لامتناع. أي: امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط.

واللهو: الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، ولا يتناسب مع الجد، وهو قريب من العبث الباطل. تقول: لهوت بهذا الشيء ألهو لهـوا، إذا تشاغلت به عن الجد، ويطلقه بعضهم على الولد والزوجة والمرأة...

أي: لو أردنا - على سبيل الفرض والتقدير - أن نتخذ ما نتلهى به، لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا دون أن يمنعنا أحد عما نريده. ولكنا لم نرد ذلك لأنه مستحيل علينا إستحالة ذاتية، فيستحيل علينا أن نريده.

فالآية الكريمة من باب تعليق المحال على المحال ، لأن كلا الأمرين يتنافى مع حكمة الله - تعالى - ومع ذاته الجليلة .

وقوله : « إن كنا فاعلين » تأكيد لامتناع إرادة اللهو . و « إن » نافية . أى : ما كنا فاعلين ذلك ، لأن اتخاذ اللهو يستحيل علينا .

وقوله - سبحانه - : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » إضراب عن إرادة اتخاذ اللهو ، وإثبات لما تقتضيه ذاته - تعالى - عما يخالف ذلك .

والقذف : الرمى بسرعة . والاسم القذاف - ككتاب - ، وهو سرعة السير ، ومنه قولهم: ناقة قذاف - بكسر القاف - إذا كانت متقدمة على غيرها فى السير .

ويدمغه : أى : يمحقه ويزيله . قال القرطبى : وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ .

أى : ليس من شأننا أن نتخذ لهوا ، وإنما الذى من شأننا وحكمتنا ، أن نلقى بالحق الذى أرسلنا به رسلنا ، على الباطل الذى تشبث به الفاسقون « فيدمغه » أى : فيقهره ويهلكه ويزيله إزالة تامة .

والتعبير القرآنى البليغ ، يرسم هذه السنة الإلهية فى صورة حسية متحركة حتى لكأنما الحق قذيفة تنطلق بسرعة فتهوى على الباطل فتشق أم رأسه، فإذا هو زاهق زائل .

قال الآلوسى : « وفى إذا الفجائية ، والجملة الإسمية ، من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى ، فكأنه زاهق من الأصل »[1] .

وقوله - تعالى - : « ولكم الويل مما تصفون » وعيد شديد لأولئك

---

(١) تفسير الآلوسى ج١٧ ص ٢٠ .

الكافرين الذى نسبوا إلى الله - تعالى - ما لا يليق به، ووصفوه بأن له صاحبة وولدا «سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً» .

أى : ولكم - أيها الضالون المكذبون - الويل والهلاك ، من أجل وصفكم له - تعالى - بما لا يليق بشأنه الجليل .

وقوله - تعالى - : «وله من فى السموات والأرض ...» استئناف مؤكد لما قبله من أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته - تعالى - .

أى : وله وحده - سبحانه - جميع من فى السموات والأرض ، خلقا ، وملكا ، وتدبيرا ، وتصرفا . وإحياء ، وإماتة ، لا يخرج منهم أحد عن علمه وقدرته - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - نماذج من عباده الطائعين له ، بعد أن حكى أقوال أولئك الضالين ، فقال : «ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون» .

والاستحسار : الكلال والتعب . يقال : حسر البصر يحسر حسورا - من باب قعد - إذا تعب من طول النظر ، ومنه قوله - تعالى - : «ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير» أى : كليل متعب .

أى : ومن عنده من مخلوقاته وعلى رأسهم الملائكة المقربون، لا يستكبرون عن عبادته - سبحانه - بل يخضعون له خضوعا تاماً ، ولا يستحسرون، أى : ولا يكلون ولا يتعبون ...

بل هم «يسبحون» الله - تعالى - ويحمدونه ويكبرونه ، طوال الليل والنهار بدون فتور أو تراخ أو تقصير . يقال: فتر فلان عن الشىء يفتر فتورا، إذا سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، ويقال : فتر الماء - من باب قعد - إذا سكن حره فهو فاتر .

قالوا : وذلك لأن تسبيح الملائكة لله - تعالى - يجرى منهم مجرى التنفس

منا ، فهو سجية وطبيعة . وكما أن اشتغالنا لا يمنعنا من الكلام ، فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال .(١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أن من مخلوقاته من يقوم بتسبيحه وعبادته بدون انقطاع أو فتور ، أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وبإقامة الأدلة على وحدانيته ، واستحالة أن يكون هناك من يشاركه فى ألوهيته فقال - تعالى - :

« أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) » .

قال الإمام الرازى : « اعلم أن الكلام من أول السورة إلى هنا كان فى النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا ، وأما هذه الآيات فإنها فى بيان التوحيد ونفى الأضداد والأنداد . . . »(٢) .

والاستفهام فى قوله « أم اتخذوا . . . » للإنكار والتوبيخ . وقوله : « ينشرون » من النشر بمعنى الإحياء والبعث . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى إذا بعثهم بعد موتهم .

والمعنى : إن هؤلاء الضالين قد أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، فهل هذه الآلهة التى اتخذوها تستطيع أن تعيد الحياة إلى الأموات؟

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٢٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٩١ .

كلا إنها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم ، ومادام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهة لا تستطيع أن تفعل شيئا من ذلك أو من غيره ؟

إن اتخاذهم هذا لمن أكبر الأدلة وأوضحها على جهالاتهم وسفاهاتهم وسوء تفكيرهم .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر . وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ، لأنهم كانوا ينكرون البعث أصلا ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم ؟ قلت : الأمر كما ذكرت ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات . وفيه باب من التهكم بهم ، والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله ـ تعالى ـ لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة »[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ « من الأرض » متعلق باتخذوا ، و « من » ابتدائية ، أي : اتخذوها من أجزاء الأرض كالحجارة وما يشبهها ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للآلهة . أي : اتخذوا آلهة كائنة من الأرض . . وعلى كلا التقديرين ، فالمراد بهذا التعبير التحقير والتجهيل .

ثم ساق ـ سبحانه ـ دليلا عقليا مستمدا من واقع هذا الكون فقال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . . . » .

أي : لو كان في السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله ـ تعالى ـ ، تدبر أمرهما ، لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع ، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٠٩

وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم . . . فيختل النظام لهذا الكون ، ويضطرب الأمر ، ويعم الفساد فى هذا العالم .

ولما كان المشاهد غير ذلك إذ كل شيء فى هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق ـ دل الأمر على أن لهذا الكون كله ، إلها واحدا قادرا حكيما لا شريك له .

قال صاحب الكشاف : «والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا .

وفيه دلالة على أمرين : أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدا . الثانى : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله «إلا الله» .

فإن قلت : لم وجب الأمران؟ قلت : لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف .

قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : كان والله أعز على من دم ناظرى ، ولكن لا يجتمع فحلان فى شول ـ أى : فى عدد مع النياق ـ»[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : «فسبحان الله رب العرش عما يصفون» تنزيه لله ـ تعالى ـ عما قاله الجاهلون فى شأنه ـ عز وجل ـ .

أى : فتنزيها لله وتقديسا وتبرئة لذاته عن أن يكون له شريك فى ألوهيته ، وجل عما وصفه به الجاهلون .

وقوله ـ تعالى ـ : «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» تأكيد لوحدانيته وقدرته ـ سبحانه ـ أى : لا يسأله سائل ـ سبحانه ـ عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال ، وهداية وإضلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وإسعاد وإشقاء . . . . لأنه هو الرب المالك المتصرف فى شئون خلقه ، وهم يسألون

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٣١

يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده ، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فمنهم من اتبع الرسل فسعد وفاز ، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقى وهلك .

وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ دليلا عقليا على وحدانيته ، أتبعه بدليل آخر نقلى ، فقال ـ تعالى ـ : « أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ... »

قال الآلوسى ما ملخصه : « هذا إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة ، لخلوها من خصائصها التى من جملتها الإنشار . « إلى تبكيتهم ومطالبتهم بالبرهان على دعواهم الباطلة ، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد ، وبطلان الإشراك . . . »(١) .

أى : إن هؤلاء الكافرين قد أشركوا مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى فى العبادة ، بسبب جهلهم وعنادهم وجحودهم للحق ... قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل التبكيت والتوبيخ « هاتوا برهانكم » على أن مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى تستحق مشاركته فى العبادة والطاعة ؟ ولا شك أنهم لا برهان لهم على ذلك .

وقوله ـ تعالى ـ : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » زيادة فى تبكيتهم وفى إظهار عجزهم أى : هذا الوحى الإلهى الناطق بتوحيد الله ـ تعالى ـ موجود فى القرآن الكريم المشتمل على ذكر المعاصرين لى من أتباعى ، وموجود فى كتب الأنبياء السابقين ، كالتوراة التى أنزلها الله على موسى ، والإنجيل الذى أنزله على عيسى ، فمن أين أتيتم أنتم بهؤلاء الشركاء ، وكيف اتخذتموهم آلهة مع أنهم لا برهان عليهم لا من جهة العقل ولا من جهة النقل ؟

فاسم الإشارة « هذا » فى قوله : « هذا ذكر من معى » مبتدأ ، مشار به

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٢٠

إلى الوحي الإلهي ، وقد أخبر عنه - سبحانه - بخبرين - كما يقول الشيخ الجمل - : « فبالنظر للخبر الأول يراد به القرآن ، وبالنظر للخبر الثاني يراد به ما عداه من الكتب السماوية »(١) .

وقوله - تعالى - : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » إضراب من جهته - تعالى - عن مناقشتهم ومطالبتهم بالبرهان ، وانتقال من الأمر بتبكيتهم إلى الأمر بإهمالهم استصغارا لشأنهم .

أي : دعهم - أيها الرسول الكريم - في باطلهم يعمهون ، فإنهم قوم أكثرهم يجهلون الحق ، ولا يستطيعون التمييز بينه وبين الباطل . فهم لأجل ذلك منصرفون عن الهدى ، ومتجهون إلى الضلال ، ومن جهل شيئا عاداه ...

ثم بين - سبحانه - أن جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قد أمروا أقوامهم بإخلاص العبادة لله ، ونبذ الشرك والشركاء . فقال - تعالى - : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

أي : وما أرسلنا من قبلك من رسول يا محمد إلا وأفهمناه عن طريق وحينا أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا ، فعليه أن يأمر قومه بطاعتي وعبادتي والخضوع لي وحدي .

هذا ، والمتدبر لهذه الآيات الكريمة ، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية والنقلية على وجـــوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار . وعلى أن الذين يتخذون معه آلهة أخرى سفهاء جاهلون .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التي تفوه بها المشركون ، ورد عليهم ردا مفحما ، فقال - تعالى - :

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٢٤

لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وهُم بأمْرِهِ يعمَلُونَ (٢٧) يعلمُ ما بينَ أيديهم وما خَلْفهم ولا يَشْفعُون إلاَّ لمن ارتَضَى، وهُمْ من خَشْيتهِ مُشفِقونَ (٢٨) ومَن يقُل مِنْهم إنّي إلهٌ مِنْ دُونِه فذلكَ نجزيهِ جهنَّم كذلكَ نجزِي الظالمين (٢٩) » .

قال الآلوسي ما ملخصه : «قوله - تعالى - : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا » ، حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، وبيان تنزهه - سبحانه - عن ذلك ، إثر بيان تنزهه - جل وعلا - على الإطلاق . وهم حى من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ، ونقل الواحدى أن قريشا وبعض العرب قالوا ذلك.

والآية مشتملة على كل من نسب إليه ذلك كاليهود والنصارى . . »[1] .

أى : وقال المشركون الذين انطمست بصائرهم عن معرفة الحق «اتخذ الرحمن ولدا سبحانه» .

أى : تنزه وتقدس الله - تعالى - عن ذلك جل وعلا عما يقولونه علوا كبيرا .

وقوله : « بل عباد مكرمون » إضراب عما قالوه ، وإبطال له ، وثناء على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله .

وعباد : جمع عبد . والعبودية لله - تعالى - معناها : إظهار التذلل له - سبحانه - ، والخضوع لذاته .

ومُكرَم : اسم مفعول من أكرم . وإكرام الله - تعالى - لعبده معناه : إحسانه إليه وإنعامه عليه .

أى : لقد كذب هؤلاء المشركون فى زعمهم أن الملائكة بنات الله ، والحق أن الملائكة هم عباد مخلوقون له - تعالى - ، ومقربون إليه ومكرمون عنده ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٣٢ .

وقوله : « لا يسبقونه بالقول » أى : لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، ولا يقولون شيئا بدون إذنه ، كما هو شأن العبيد الطائعين لسيدهم .

وأصل الكلام : لا يسبق قولهم قوله - عز وجل - إلا أنه - سبحانه - أسند السبق إليهم ، تنزيلا لسبق قولهم لقوله ، منزلة سبقهم إياه ، للإشعار بمزيد طاعتهم وتنزيههم عن كل قول بغير إذنه - تعالى -

وقوله : « وهم بأمره يعملون » بيان لتبعيتهم له - تعالى - فى الأعمال إثر بيان تبعيتهم له - سبحانه - فى الأقوال .

أى : وهم بأمره وحده يعملون لا بأمر أحد سواه ، ولا بأمر أنفسهم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[1] .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر علمه الشامل ، وحكمه النافذ ، فقال: « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . . . » أى : يعلم - سبحانه - أحوالهم كلها صغيرها وكبيرها ، متقدمها ومتأخرها ، « ولا يشفعون » لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى الله - تعالى - شفاعتهم له .

« وهم من خشيته مشفقون » أى : وهم لخوفهم من الله ومن عقابه حذرون وجلون .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الملائكة فى هذه الآيات بجملة من الصفات الكريمة التى تدل على طاعتهم المطلقة لله - تعالى - وعلى إكرامه - سبحانه - لهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع كرامتهم عند الله - تعالى - لو ادعى أحد منهم - على سبيل الفرض - أنه إله ، لعاقبه الله عقابا شديدا ، فقال

(١) سورة التحريم آية ٦ .

ـ تعالى ـ : « ومن يقل منهم : إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين » .

أى : ومن يقل من الملائكة ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ « إنى إله من دونه » أى : من دون الله ـ عز وجل ـ « فذلك » الذى ادعى هذا الادعاء الكاذب « نجزيه جهنم » أى : نجعل جزاءه الإلقاء فى جهنم كسائر المجرمين الكاذبين ، ولا يغنى عنه ماسبق له من طاعة وتكريم « كذلك نجزى الظالمين » أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع نجزى كل ظالم يضع الأمور فى غير موضعها ، إذ أن حقوق الله ـ تعالى ـ لا يجوز لأحد ـ كائنا من كان ـ أن ينسبها لنفسه ، سواء أكان ملكا مقربا ، أم نبياً مرسلا .

وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ ألوانا من الأدلة الكونية الشاهدة بوحدانيته ، ومن الأدلة النقلية النافية للشركاء ، ومن الأدلة الوجدانية التى تهيج القلوب نحو الحق . . . أتبع ذلك بتحريض الكافرين على التدبر فى ملكوت السموات والأرض . لعل هذا التدبر يهديهم إلى الإيمان ، فقال ـ تعالى ـ :

« أَوَ لم يَرَ الذينَ كفَرُوا أن السَّمواتِ والأرضَ كانتاَ رَتْقاً فَفَتَقْنَاهما ، وجَعَلنـاَ من المـاء كلَّ شيء حَيّ أفلا يؤمِنُون (٣٠) وجعلنا فى الأرضِ رواسِيَ أنْ تميـدَ بهِم ، وجَعَلنا فيها فِجاجاً سُبُـلاً لعلَّهم يهتدُونَ (٣١) وجَعَلناَ السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتِها مُعْرِضونَ (٣٢) وهُو الذِى خلَق الليـلَ والنَّهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ فى فلَكٍ يَسْبحونَ (٣٣) » .

وقوله « رتقا » مصدر رتقه رتقا : إذا سده . يقال : رتق فلان الفتق رتقا ، إذا ضمه وسده ، وهو ضد الفتق الذى هو بمعنى الشق والفصل .

وللعلماء فى معنى هذه الآية أقوال أشهرها : أن معنى « كانتا رتقا » أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر ، وأن الأرض كانت لا يخرج منها نبات ،

ففتق الله ـ تعالى ـ السماء بأن جعل المطر ينزل منها ، وفتق الأرض بأن جعل النبات يخرج منها .

وهذا التفسير منسوب إلى ابن عباس ، فقد سئل عن ذلك فقال : كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق ـ سبحانه ـ للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات .. »[1]

ومنهم من يرى أن المعنى : كانت السموات والأرض متلاصقتين كالشىء الواحد ، ففتقهما الله ـ تعالى ـ بأن فصل بينهما ، فرفع السماء إلى مكانها ، وأبقى الأرض فى مقرها ، وفصل بينهما بالهواء . .

قال قتادة : قوله « كانتا رتقا » يعنى أنهما كانا شيئا واحداً ففصل الله بينهما بالهواء[2] .

ومنهم من يرى أن معنى « كانتا رتقا » أن السموات السبع كانت متلاصقة بعضها ببعض ففتقها الله ـ تعالى ـ بأن جعلها سبع سموات منفصلة ، والأرضون كانت كذلك رتقا ، ففصل الله ـ تعالى ـ بينها وجعلها سبعا .

قال مجاهد : كانت السموات طبقة واحدة مؤتلفة ، ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا »[3] .

وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ما ملخصه: كونهما « كانتا رتقا » بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر ، والأرض لا تنبت ، ففتق ـ سبحانه ـ السماء بالمطر والأرض بالنبات ، هو الراجح وتدل عليه قرائن من كتاب الله ـ تعالى ـ منها :

أن قوله ـ تعالى ـ : « أو لم ير الذين كفروا .. » يدل على أنهم رأوا ذلك

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٢
(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٨٣
(٣) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٨٣

لأن الأظهر فى رأى أنها بصرية ، والذى يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر ، والأرض لا نبات فيها . فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء ، وخروج النبات من الأرض .

ومنها : أنه ـ سبحانه ـ أتبع ذلك بقوله : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله . أى : وجعلنا من الماء الذى أنزلناه بفتقنا السماء وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض ، كل شىء حى .

ومنها : أن هذا المعنى جاء موضحا فى آيات أخرى ، كقوله ـ تعالى ـ : « والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع » والمراد بالرجع : نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى والمراد بالصدع : إنشقاق الأرض عن النبات . واختار هذا القول ابن جرير وابن عطيه والفخر الرازى . .

فإن قيل : هذا الوجه مرجوح ، لأن المطر لا ينزل من السموات ، بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا ؟

قلنا : إنما أطلق عليه لفظ الجمع ، لأن كل قطعة فيها سماء . كما يقال : ثوب أخلاق ـ أى : قطع ـ[1] .

والآية الكريمة مسوقة لتجهيل المشركين وتوبيخهم على كفرهم ، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، ويعلمون أن من كان كذلك ، لا يصح أن تترك عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه ، مما لا يضر ولا ينفع .

والمعنى : أو لم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم ، ويعلموا بعقولهم ، أن السموات والأرض كانتا رتقا ، بحيث لا ينزل من السماء مطر ، ولا يخرج من الأرض نبات ، ففتق الله ـ تعالى ـ السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٥٦٢ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

لأنهم بلا شك يشاهدون ذلك، ويعقلونه بأفكارهم. ولكنهم لاستيلاء الجحود والعناد عليهم، يعبدون من دونه - سبحانه - مالا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه ...

وقال - سبحانه -: «كانتا» بالتثنية، باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض، كما فى قوله - عز وجل: «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ...».

وقوله - تعالى -: «وجعلنا من الماء كل شىء حى ...» تأكيد لمضمون ما سبق، وتقرير لوحدانيته ونفاذ قدرته - سبحانه - والجعل بمعنى الخلق. و«من» ابتدائية.

أى: وخلقنا من الماء بقدرتنا النافذة، كل شىء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شىء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة مايشمل النمو.

وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حى، لأن الملائكة - كما جاء فى بعض الأخبار - خلقوا من النور، والجن مخلوقون من النار.

قال - تعالى -: «خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار».

قال القرطبى: «وفى قوله - تعالى -: «وجعلنا من الماء كل شىء حى» ثلاث تأويلات. أحدها: أنه خلق كل شىء من الماء. قاله قتادة. الثانى: حفظ كل شىء بالماء. الثالث. وجعلنا من ماء الصلب - أى: النطفة - كل شىء حى ...»[1].

وقوله: «أفلا يؤمنون» إنكار لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه هذا الإنكار.

---

(١) تفسير القرطبى جـ١١ ص ٢٨٤.

أى : أيشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله وقدرته . ومع ذلك لا يؤمنون ؟

إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب ، وأغرب الغرائب !! .

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال : « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ... » .

الرواسى : جمع راسية ، من رسا الشىء إذا ثبت ورسخ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة فى الأرض .

أى : وجعلنا فى الأرض جبالا ثوابت ، كراهة أن « تميد بهم » أى: أن تضطرب وتتحرك بهم الأرض . يقال : ماد الشىء يميد ميدا - من باب باع - إذا تحرك واهتز .

« وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون » والفجاج . جمع فج وهو الطريق الواسع .

والسبل : جمع سبيل وهو الطريق ، وهو بدل من « فجاجا » .

أى : وجعلنا فى الأرض طرقا واسعة، ومنافذ متعددة، لعلهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأماكن التى يريدون الوصول إليها، ويعلمون أن الذى وهبهم كل هذه النعم ، هو الله - تعالى - الذى يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة .

«وجعلنا السماء سقفا محفوظاً وهم عن آياتها معرضون» أى: وجعلنا السماء سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت ، وجعلناه محفوظاً من السقوط ومن التشقق ، ومن كل شيطان رجيم ، وهم - أى المشركون - عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا . معرضون ذاهلون ، لا يتعظون ولا يتذكرون .

ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط ، قوله - تعالى - : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرءوف رحيم»(١) .

---

(١) سورة الحج الآية ٦٥ .

ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قوله ـ سبحانه ـ : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ...»(١).

وعلى حفظها من الشياطين قوله ـ تعالى ـ : «وحفظناها من كل شيطان رجيم»(٢).

ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظات قوله ـ سبحانه ـ : «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»(٣).

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقوله ـ تعالى ـ «وهو الذى خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، كل فى فلك يسبحون».

أي: وهو وحده ـ سبحانه ـ الذى خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب «كلٌ» أى: كل واحد من الشمس والقمر يسير فى فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام، كالسابح فى الماء.

وقوله: «يسبحون» من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء.

وجاء يسبحون بضمير العقلاء. لكون السباحة المسندة إليهما من فعل العقلاء، كما فى قوله ـ تعالى ـ: «والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين».

هذا والمتأمل فى هذه الآيات يراها قد ساقت جملة من الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى كمال قدرته.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن مصير البشر جميعاً إلى الفناء، وأن كل نفس ذائقة

---

(١) سورة ق الآية ٦.
(٢) سورة الحجر الآية ١٧.
(٣) سورة يوسف الآية ١٠٥.

الموت ، وأن من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها ، وأن المشركين لو علموا المصير السيء الذي ينتظرهم يوم القيامة ، لما قالوا ماقالوه من باطل ، ولما فعلوا مافعلوه من قبائح ، قال - تعالى - :

« وما جَعلْنَا لبشَرٍ من قبلِكَ الخُلد، أفإنْ مِتَّ فهم الخالدُونَ(٣٤) كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونَبْلُوكُم بالشرِّ والخيرِ فتنة وإلينا تُرجَعونَ (٣٥) وإذَا رآكَ الذينَ كفرُوا إنْ يتَّخذونَكَ إلاَّ هُزُواً ، أهذَا الذِي يذكُر آلهتكُم وهُم بِذكْر الرحمنِ هُم كافرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإنسانُ من عجَلٍ ،سأُوريكُم آياتِي فلاَ تَستعجِلُونَ (٣٧) ويقولُونَ متَى هـذَا الوعـدُ إنْ كنتُم صادِقينَ (٣٨) لو يعـلَمُ الذينَ كفرُوا حينَ لاَ يكفُّونَ عن وجُوهِهِم النارَ ولاَ عَنْ ظُهورِهِم ولا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بلْ تأتِيهِمْ بغْتَةً فتَبْهَتُهم ، فلاَ يستطيعُونَ ردَّهَا ولا هم يُنظَرُونَ (٤٠) ولقَدِ استُهزِئَ برسُـلٍ مِنْ قبلِكَ فحاقَ بالذينَ سَخِرُوا منهُم ، ما كانُوا بهِ يَستهزِئُونَ (٤١) » .

قال القرطبي : « قوله - تعالى - : « وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد . . . » أي : دوام البقاء في الدنيا .

نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان ، فقال الله - تعالى - قد مات الأنبياء قبلك يامحمد ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك . . . »(١) .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : « أفإن مت فهم الخالدون » للانكار والنفي . . .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٨٧ .

والمعنى : وما جعلنا - أيها الرسول الكريم - لبشر من قبلك - كائنا من كان - الخلود فى هذه الحياة ، وأنت إن مت فهم - أيضا - سيموتون فى الوقت الذى حدده الله - تعالى - لانقضاء عمرك وأعمارهم ، وما دام الأمر كذلك فذرهم فى جهالتهم يعمهون ، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك ، أو إلى تربصهم بك ، فإنك ميت وإنهم ميتون، وكل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

ورحم الله الإمام الشافعى حيث يقول :

تمنى أناس أن أموت ، وإن أمت — فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى — تهيأ لأخرى مثلها ، وكأن قد

وقال شاعر آخر :

إذا ما الدهر جر على أناس — كلا كله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا — سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم أكد - سبحانه - عدم خلود بشر فى هذه الحياة فقال : «كل نفس ذائقة الموت . . . »

أى : كل نفس أوجدها الله - تعالى - فى هذه الحياة ، ستذوق مرارة نزول الموت بها ، ومفارقة روحها لجسدها .

قال الآلوسى ما ملخصه : «والموت عند الأشعرى، كيفية وجودية تضاد الحياة . وعند كثيرين غيره : أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل . . .

وقال بعضهم : المراد بالنفس هنا : النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفى خلود البشر .

واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر نفوس الحيوان»[1].

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٤٥ .

وقوله - تعالى - : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » بيان لسنة من سننه - تعالى - فى معاملة عباده .

وقوله - سبحانه - : « ونبلوكم » من البلو بمعنى الاختبار والامتحان. يقال : فلان بلاه الله بخير أو شر يبلوه بلوا ، وأبلاه وابتلاه ابتلاء ، بمعنى امتحنه »(١) .

وقوله : « فتنة » مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

أى : كل نفس ذائقة الموت ، ونختبركم فى هذه الحياة بألوان من النعم وبألوان من المحن ، لنرى أتشكرون عند النعمة ، وتصبرون عند المحنة، أم يكون حالكم ليس كذلك ؟ وفى جميع الأحوال فإن مرجعكم إلينا لا محالة ، وسنجازيكم بما تستحقون من ثواب على شكركم وصبركم ، وسنجازى غير الشاكرين وغير الصابرين بما يستحقون من عقاب ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال بعض العلماء : والابتلاء بالشر مفهوم أمره ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته فى ربه ، ورجائه فى رحمته . .

فأما الابتلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان .

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة . . فكثيرون يصمدون أمام الابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان ، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل . وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع . .

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة ، ولا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال . . .

(١) المصباح المنير ص ٨٦

إن الابتلاء بالشر قد يثير الكبرياء. ويستحث القامة، ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة ... أما الرخاء فقد يرخى الأعصاب ويفقدها المقاومة ... إلا من عصم الله وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1].

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: «ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلكم يتضرعون»[2].

وقوله - سبحانه -: «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون»[3].

ثم حكى - سبحانه - جانبا من السفاهات التى كان المشركون يقابلون بها النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال: «وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ....».

أى: وإذا أبصرك المشركون - أيها الرسول الكريم - سخروا منك، واستخفوا بك وقالوا على سبيل التهوين من شأنك: «أهذا الذى يذكر آلهتكم» أى: أهذا هو مدعى النبوة الذى يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها، وينفى شفاعتها لنا. وأنها تقربنا إلى الله زلفى.

وقوله - سبحانه -: «وهم بذكر الرحمن هم كافرون» فى محل نصب حال من ضمير القول المقدر.

أى: أنهم يقولون فيما بينهم أهذا هو الرسول الذى يذكر آلهتكم بسوء،

---

(١) فى ظلال القرآن ج ١٧ ص ٢٣ للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

(٢) سورة الأنعام الآية ٤٢.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٦٨.

والحال أن هؤلاء المشركين الجاهلين، كافرون بالقرآن الذى أنزله الله - تعالى - عليك - أيها الرسول الكريم - لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور.

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء المشركين جهالاتهم وسفاهاتهم. حيث استكثروا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذم آلهتهم التى لا تنفع ولا تضر ولم يستكثروا على أنفسهم. أن يكفروا بخالقهم ويذكره الذى أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون رحمة لهم.

قال صاحب الكشاف: «الذكر يكون بخير وبخلافه. فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد. كقولك للرجل: سمعت فلانا يذكرك، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء، وإن كان عدوا فهو ذم، ومنه قوله: «أهذا الذى يذكر آلهتكم»،

والمعنى: أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم، وبما يجب أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء، ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك. وأما ذكر الله - تعالى - وما يجب أن يذكر به من الوحدانية، فهم به كافرون لا يصدقون به أصلا، فهم أحق بأن يتخذوا هزوا منك، فإنك محق وهم مبطلون.. فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان، وأساءوا الأدب مع الرحمن»(١).

ثم بين - سبحانه - ما جبل عليه الإنسان من تسرع وتعجل فقال: «وخلق الإنسان من عجل...».

والعجل: طلب الشىء وتحريه قبل أوانه، وهو ضد البطء.

والمراد بالإنسان: جنسه

والمعنى. خلق جنس الإنسان مجبولا على العجلة والتسرع، فتراه يستعجل حدوث الأشياء قبل وقتها المحدد لها، مع أن ذلك قد يؤدى إلى ضرره.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١١٦.

فالمراد من الآية الكريمة وصف الإنسان بالمبالغة فى تعجل الأمور قبل وقتها، حتى لكأنه مخلوق من نفس التعجل. والعرب تقول: فلان خلق من كذا، يعنون بذلك المبالغة فى اتصاف هذا الإنسان بما وصف به، ومنه قولهم خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال.

وقوله: «سأريكم آياتى فلا تستعجلون» تهديد وزجر لأولئك الكافرين الذين كانوا يستعجلون العذاب.

أى: سأريكم عقابى وانتقامى منكم - أيها المشركون - فلا تتعجلوا ذلك فإنه آت لا ريب فيه.

قال ابن كثير: والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان هنا. أنه - سبحانه - لما ذكر المستهزئين بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم. فقال - سبحانه -: «خلق الإنسان من عجل»، لأنه - تعالى - يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: «سأريكم آياتى» أى: نقمى واقتدارى على من عصانى «فلا تستعجلون»[1].

وقال الآلوسى: «والنهى عن استعجالهم إياه - تعالى - مع أن نفوسهم جبلت على العجلة، ليمنعوها عما تريده، وليس هذا من التكليف بما يطاق. لأنه.. سبحانه - أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها، ويرجع هذا النهى إلى الأمر بالصبر»[2].

ثم أكد - سبحانه - ما يدل على تعجلهم لما فيه هلاكهم فقال: «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين».

أى: أن هؤلاء المشركين بلغ من طغيانهم وجهلهم أنهم كانوا يتعجلون

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٣٣٦.
(٢) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص ٤٩.

العذاب الذي توعدهم الله - تعالى - به إذا ما استمروا على كفرهم . ويقولون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه - على سبيل التهكم والاستهزاء - متى يقع هذا العذاب الذي توعدتمونا به . إننا مترقبون له ، فإن كنتم صادقين في وعدكم ، فأسرعوا في إنزاله . وأسرعوا في دعوة ربكم - سبحانه - أن يأتي بالساعة .

وجواب الشرط لقوله « إن كنتم صادقين » محذوف، لدلالة ما قبله عليه . أي : إن كنتم صادقين في وعدكم بأن هناك عذابا ينتظرنا ، فأتوا به بسرعة .

وهنا يسوق القرآن ما يدل على غفلتهم وسوء تفكيرهم، وعلى أنهم لو كانوا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة ، لما تفوهوا بما تفوهوا به . فيقول - سبحانه - « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم . ولا هم ينصرون » .

وجواب « لو » محذوف . و « يعلم » بمعنى يعرف ، و « حين » مفعوله .

أي : لو عرف الكافرون وقت وقوع العذاب بهم . وما فيه من فظائع تجعلهم يعجزون عن دفع النار عن وجوههم وعن ظهورهم . . . لو يعرفون ذلك لما استعجلوه . ولما استخفوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبأصحابه ، لكن عدم معرفتهم هي التي جعلتهم يستعجلون ويستهزئون .

وخص - سبحانه - الوجوه والظهور بالذكر، لكونهما أظهر الجوانب ، ولبيان أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملكوا له دفعا .

وقال - سبحانه - « ولا هم ينصرون » لبيان أنهم مع عجزهم عن دفع العذاب بأنفسهم . فإن غيرهم - أيضا - لن يستطيع دفعه عنهم .

قال صاحب الكشاف : « جواب « لو » محذوف . و « حين » مفعول به ليعلم . أي : لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم : « متى هذا الوعد » وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرون على

دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذى هونه عندهم، ويجوز أن يكون « يعلم » متروكا بلا تعديه ، بمعنى :لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين ، لما كانوا مستعجلين ، وحين : منصوب بمضمر. أى حين لا يكفون عن وجوههم النار ، يعلمون أنهم كانوا على الباطل ...»(١)

وقوله ـ سبحانه ـ « بل تأتيهم بغتة فتبهتهم » ... بيان لسرعة قيام الساعة، ومفاجئتها لهم .

أى : بل تأتيهم الساعة الموعود بها ، وبعذابهم فيها ، مفاجأة من غير شعور بمجيئها ، « فتبهتهم » أى : فتدهشهم وتحيرهم . والبهت : الانقطاع والحيرة .

« فلا يستطيعون ردها » أى : فلا يستطيعون دفع الساعة أوردها عنهم « ولا هم ينظرون » أى : ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآيات الكريمة بتسلية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه من هؤلاء المشركين . فقال : « ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم . ما كانوا به يستهزئون » .

أى : ولقد استهزىء ـ أيها الرسول الكريم ـ برسل كثيرين من قبلك ، فنزل بهؤلاء المشركين المستهزئين برسلهم ، العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ، ويستعجلون وسلهم فى نزوله .

وصدرت الآية الكريمة بلام القسم وقد ،لزيادة تحقيق مضمونها وتأكيده وتنوين الرسل : للتفخيم والتكثير . أى : والله لقد استهزىء برسل كثيرين ذوى شأن خطير كائنين فى زمان قبل زمانك .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١١٨ .

وعبر - سبحانه - بالفعل حاق ، لأن هذه المادة تستعمل فى إحاطة المكروه ، فلا يقال : فلان حاق به الخـــير ، ولأنها تدل على الشمول واللزوم .

أى : فنزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا نزولا شاملا، أحاط بهم من كل جهة إحاطة تامة .

وبذلك تكون الآيات الكريمة ، قد بينت جانبا من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وحكت بعض الأفعال القبيحة التى كان المشركون يفعلونها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - وهددتهم عليها تهديدا شديدا، وسلت النبى - صلى الله عليه وسلم - عما ارتكبوه فى حقه .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر هؤلاء الجاحدين بنعمه - تعالى - ، وأن ينذرهم بأسه وعقابه إذا ما استمروا فى كفرهم ، فقال - عز وجل - :

« قُلْ من يكلؤُكُم بالليلِ والنَّهارِ مِنَ الرحمَنِ ، بلْ هم عن ذِكْرِ ربِّهم مُعْرِضُون (٤٢) أَمْ لهُم آلهـةٌ تمنعُهم من دُونِنـا لا يَستطِيعُونَ نَصْرَ أنفُسِهِم ولا هم منَّا يُصحبُونَ (٤٣) بلْ متَّعْنا هؤلاءِ وآباءَهم حتَّى طالَ علَيهمُ العُمُر ، أفلاَ يرَوْنَ أنَّا نأْتِى الأرضَ ننقُصُها مِنْ أطرافِها أفهُم الغالِبُونَ (٤٤) قل إنَّما أُنذِرُكُم بالوَحْىِ ولا يسْمَعُ الصمُّ الدُّعاءَ إذَا ما يُنْذَرونَ (٤٥) ولئنْ مسَّتْهم نفحَـةٌ مِنْ عـذابِ ربِّكَ ليَقُولُن يا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٤٦) ونضَعُ الموازينَ القِسطَ ليَومِ القيامَةِ فلا تُظلَم نَفْسٌ شيئًا ، وإنْ كانَ مثقالَ حبَّـةٍ من خَرْدَلٍ أتَيْنـا بها وكفَى بنا حاسِبِينَ (٤٧) » .

وقوله - تعالى - : « يكلؤكم » أى : يرعاكم ويحفظكم . يقال: فلان كلأ

فلانا كلأ وكلاءة - بالكسر - إذا حرسه ، واكتلأ فلان من غيره ، إذا احترس منه .

والاستفهام للانكار والتقريع .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المستهزئين بك وبما جئت به من عند ربك: قل لهم من الذى يحرسكم ويحفظكم «بالليل» وأنتم نائمون «والنهار» وأنتم متيقظون «من الرحمن» أى : من عذاب الرحمن وبأسه إذا أراد أن يهلككم بسبب عكوفكم على كفركم وشرككم .

وتقديم الليل على النهار ، لما أن الدواهى فيه أكثر ، والأخذ فيه أشد ، واختار - سبحانه - لفظ الرحمن ، للاشعار بأنهم يعيشون فى خيره ورحمته ، ومع ذلك لا يشكرونه - تعالى - على نعمه .

ولذا - أخبر - سبحانه - عنهم بقوله : « بل هم عن ذكر ربهم معرضون» أى : بل هم بعد كل هذا الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم . عن ذكر ربهم وكتابه الذى أنزله لهدايتهم . معرضون شاردون ، لا يحاولون الانتفاع بتوجيهاته ، ولا يستمعون إلى إرشاداته .

فالجملة الكريمة تنفى عنهم الانتفاع بما يوجهه الرسول - صلى الله عليه وسلم- من هدايات وعظات .

ثم وجه - سبحانه - إليهم سؤالا آخر فقال : « أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا . . . » ؟

و « أم » هنا هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، فهى مشتملة على معنى الإضراب والإنكار .

والمعنى : وسلهم — أيها الرسول الكريم — مرة أخرى : ألهؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا نحن ؟ كلا ليس لهم ذلك .

فالجملة الكريمة إضراب عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم على جهالاتهم بسبب اعتمادهم على آلهة لا تنفع ولا تضر.

وقوله: «لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون» نفي على أبلغ وجه لأن تكون هناك آلهة ترعاهم سوى الله - تعالى -.

أي: كلا ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا إن أردنا إنزاله بهم، فإن هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصر غيرهم ولا هم منا يصحبون أي يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم.

قال ابن جرير: «وقوله «يصحبون» بمعنى يجارون، تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان. بمعنى أجيرك وأمنعك منه. وهؤلاء إذا لم يصحبوا بالجوار، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله، مع سخط الله عليهم، فلم يصحبوا بخير ولن ينصروا»(١).

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله عليهم لم يحسنوا شكرها، فقال - تعالى -: «بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر...».

أي: لا تلتفت - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على الكفر. وسنأخذهم في الوقت الذي نريده أخذ عزيز مقتدر، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم.

ثم يلفت - سبحانه - أنظارهم إلى الواقع المشاهد في هذه الحياة فيقول: «أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون».

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ٢٣.

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال النهار: أن المراد بنقص الأرض من أطرافها: إهلاك المشركين السابقين الذين كذبوا رسلهم، كقوم نوح وعاد وثمود، وهم يمرون على قرى بعض هؤلاء المكذبين، ويرون آثارهم وقد دمرت ديارهم.

والمعنى: أفلا ينظر هؤلاء المشركون الذين كذبوك يا محمد، فيرون بأعينهم ما حل بأمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلك. وكيف أننا طوينا الأرض بهم، وجعلناهم أثرا بعد عين.

والاستفهام فى قوله: «أفهم الغالبون» للإنكار.

أى: لم تكن الغلبة والعاقبة فى يوم من الأيام لمن كذبوا رسل الله - تعالى -، وإنما الغلبة والظفر وحسن العاقبة لمن آمن بالرسل وصدقهم واتبع ما جاءوا به من عند ربهم.

وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذا المعنى بقوله: «أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: «أفهم الغالبون».

يعنى: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون»[1].

ومنها أن المراد بنقص الأرض من أطرافها: نقص أرض الكفر ودار الحرب، وتسليط المسلمين عليها وانتزاعها من أيديهم، بدليل الاستفهام الإنكارى فى قوله «أفهم الغالبون» أى: لا ليسوا هم الذين يغلبون جندنا، وإنما جندنا هم الغالبون.

وقد صدر الآلوسى تفسيره بهذا القول فقال: «أفلا يرون أنا نأتى الأرض» أى: أرض الكفرة «ننقصها من أطرافها» بتسليط المسلمين عليها، وحوز ما يحوزونه منها، ونظمه فى سلك ملكهم... «أفهم الغالبون» على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٣٨.

والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ماذكر من نقص أرض الكفر بتسليط المؤمنين عليها ، كأنه قيل: أبعد ظهور ماذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ، وفى التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها »(١) .

وقال صاحب الكشاف: «فإن قلت : أى فائدة فى قوله « نأتى الأرض » ؟ قلت: فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدى المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ، ناقصة من أطرافها »(٢) .

وهذان الرأيان مع وجاهتهما ، إلا أن الرأى الأول الذى ذهب إليه ابن كثير أكثر شمولا، لأنه يتناول ما أصاب المكذبين للرسل السابقين من عقاب كما يشمل التهويد للمكذبين المعاصرين للعهد النبوى ، بأنهم إذا استمروا فى طغيانهم فسيحل بهم ماحل بمن سبقوهم .

وهناك من يرى أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : موت العلماء ، أو خرابها عند موت أهلها ، أو نقص الأنفس والثمرات .... ولكن هذه الآراء ليس معها مايرجحها .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوجه إلى هؤلاء المشركين إنذاراً حاسما ، فقال ـ تعالى ـ : « قل إنما أنذركم بالوحى .:. »

أى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين : إنى بعد أن بينت مابينت من هداياته وإرشادات أنذركم عن طريق الوحى الصادق ، بأن الساعة آتية لاريب فيها، فلا تستعجلوا ذلك فكل آت قريب . وسترون فيها ما ترون من أهوال وعذاب .

وقوله « ولا يسمع الصم الدعاء إذا ماينذرون » توبيخ لهم وتجهيل .

أى : ولا يسمع الصم دعاء من يدعوهم إلى ماينفعهم ، ولا يلتفتون إلى إنذار من ينذرهم وذلك لكمال جهلهم ، وشدة عنادهم ، وانطماس بصائرهم .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٥٣
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٢٠

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم شيء من العذاب فقال : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين » .

أي : ولئن أصاب هؤلاء المشركين شيء قليل من عذاب ربك يا محمد . ليقولن على سبيل التفجع والتحسر وإظهار الخضوع : يا ويلنا أي : هلاكنا إنا كنا ظالمين ، ولذلك نزل بنا هذا العذاب وفي هذا التعبير ألوان من المبالغات منها : ذكر المس الذي يكفي في تحققه إيصال ما ، ومنها : ما في النفح من النزارة والقلة ، يقال : نفح فلان فلانا نفحة ، أي : نفحة واحدة من عذاب ربك والمقصود من الآية الكريمة بيان سرعة تأثر هؤلاء المشركين ، بأقل شيء من العذاب الذي كانوا يستعجلونه ، وأنهم إذا ما نزل منهم شيء منه . أصيبوا بالهلع والجزع ، وتنادوا بالويل والثبور واعتراف بالظلم وتجاوز الحدود .

ثم بين - سبحانه - مظهراً من مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً . . . »

أي : ونحضر الموازين العادلة لمحاسبة الناس على أعمالهم يوم القيامة ولإعطاء كل واحد منهم ما يستحقه من ثواب أو عقاب ، دون أن يظلم ربك أحداً من خلقه .

« وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » أي : وإن كانت الأعمال التي عملها الإنسان في نهاية الحقارة والقلة ، أتينا بها في صحيفة عمله لتوزن ، وكفى بنا عادين وعصين على الناس أعمالهم ، إذ لا يخفى علينا شيء منها سواء أكان قليلا أم كثيراً .

قال ابن كثير : « قوله : « ونضع الموازين . . . » الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه »(١) .

وقال القرطبي : « الموازين : جمع ميزان ، فقيل : إنه يدل بظاهره على أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص٣٢٩ .

لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات فى كفه ، والسيئات فى كفه . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين العامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ... وقيل : ذكر الميزان مثل وليس ثم ميزان وإنما هو العدل والذى وردت به الأخبار ، وعليه السواد الأعظم القول الأول . و « القسط » صفة الموازين ووحد لأنه مصدر ... »(١) .

واللام فى قوله « ليوم القيامة » قيل للتوقيت . أى للدلالة على الوقت ، كقولهم : جاء فلان لخمس ليال بقين من الشهر . وقيل هى لام كى ، أى : لأجل يوم القيامة ، أو بمعنى فى أى : فى يوم القيامه .

وقوله - سبحانه - فلا تظلم نفس شيئا ... » بيان للعدل الإلهى ، وأنه - سبحانه - لا يظلم أحدا شيئا مما له أو عليه . أى : فلا تظلم نفس شيئا من الظلم لا قليلا ولا كثيرا .

وقوله « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها » تصوير لدقة الحساب ، وعدم مغادرته لشىء من أعمال الناس . إذ الخردل حب فى غاية الصغر والدقة ، ومثقال الشىء : وزنه .

وأنث الضمير فى قوله « بها » وهو راجع إلى المضاف الذى هو « مثقال » وهو مذكر . لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذى هو « حبة من خردل » .

وقوله - سبحانه - : « وكفى بنا حاسبين » بيان لإحاطة الله - تعالى - بعلم كل شىء . كما قال - تعالى - : « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما »(٢) .

وقوله - سبحانه - : « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير »(٣) .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢٩٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٤٠ . (٣) سورة لقمان الآية ١٦ .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أولئك المشركين بجانب من نعم الله - تعالى - عليهم ، وحضتهم على التدبر والاتعاظ ، وأنذرتهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى كفرهم وشركهم ، وصورت لهم دقة الحساب يوم القيامة ، وأن كل إنسان سيحاسب على عمله سواء أكان صغيراً أم كبيرا ، ولا يظلم ربك أحدا .

وبعد أن فصل - سبحانه - الحديث عن دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، ورد على المشركين ردا يفحمهم ، أتبع ذلك بالحديث عن قصص بعض الأنبياء تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتثبيتا لقلبه ، فقال - تعالى - :

« ولقدْ آتيْنا مُوسَى وهارونَ الفُرقانَ وضياءً وذِكراً للْمتقينَ (٤٨) الذينَ يَخْشَونَ ربَّهم بِالغَيبِ وهم من الساعةِ مشفِقُونَ (٤٩) وهـذا ذِكْرٌ مبارَكٌ أنزلناه ، أفأنتم لهُ منكِرُونَ (٥٠) » .

والمراد بالفرقان وبالضياء وبالذكر : التوراة ، فيكون الكلام من عطف الصفات . والمعنى : ولقد أعطينا موسى وهارون - عليهما السلام - كتاب التوراة ليكون فارقا بين الحق والباطل ، وليكون - أيضاً - ضياء يستضىء به أتباعه من ظلمات الكفر والضلالة ، وليكون ذكراً حسنا لهم ، وموعظة يتعظون بما اشتمل عليه من آداب وأحكام .

قال الآلوسى : « قوله - سبحانه - : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا . . . » .

نوع تفصيلى لما أجمل فى قوله - تعالى - قبل ذلك : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم . . . » .

وتصديره بالتوكيد القسمى لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه .

والمراد : بالفرقان : التوراة ، وكذا بالضياء والذكر . والعطف كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقيل: الفرقان هنا: النصر على الأعداء.. والضياء التوراة أو الشريعة.. وعن الضحاك: أن الفرقان فرق البحر... »[١].

وخص المتقين بالذكر، لأنهم هم الذين انتفعوا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات.

وقوله - تعالى -: « الذين يخشون ربهم بالغيب.. » صفة مدح للمتقين.

أى: آتينا موسى وهارون الكتاب الجامع لصفات الخير ليكون هداية للمتقين، الذين من صفاتهم أنهم يخافون ربهم وهو غير مرئى لهم، ويخشون عذابه فى السر والعلانية « وهم من الساعة مشفقون » أى: وهم من الساعة وما يقع فيها من حساب دقيق خائفون وجلون وليسوا كأولئك الكافرين الجاحدين الذين يستعجلون حدوثها.

وخصت الساعة بالذكر مع أنها داخلة فى الإيمان بالغيب، للعناية بشأنها حيث إنها من أعظم المخلوقات، ولشدتها على من أنكرها واستعجل قيامها.

واسم الإشارة فى قوله: « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » القرآن الكريم. أى: وهذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو ذكر وشرف لكم، وهو كذلك كثير الخيرات والبركات لمن اتبع توجيهاته.

والاستفهام فى قوله: « أفأنتم له منكرون » للتوبيخ والإنكار. والخطاب للمشركين.

أى: كيف تنكرون كونه من عند الله مع أنكم بمقتضى فصاحتكم تدركون من بلاغته، ما لا يدركه غيركم، ومع أنكم تعترفون بنزول التوراة على موسى وهارون.

إن إنكاركم لكون القرآن من عند الله، لهو دليل واضح على جحودكم للحق بعد أن تبين لكم.

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٥٧.

قال الجمل : «وتقديم الجار والمجرور على المتعلق، دل على التخصيص. أى: أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود تنكرون فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عن لهم من المشكلات»(١) .

ثم تسوق السورة بعد بشىء من التفصيل قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، وما دار بينه وبينهم من محاورات ومحاولات فتقول :

« ولقدْ آتينآ إبراهيمَ رشدَه من قبلُ وكُنَّا به عالمِينَ (٥١) إذْ قالَ لأبيهِ وقومهِ ما هذهِ التماثيلُ التى أنتُم لها عاكفُونَ (٥٢) قالوا وَجدْنَا آباءنَا لها عابدينَ (٥٣) قالَ لقد كنتُم أنتُمْ وآباؤُكُم فى ضلالٍ مبينٍ (٥٤) قالوا أجئتَنَا بالحقِّ أمْ أنتَ منَ اللاَّعبِين (٥٥) قالَ بلْ ربُّكُم ربُّ السمواتِ والأرضِ الذى فطرَهُنَّ وأناَ عَلَى ذلِكُم من الشاهدينَ (٥٦) وتاللهِ لأكيدَنَّ أصنامكُم بعدَ أنْ تولُّوا مُدبرينَ (٥٧) فجعلَهم جُذَاذاً إلاَّ كبيراً لهُم لعلَّهُم إليه يرْجعونَ (٥٨) » .

وقصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، قد وردت فى سور متعددة منها : سورة البقرة ، والعنكبوت ، والصافات . . .

وهنا تحدثنا سورة الأنبياء عن جانب من قوة إيمانه - عليه السلام - وعن سلامة حجته ، وعن تصميمه على تنفيذ ما يرضى الله - تعالى - بالقول والعمل .

والمراد بالرشد : الهداية إلى الحق والبعد عن ارتكاب ما نهى الله - تعالى - عنه .

والمراد بقوله - تعالى - « من قبل » أى : من قبل أن يكون نبيا .

والمعنى : ولقد آتينا - بفضلنا وإحساننا - إبراهيم - عليه السلام - الرشد

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٢٣

إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، من قبل ، أى : من قبل النبوة بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال .

وقد اكتفى الإمام ابن كثير بهذا المعنى فى قوله - تعالى - «من قبل» فقال : يخبر - تعالى - عن خليله إبراهيم - عليه السلام - ، أنه آتاه رشده من قبل . أى : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال - تعالى - : «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ...»[(١)] .

ومن المفسرين من يرى أن المقصود بقوله - تعالى - «من قبل» أى : من قبل موسى وهارون ، فقد كان الحديث عنهما قبل ذلك بقليل فى قوله - تعالى - : «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين ...» .

فيكون المعنى : ولقد آتينا إبراهيم رشده وهداه ، ووفقناه للنظر والاستدلال على الحق ، من قبل موسى وهارون ، لأنه يسبقهما فى الزمان .

وقد رجح هذا المعنى الإمام الآلوسى فقال : «ولقد آتينا إبراهيم رشده» أى : الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشد الكامل . أعنى : الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا .. «من قبل» أى : من قبل موسى وهارون . وقيل : من قبل البلوغ ... والأول مروى عن ابن عباس وابن عمر . وهو الوجه الأوفق لفظاً ومعنى ، أما لفظا فللقرب . وأما معنى فلأن ذكر الأنبياء - عليهم السلام - للتأسى . وكان القياس أن يذكر نوح ثم إبراهيم ثم موسى ، لكن روعى فى ذلك ترشيح التسلى والتأسى ، فقد ذكر موسى ، لأن حاله وماقاساه من قومه ... أشبه بحال نبينا - صلى الله عليه وسلم -»[(٢)] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للمعنيين . أى : أن الله - تعالى - قد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٤١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٥٨ .

أعطى إبراهيم رشده، من قبل النبوة، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما في الزمان .

وقوله : « وكنا به عالمين » بيان لكمال علم الله - تعالى - أي : وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالمين، بحيث لا يخفى علينا شيء من أحواله أو من أحوال غيره .

وقوله : « إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » بيان لما جاء به إبراهيم أباه وقومه من قول سديد يدل على شجاعته ورشده .

أي : وكنا به عالمين . وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل الإرشاد والتنبيه : ماهذه التماثيل الباطلة التي أقبلتم عليها، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع .

وسؤاله - عليه السلام - لهما بما التي هي لبيان الحقيقة، من باب تجاهل العارف، لأنه يعلم أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار أو مايشبهها، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم . حيث عبدوا مايصنعونه بأيديهم .

وعبر عن الأصنام بالتماثيل، زيادة في التحقير من أمرها، والتوهين من شأنها، فإن التمثال هو الشيء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك، على هيئة مخلوق من مخلوقات الله - تعالى -، كالإنسان والحيوان، يقال: مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به .

فهو - عليه السلام - سماها باسمها الحقيقي الذي تستحقه، دون أن يجاريهم في تسميتها آلهة .

وقوله : « عاكفون » من العكوف بمعنى المداومة والملازمة . يقال : عكف فلان على الشيء، إذا لازمه وواظب عليه، ومنه الاعتكاف لأنه حبس النفس عن التصرفات العادية .

وفي التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها، تفظيع لفعلهم وتنفير لهم

منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم .

وقوله - سبحانه : « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين »حكاية لما قالوه في ردهم على إبراهيم - عليه السلام - وهو رد يدل على تحجر عقولهم ، وانطماس بصائرهم حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر .

أي : قالوا في جوابهم على إبراهيم - عليه السلام- وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم .

وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » .

أي : لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، في ضلال عجيب لا يقادر قدره ، وفي فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على عاقل، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو التقديس أو العكوف عليها ، والباطل لا يصير حقا بفعل الآباء له .

وعندما واجههم إبراهيم - عليه السلام - بهذا الحكم البين الصريح،قالوا له : « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » .

أي : أجئتنا يا إبراهيم بالحق الذي يجب علينا إتباعه،أم أنت من اللاعبين اللاهين الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والملاعبة.

وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم ، وشكهم فيما هم عليه من باطل ، إلا أن التقليد لآبائهم . جعلهم يعطلون عقولهم ، ويستحبون العمى على الهدى .

ويجوز أن يكون سؤالهم هذا من باب الإنكار عليه،واستبعاد أن يكون آباؤهم على باطل ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « بقوا متعجبين من تضليله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح

والمداعبة ، لا على طريق الجد ، فقالوا له : هذا الذى جئتنا به،أهو جد وحق أم لعب وهزل »(١) .

وقد رد عليهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ردا حاسما يدل على قوة يقينه فقال: « بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن . . . » .

أى : قال لهم إبراهيم بلغة الواثق بأنه على الحق : أنا لست هازلا فيما أقوله لكم ، وإنما أنا جاد كل الجد فى إخباركم ، أن الله ـ تعالى ـ وحده ، هو ربكم ورب آبائكم ، ورب السموات والأرض ، فهو الذى خلقهن وأنشأهن بما فيهن من مخلوقات بقدرته التى لا يعجزها شىء .

وقوله : «وأنا على ذلكم من الشاهدين» تذييل المقصود به تأكيد ما أخبرهم به ، وما دعاهم إليه . أى : وأنا على أن الله ـ تعالى ـ هو ربكم ورب كل شىء من الشاهدين ، الذين يثقون فى صدق ما يقولون ثقة الشاهد على شىء لا يشك فى صحته .

ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولى، تأكيداً آخر فعلى، فقال لهم: «وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

أى : وحق الله الذى فطركم وفطر كل شىء : لأجتهدن فى تحطيم أصنامكم، بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها . وتولوها أدباركم .

وأصل الكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه . وقد عبر به إبراهيم عن تكسير الأصنام وتحطيمها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير .

وقد نفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام ، فقد انتهز فرصة ذهاب قومه بعيدا عنها لخطمها . قال تعالى ـ « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » .

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص١٢٢

والفاء فى قوله : « فجعلهم » فصيحة . والجذاذ القطع الصغيرة جمع جذاذة من الجذ بمعنى القطع والكسر .

أى : فولوا مدبرين عن الأصنام . فجعلها بفأسه قطعا صغيرة ، بأن حطمها عن آخرها - سوى الصنم الأكبر لم يحطمه بل تركه من غير تكسير . لعلهم إليه يرجعون فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، ولم يستطع الدفاع عن إخوته الصغار ؟!! .

ولعل إبراهيم - عليه السلام - قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة ، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها ، وليحملهم على التفكير فى أن الذى يجب ان يكون معبودا ، إنما هو الله الخالق لكل شىء ، والقادر على كل شىء .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وقوله : « لعلهم إليه يرجعون » لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير . وضمير « إليه » عائد إلى إبراهيم . أى : لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ، فيحاجهم ويبكتهم ...

وعن الكلبى : أن الضمير للكبير : أى : لعلهم يرجعون إلى الكبير ، كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات فيقولون له . ما لهؤلاء مكسورة ، ومالك صحيحاً ، والفأس فى عنقك أو فى يدك ؟ وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، ويظهر أنهم فى عبادته على جهل عظيم .... »(١) .

وعاد القوم إلى أصنامهم بعد تركهم إياها لفترة من الوقت ، فوجدوها قد تحطمت إلا ذلك الكبير ، فأصابهم ما أصابهم من الذهول والعجب ، ويصور القرآن الكريم ذلك فيقول :

« قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٦٢ .

يذكُرُهُمْ يقالُ لهُ إبرَاهيمُ (٦٠) قالوا فأْتُوا بِهِ عَلَى أعيُنِ النَّاسِ لعلَّهم يشهدُونَ (٦١) قالوا أأنتَ فعلتَ هذَا بآلهتِنَا يا إبرَاهيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعله كبيرُهُمْ هـذَا فاسأَلوهُم إنْ كانُوا يَنْطقون (٦٣) فَرجَعُوا إلى أنفُسِهِم فقالوا إنـكم أنتُم الظالِمُون (٦٤) ثُمَّ نـكِسوا عَلَى رُءوسِهِم لقد عَلِمت ما هؤلاء ينطِقونَ (٦٥) » .

أى : وحين رجع القوم من عيدهم ورأوا ماحل بأصنامهم « قالوا » على سبيل التفجع والإنكار : « من فعل هذا » الفعل الشنيع « بآلهتنا » التى نعظمها « إنه » أى هـذا الفاعل « لمن الظالمين » لهذه الآلهة . لإقدامه على إهانتها وهى الجديرة بالتعظيم - فى زعمهم - ، ولمن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة منا .

« قالوا » أى : بعضهم وهم الذين سمعوا من إبراهيم قوله : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

« سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » والمراد بالذكر هنا : الذكر بالسوء والذم .

أى : سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم والتهديد بالكيد ، وهـذا الفتى يقال له إبراهيم ، ولعله هو الذى فعل بهم مافعل .

وهنـا تشاوروا فيما بينهم وقالوا : إذا كان الأمر كذلك : « فأتوا به » وأحضروه « على أعين الناس » أى : أمام أعينهم ليتمكنوا من رؤيته على أتم وجه « لعلهم يشهدون » مساءلتنا له ، ومواجهتنا إياه بالعقوبة التى يستحقها على فعله هذا ، أو يشهدون عليه بأنه هو الذى حطم الأصنام .

قال ابن كثير : « وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم ، أن يتبين فى هـذا المحفل العظيم ، كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم ، فى عبادة هذه الأصنام ، التى

لا تدفع عن نفسها ضرا، ولا تملك لها نفعا ...»(١).

وجاءوا بإبراهيم - عليه السلام - وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد: «أأنت فعلت هذا» التكسير والتحطيم «بآلهتنا» التي نعبدها «يا إبراهيم»؟

وهنا يرد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بتهكم ظاهر، واستهزاء واضح فيقول: «بل فعله كبيرهم هذا» يعني الذي تركه بدون تحطيم «فإن كنتم لم تصدقوا قولي «فاسألوهم» عمن فعل بهم ذلك «إن كانوا ينطقون» أي: إن كانوا ممن يتمكن من النطق أجابوكم وأخبروكم عمن فعل بهم مافعل.

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذي حطمها، أو سؤالهم للأصنام عن حطمها، وإنما الذي يقصده هو الإستهزاء بهم، والسخرية بأفكارهم، فكأنه يقول لهم: إن هذه التماثيل التي تعبدونها من دون الله، لا تدري إن كنت أنا الذي حطمتها أم هذا الصنم الكبير، وأنتم تعرفون أني قد بقيت قريبا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من الذي حطمها إن كانت لكم عقول تعقل؟

قال صاحب الكشاف: «هذا - أي قول إبراهيم لهم: بل فعله كبيرهم هذا - من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني.

والقول فيه أن قصد إبراهيم - عليه السلام - لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم.

وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت كتابا بخط رشيق - وأنت شهير بحسن الخط - : أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط، ولا يقدر

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٤٣.

إلا على خرمشة فاسدة - أى كتابة رديئة - فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب ، تقرير أن هذه الكتابة لك ، مع الاستهزاء به .. »(١) .

وهذا التفسير للآية الكريمة من أن إبراهيم - عليه السلام - قد قال لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا ، وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين فى معنى الآية ، نظراً لضعف هذه الأقوال بالنسبة لهذا القول .

وقوله - سبحانه - : « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون » بيان للأثر الذى أحدثه رد إبراهيم - عليه السلام - .

أى : أنهم بعد أن قال لهم إبراهيم ، بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، أخذوا فى التفكر والتدبر ، فرجعوا إلى أنفسهم باللوم ، وقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون ، حيث عبدتم ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة . .

ولكن هذا الأثر ، وهذا اللوم لأنفسهم ، لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقد صور القرآن حالهم بعد ذلك فقال: « ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » .

وقوله : « نكسوا » فعل مبنى للمجهول من النكس ، وهو قلب الشىء من حال إلى حال ، وأصله : قلب الشىء بحيث يصير أعلاه أسفله .

أى : ثم انقلبوا من لومهم لأنفسهم لعبادتهم لما لا يقدر على رفع الأذى عنه ، إلى التصميم على كفرهم وضلالهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ إن أمرك هذا لما هو دليل على أنك تسخر بعقولنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذى تستحقه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢٤ .

وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم، شبه ذلك بالانتكاس، لأنهم بمجرد أن خطرت لهم الفكرة السليمة، أطفأوها بالتصميم على الكفر والضلال، فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ماشيا على قدميه، فياله من تصوير بديع لحالة من يعود إلى الظلام، بعد أن يتبين له النور.

والجملة الكريمة «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون» جواب لقسم محذوف، معمول لقول محذوف، والتقدير: ثم نكسوا على رءوسهم قائلين: والله لقد علمت ماهؤلاء ينطقون.

ولم يملك إبراهيم إزاء انتكاسهم على رءوسهم، إلا أن يوبخهم بعنف وضيق، - وهو الحليم الأواه المنيب - وقد قابلوا تأنيبه لهم بتوعده بالعذاب الشديد، ولكن الله - تعالى - نجاه من مكرهم، قال - تعالى -:

«قالَ أَفَتعبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالاَ ينفعكُمْ شيئاً ولا يَضُرُّكُم (٦٦) أُفٍّ لكم ولما تعبُدونَ من دُونِ اللهِ أفلاَ تَعقلونَ (٦٧) قالوا حَرِّقوهُ وانصُرُوا آلهتكم إنْ كنتُم فاعِلينَ (٦٨) قلنَا يا نارُ كُونِي برداً وسلاماً عَلَى إبراهيمَ (٦٩) وأرادُوا به كيداً فجعلناهُمُ الأخسَرِينَ (٧٠) ونجيناهُ ولوطاً إلى الأرضِ التى باركْنا فيها للعالمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا له إسحاقَ ويعقُوبَ نافِلةً، وكُلاً جعَلنا صالحِينَ (٧٢) وجعَلْناهم أئمةً يهدُونَ بأمرِنَا وأوْحينَا إليهِمْ فعْلَ الخيراتِ وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاء الزكاةِ وكانُوا لنَا عابِدِينَ (٧٣)».

أى: قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا: أتتركون عبادة الله الذى خلقكم، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشىء من النفع، ولا تضركم

بشيء من الضر ، ثم يضيف إلى هـذا التبكيت لهم ، الضجر منهم ، فيقول : « أف لـكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

و « أف » اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر . وأصله صوت المتضرر من استقذار الشيء . واللام في قوله « لـكم » لبيان المتضجر لأجله .

أي : سحقا وقبحا لـكم ، ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله - تعالى - عن جهل وسخف وطغيان .

« أفلا تعقلون » ما أنتم فيه من ضلال واضح ، فترجعون عنه إلى عبادة الواحد القهار .

وعندما وصل إبراهيم في توبيخهم وتبكيتهم إلى هذا الحد ، أخذتهم العزة بالإثم ، شأنهم في ذلك شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته ، فقـالوا فيما بينهم : « حرقوه وانصروا آلهتـكم إن كنتم فاعلين » .

أي : قال بعضهم لبعض بعد أن عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة ، وبعد أن رأوا إبراهيم قد أفحمهم بمنطقه الحـكيم : « حرقوه » أي : بالنـار ، فإنها أشد العقوبات .

قيل : إن الذي اقترح عليهم ذلك هو رئيسهم : نمروذ بن كنعان . وقيل: هو رجل من الفرس اسمه : هينون ...

وقوله : « وانصروا آلهتـكم .. » بيان لسبب تحريقه بالنار .

أي : حرقوه بالنار من أجل الانتصار لآلهتكم التي حطمها في غيبتـكم «إن كنتم فاعلين » .

أي : إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتـكم نصرا يرضيها، فاحرقوه بالنـــار .

قال صاحب الكشاف : « أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه : وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح . لم يكن أحد أبغض إليه من المحق. ولم يبق له مفزع إلا مناصبته ، كما فعلت قريش برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين عجزوا عن المعارضة .

والذى أشار بإحراقه : نمروذ . وعن ابن عمر : رجل من أعراب العجم . . واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول مايعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : لايعذب بالنار إلا خالقها »(١) .

وقوله - : « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . . . » مسبوق بكلام محذوف يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وأحضر قوم إبراهيم الحطب ، وأضرموا نيرانا عظيمة ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فلما فعلوا ذلك قلنا يانار كونى - بقدرتنا وأمرنا - ذات برد ، وذات سلام على إبراهيم، فكانت كما أمرها الله - تعالى - ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : « بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »(٢) .

وتحولت النار إلى برد وسلام على إبراهيم ، وأراد الكافرون به كيدا ، أى إحراقا بالنار « فجعلناهم » بإرادتنا وقدرتنا « الأخسرين » ، حيث لم يصلوا إلى مايريدون ، ولم يحققوا النصر لآلهتهم ، بل رد الله - تعالى - كيدهم فى نحورهم .

وقال - سبحانه - « فجعلناهم الأخسرين » بالإطلاق لتشمل خسارتهم كل خسارة سواء أكانت دنيوية أم أخروية .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات آثارا منها : أن إبراهيم

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١١٧

- عليه السلام - حين جيء به إلى النار ، قالت الملائكة: ياربنا ما فى الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وأنه الآن يحرق فأذن لنا فى نصرته !!

فقال - سبحانه -: إن إستغاث بأحد منكم فلينصره . وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به ، وأنا وليه ، فخلوا بينى وبينه ، فهو خليلى ليس لى خليل غيره .

فأتى جبريل - عليه السلام - إلى إبراهيم ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم !!

فقال له جبريل : فلم لا تسأله ؟ فقال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : حسبي من سؤالى علمه بحالى .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - نعما أخرى أنعم بها على إبراهيم فقال : « ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ... »

والضمير فى قوله . « ونجيناه » يعود إلى إبراهيم . و « لوطا » هو ابن أخيه ، وقيل : ابن عمه.

والمراد « بالأرض التى باركنا فيها » أرض الشام على الصحيح .

وعدى « نجيناه » بإلى ، لتضمينه معنى أخرجناه .

أى : وأخرجناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها ، بأن جعلناها مهبطا للوحى ، ومبعثا الرسل لمدة طويلة ، وبأن جعلناها كذلك عامرة بالخيرات وبالأموال وبالثمرات للأجيال المتعاقبة .

والآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط - عليهما السلام - من أرض العراق التى كانا يقيمان فيها ، إلى أرض الشام ، فرارا بدينهما . بعد أن أراد قوم إبراهيم أن يحرقوه بالنار ، فأبطل الله - تعالى - كيدهم ومكرهم ، ونجاه من شرهم .

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٦٨ .

وقد أشار - سبحانه - إلى ذلك فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : «فآمن له لوط وقال أنى مهاجر إلى ربى أنه هو العزيز الحكيم . .»[١] .

وقوله - تعالى - : «ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة . . .» بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم الله - سبحانه بها على إبراهيم.

والنافلة : الزيادة على الأصل . ولذا سميت صلاة السنن نافلة ، لأنها زيادة على الصلوات المفروضة . وإسحاق هو ابن إبراهيم . ويعقوب هو ابن إسحاق .

فلفظ «نافلة» حال من يعقوب . أى : ووهبنا لإبراهيم يعقوب حال كونه زيادة على إسحاق . «وكلا» من المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب .

«جعلنا صالحين» أى : جعلناهم أفراداً صالحين ، بأن وفقناهم لما نحبه ونرضاه ، وشرفناهم بالنبوة والرسالة .

«وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا» أى : وجعلنا هؤلاء المذكورين ، أئمة فى الخير ، يهدون ويرشدون غيرهم إلى الدين الحق بسبب أمرنا لهم بذلك ، وتكليفهم بتبليغ وحينا إلى الناس .

قال صاحب الكشاف : «قوله - سبحانه - : «يهدون بأمرنا» فيه ان من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ، ويتثاقل عنها ، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل»[٢] .

وقوله : «وأوحينا إليهم فعل الخيرات» أى : وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمروا الناس بفعلها ، وأوحينا إليهم كذلك : إقام الصلاة

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٣ ص ١٢٧ .

وإيتاء الزكاة ، أى : أن يقيموا الصلاة وأن يؤدوا الزكاة وأن يأمروا غيرهم بذلك . وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام . للاهتمام به إذ الصلاة أفضل العبادات البدنية المالية «وكانوا لنا عابدين ، لا لغيرنا ، فهم لم يخطر ببالهم عبادة أحد سوانا ، لأنهم من المصطفين الأخيار .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة التى وردت فى قصة إبراهيم مع قومه . يراها قد حكت لنا غيرة إبراهيم - عليه السلام - على دين الله - تعالى - وقوة عزيمته فى الدفاع عن الحق ، ومجادلته بما يعتقده بدون خوف من قومه ، وجمعه فى دعوته بين القول والعمل .

كما يراها قد بينت لنا أن من يدافع عن دين الله - تعالى - يدافع الله - سبحانه - عنه ، وينصره على أعدائه ، ويرد كيدهم فى نحورهم .

كما يراها - أيضا - قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة ، والذرية الصالحة التى تهدى غيرها إلى الطريق المستقيم .

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة لوط - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :

« ولوطاً آتيناه حُكماً وعلماً ، ونجيناه مِنَ القَريةِ التى كانتْ تعمَلُ الخبائثَ ، إنّهم كانُوا قومَ سَوء فاسِقينَ (٧٤) وأدْخَلناهُ فى رحمتِنا إنّه مِنَ الصَّالحينَ (٧٥) » .

وقوله - تعالى - : « ولوطا » منصوب بفعل مضمر يفسره المذكور بعده وهو « آتيناه » .

أى : وآتينا لوطا - عليه السلام - « حكما » أى : نبوة ، أو حكمة تهديه

إلى ما يجب فعله أو تركه « و » علما » أي : علما كثيراً لما ينبغي علمه وفهمه .

« ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث والمراد بالقرية: قريا سدوم التي أرسل الله - تعالى - لوطا لأهلها .

والأعمال الخبيثة التي كانوا يعملونها على رأسها الإشراك بالله - تعالى - ، وفاحشة اللواط التي اشتهروا بها دون أن يسبقهم إليها أحد . كما قال - تعالى- : « ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل - أي الطريق - ، وتأتون في ناديكم - أي في مجالسكم المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ... »(١) .

أي : ونجينا لوطا بفضلنا ورحمتنا من العذاب الذي حل بأهل قريته الذين كانوا يعملون الأعمال الخبائث ، كالشرك بالله - تعالى - واللواط ، وقطعهم الطريق ، وارتكابهم المنكر في مجالسهم .

وقوله - تعالى - : « إنهم كانوا قوم سوء فاسقين » تعليل لنجاة لوط - عليه السلام - مما حل بهم .

أي : جعلنا هذه القرية عاليها سافلها ، ونجينا لوطا ومن آمن معه من العذاب الذي حل بسكانها « إنهم كانوا قوم سوء » أي : أصحاب عمل سيء « فاسقين » أي : خارجين عن طاعتنا .

« وأدخلناه » أي : لوطا « في رحمتنا » أي : في أهل رحمتنا في الدنيا والآخرة « إنه من الصالحين » الذين سبقت لهم منا الحسنى .

ثم ذكرت السورة الكريمة جانبا من قصة نوح مع قومه . قال - تعالى - :

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٨ ، ٢٩ .

« ونُوحاً إذْ نادَى من قبـــلُ فاسْتَجبْنا لهُ ، فنجَّيناهُ وأهلهُ من الـكَربِ العظيم (٧٦) ونصَرناه من القومِ الذينَ كذَّبُوا بآياتِنا إنَّهم كانُوا قوْمَ سَوءٍ فأغْرقنَاهم أجمعينَ (٧٧) » .

أى : واذكر - أيضا - أيها المخاطب عبدنا « نوحا » - عليه السلام - « إذ نادى من قبل » أى : حين نادانا واستجار بنا من قبل زمان إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء .

وهـذا النداء الذى نادى به نوح ربه ، قد جاء ذكره فى آيات منها قوله - تعالى - : « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الـكرب العظيم . . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . . . »(٢) .

« فاستجبنا له » أى : أجبنا له دعاءه ، ولم نخيب له رجاء فينا .

« فنجيناه وأهله » الذين آمنوا به وصدقوه « من الـكرب العظيم » أى : من الطوفان العظيم الذى أغرق الـكافرين ، والذى كانت أمواجه كالجبال .

وأصل الـكرب : الغم الشديد . يقال : فلان كربه هذا الأمر ، إذا ضايقه وجعله فى أقصى درجات الهم والخوف .

قال الآلوسى : «وكأنه على ماقيل من كرب الأرض ، وهو قلبها بالحفر . إذ الغم يثير النفس إثارة ذلك ، أو من كربت الشمس إذا دنت للمغيب ، فإن الغم الشديد ، تكاد شمس الروح تغرب منه . . . وفى وصفه بالعظيم تأكيد لشدته »(٣) .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) سورة نوح الآية ٢٦ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٧٣ .

« ونصرناه » بفضلنا وإحساننا « من القوم الذين كذبوا بآياتنا » الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا . وعلى أن نوحا رسولا من رسلنا .

والمراد بهؤلاء القوم : قومه الذين لبث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله . فلم يؤمن به إلا قليل منهم .

« إنهم كانوا قوم سوء » أى : إنهم كانوا قوما يعملون أعمال السوء والف . . « فأغرقناهم أجمعين » بسبب إصرارهم على الكفر والعصيان ، ولم ننج منهم إلا من اتبع نوحا عليه السلام .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نبيين كريمين هما داود وسليمان فقال - تعالى - :

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ ، إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ، لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) » .

وقوله - سبحانه - : « وداود . . . » منصوب - أيضا - بفعل مقدر ، أو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : « ونوحا إذ نادى . . . » .

وسليمان هو ابن داود ، وكلاهما من أنبياء الله - تعالى - ، وينتهى نسبهما إلى يعقوب - عليه السلام - وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بألف سنة تقريبا ، وقد جمع الله - تعالى - لهما بين الملك والنبوة .

والحرث: الزرع. قيل: كان كرما - أى عنبا - تدلت عناقيده.

وقوله: «نفشت» من النفش وهو الرعى بالليل خاصة. يقال: نفشت الغنم والإبل، إذا رعت ليلا بدون راع.

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات ملخصها: أن رجلين دخلا على داود - عليه السلام - أحدهما: صاحب زرع، والآخر صاحب غنم. فقال صاحب الزرع لداود: يا نبي الله إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى، فلم تبق منه شيئاً.

فحكم داود - عليه السلام - لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل إتلافها لزرعه،

وعند خروجهما التقيا بسليمان - عليه السلام - فأخبراه بحكم أبيه. فدخل سليمان على أبيه فقال له: يا نبي الله، إن القضاء غير ما قضيت. فقال له: كيف؟ قال: ادفع الغنم إلى صاحب الزرع لينتفع بها، وادفع الزرع إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان. ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده. فيأخذ صاحب الزرع زرعه، وصاحب الغنم غنمه... فقال داود - عليه السلام -: القضاء ما قضيت يا سليمان(١).

والمعنى: اذكر - أيها الرسول الكريم - قصة داود وسليمان، وقت أن كانا يحكمان فى الزرع الذى «نفشت فيه غنم القوم» أى: تفرقت فيه وانتشرت ليلا دون أن يكون معها راع فرعته وأفسدته.

قال القرطبي: «ولم يرد - سبحانه - بقوله «إذ يحكمان فى الحرث» الاجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول، فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز. وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله - تعالى - له(٢).

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ٣٨ وتفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٤٩.

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٣٠٧

وقوله - تعالى - : « وكنا لحكمهم شاهدين » جملة معترضة جيء بها لبيان شمول علم الله - تعالى - ، وإحاطته بكل شيء

أي : وكنا لما حكم به كل واحد منهما عالمين وحاضرين ، بحيث لا يغيب عنا شيء مما قالاه .

وضمير الجمع في قوله لحكمهم : لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال إن أقل الجمع إثنان وقيل : ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب زرع وصاحب الحرث . أي : وكنا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين .

والضمير المنصوب في قوله تعالى - : « ففهمناها سليمان » يعود إلى القضية أو المسألة التي عرضها الخصمان على داود وسليمان .

أي : ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق في هذه المسألة أو القضية ، وذلك لأن داود - كما يقول بعض العلماء - قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث ، وهذا عدل فحسب . أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير . وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البيانية الدافعة ، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء »[1].

وقوله - سبحانه - « وكلا آتينا حكما وعلما » ثناء من الله - تعالى - على داود وسليمان - عليهما السلام - ، والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا في حكمه .

أي : وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا « حكما » أي : نبوة وإصابة في القول والعمل « علما » أي : فقهاً في الدين ، وفهما سليما للأمور .

وقد توسع بعض المفسرين في الحديث عن هذا الحكم الذي أصدره داود وسليمان في قضية الحرث أكان بوحي من الله إليهما ، أم كان باجتهاد منهما ؟

وقد رجح بعض العلماء أنه كان باجتهاد منهما فقال : اعلم أن جماعة من

---

(١) في ظلال القرآن جـ ١٧ ص ٥٥١ .

العلماء قالوا : إن حكم داود وسليمان فى الحرث المذكور فى هذه الآية كان بوحى ، إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخاً لما أوحى إلى داود .

وفى الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى ، وإن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته ، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوما ولاذما لعدم إصابته .

كما أثنى ـ سبحانه ـ على سليمان بالإصابة فى قوله « ففهمناها سليمان ، وأثنى عليهما فى قوله : « وكلا آتينا حكما وعلما » .

فدل قوله « إذ يحكمان » على أنهما حكما فيها معاً ، كل منهما بحكم مخالف للحكم الآخر ، ولو كان وحياً لما ساغ الخلاف . ثم قال : « ففهمناها سليمان » فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود ، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهما إياها كما ترى .

فقوله : « إذ يحكمان » مع قوله « ففهمناها سليمان » قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد ، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك .

والقرينة الثانية : هى أن قوله ـ تعالى ـ « ففهمناها . . » تدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع ، لا أنه ـ تعالى ـ أنزل عليه فيها وحياً جديد ناسخاً ، لأن قوله ـ تعالى ـ : « ففهمناها » أليق بالأول من الثانى كما ترى . . . »(٢) .

ثم بين ـ سبحانه ـ نماذج من النعم التى أنعم بها على داود ـ عليه السلام ـ فقال : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . . . » .

والتسخير : التذليل أى : وجعلنا الجبال والطير يسبحن الله ـ تعالى ـ ويقدسنه مع داود ، امتثالا لأمره ـ سبحانه ـ .

قال ابن كثير : « وذلك لطيب صوته ، بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٥٩٩ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويبا. ولهذا لما مر النبى - صلى الله عليه وسلم - على أبى موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب، فوقف واستمع إليه وقال: لقد أوتى هذا من مزامير آل داود[1].

وقال صاحب الكشاف: «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب، وأدل على القدرة، وأدخل فى الإعجاز، لأنها جماد، والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهى تجاوبه. وقيل: كانت تسير معه حيث سار...»[2].

وتسبيح الجبال والطير مع داود - عليه السلام - هو تسبيح حقيقى، ولكن بكيفية يعلمها الله - تعالى - كما قال - سبحانه -: «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شىء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم...»[3].

وشبيه بالآية التى معنا قوله - تعالى -: «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد...»[4].

وقوله - سبحانه - «اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب. إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق. والطير محشورة كل له أواب»[5].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: «وكنا فاعلين» أى: وكنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطير معه يسبحن الله وينزهنه عن كل سوء، على سبيل التكريم له، والتأييد لنبوته، إذا أن قدرتنا لا يعجزها شىء، سواء أكان هذا الشىء مألوفا للناس أم غير مألوف.

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٥ ص ٣٥٢ (٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٢٩
(٣) سورة الإسراء آية ٤٤ (٤) سورة سبأ آية ١٠
(٥) سورة ص الآيات ١٧ - ١٩

وقوله - تعالى - : «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون» بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم الله بها على داود.

واللبوس: كل ما يلبس كاللباس والملبس: والمراد به هنا: الدروع.

أى: وبجانب مامنحنا داود من فضائل، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان، وهذه الصناعة التى علمناه إياها بمهارة وجودة «لتحصنكم من بأسكم».

أى: لتجعلكم فى حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب. وتقى بعضكم من بأس بعض، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف، وطعنات الرماح.

يقال: أحصن فلان فلانا، إذا جعله فى حرز وفى مكان منيع من العدوان عليه.

والاستفهام فى قوله: «فهل أنتم شاكرون» للتحضيض والأمر. أى: فاشكروا الله - تعالى - على هذه النعم، بأن تستعملوها فى طاعته - سبحانه -.

قال القرطبى - رحمه الله -: «وهذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب. لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله فى خلقه، فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة، وقد أخبر الله - تعالى - عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع وكان - أيضاً - يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثا، ونوح نجارا، ولقمان خياطا، وطالوت دباغا... فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها على نفسه الضرر والبأس. وفى الحديث إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف، ويبغض السائل الملحف»[1].

---

(١) تفسير القرطبى ج١١ ص ٣٢١.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من نعمه على سليمان بن داود فقال : « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ... » .

وقوله : « ولسليمان الريح ... » معطوف على معمول « سخرنا » فى قوله - تعالى - قبل ذلك : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن » وعاصفة حال من الريح .

أى : وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى : شديدة الهبوب ، كما سخرنا مع أبيه الجبال يسبحن والطير .

يقال : عصفت الريح تعصف، إذا اشتدت . فهى عاصف وعاصفة وعصوف. سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التبن .

وقوله - تعالى - : « تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها » أى : جعلناها مع قوتها وشدتها تجرى بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التى باركنا فيها وهى أرض الشام . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من أرض الشام .

ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة . وفى آية أخرى بأنها رخاء قال - تعالى - : «تجرى بأمره رخاء حيث أصاب» . لأنها تارة تكون عاصفة ، وتارة تكون لينة رخاء . على حسب ماتقتضيه حكمته - سبحانه - .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : «فإن قلت: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟

قلت : كانت فى نفسها رضية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة ، على ما قال : « غدوها شهر ورواحها شهر » ، فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها ، مع طاعتها لسليمان على حسب ما يريد ... »(١) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٠

وقال - سبحانه - هنا : « تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها » أى تجرى بأمره إلى تلك الأرض فى حال إيابه ورجوعه إليها ، حيث مقر مملكته ومسكنه . فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها فى حال عودته إلى مملكته .

أما الآية الأخرى التى تقول : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب » أى : حيث أراد لها أن تجرى ، فالمقصود منها الإخبار عن جريها بإذنه فى غير حال عودته إلى مملكته ، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين ، إذ الجهة فيهما منفكة .

وقوله - تعالى - : « وكنا بكل شىء عالمين » أى : وكنا بكل شىء يجرى فى هذا الكون عالمين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا . فإنه علم محدود بما نشاؤه ونقدره .

فالجملة الكريمة بيان لإحاطة علم الله - تعالى - بكل شىء ، والتنبيه بأن ما أعطاه الله - تعالى - لسليمان - إنما كان بإرادته - سبحانه - وعلمه .

وقوله - سبحانه - : « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ... » بيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التى امتن بها - سبحانه - على عبده ونبيه سليمان .

ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء ، ومنه الغوّاص الذى ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها .

وقوله : « من يغوصون له » فى محل نصب عطفا على معمول « سخرنا » السابق .

أى : وسخرنا - أيضا - لسليمان من يغوصون له ، أى : لأجله ، من الشياطين ، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان .

وفى التعبير بقوله : « له » إشعار بأن غوصهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم ، وإنما هم كانوا يغوصون من أجل مصلحة سليمان - عليه السلام - وبأمره .

وقوله : « ويعملون عملا دون ذلك » أى : لم تكن مهمتهم الغوص فقط وإنما كان سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب ... كما قال - تعالى - : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » ، فاسم الإشارة فى قوله « ويعملون عملا دون ذلك » يعود إلى الغوص أى : ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وكنا لهم حافظين » أى : وكنا لهؤلاء الشياطين حافظين لهم من أن يخرجوا عن طاعته . أو أن يوجد منهم فساد لما هم مسخرون له .

وتلك نعمة كبرى لسليمان - عليه السلام - حيث جعل - سبحانه - الشياطين لا يستطيعون أن يزيغوا عن أمره .

هذا وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات قصصا متعددة منها قصة بساط الريح الذى قيل إن سليمان كان يجلس عليه هو وجنده ، فيطير بهم إلى الشام فى وقت قصير ، ومنها صفة حمل الريح له ، وصفة جنوده من الجن والإنس والطير .

وقد رأينا عدم ذكر ذلك هنا ، لأنه لم يرد ما يؤيده من الآثار الصحيحة .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة أيوب - عليه السلام - وهى قصة تمثل الابتلاء بالضر فى أشد صوره . قال - تعالى - :

«وأَيُّوب إِذْ نادَى ربَّه أَنِّى مسَّنِىَ الضُّرُّ وأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فاسْتَجَبْنا لهُ فكَشفْنا ما بهِ من ضُرٍّ وآتيْناه أهْلَهُ ومِثْلَهُم معَهم ، رَحْمةً مِنْ عندِنا وذِكْرى للعابِدِينَ (٨٤) » .

قال ابن كثير : « يذكر الله - تعالى - عن أيوب - عليه السلام - ما كان قد أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية . فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده . . . ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته . . . وقد كان نبى الله أيوب غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك . . . »[1] .

وقال الآلوسى: « هو ابن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق . وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ، وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كانت بعثته قبل موسى وهارون . وقيل: بعد شعيب . وقيل: بعد سليمان . . . »[2] .

والضر - بالفتح - يطلق على كل ضرر - وبالضم - خاص بما يصيب الإنسان فى نفسه من مرض وأذى وما يشبههما .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - عبدنا أيوب - عليه السلام - وقت أن نادى ربه ، وتضرع إليه بقوله : يارب أنى أصابنى ما أصابنى من الضر والتعب ، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها .

فأنت ترى أن أيوب - عليه السلام - لم يزد فى تضرعه عن وصف حاله « أنى مسنى الضر » ووصف خالقه - تعالى - بأعظم صفات الرحمة دون أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٠٤

(٢) [illegible] الآلوسى جـ ١٨ ص ٨٨ .

يقترح شيئا أو يطلب شيئا ، وهذا من الأدب السامى الذى سلكه الأنبياء مع خالقهم - عز وجل - .

قال صاحب الكشاف: «ألطف - أيوب - فى السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب . ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان - أى فئران - بيتى على العصى !! فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا . . . »(١) .

وبعد أن دعا أيوب ربه - تعالى - بهذه الثقة ، وبهذا الأدب والإخلاص ، كانت الإجابة المتمثلة فى قوله - تعالى - : « فاستجبنا له » أى : دعاءه وتضرعه « فكشفنا ما به من ضر » أى : فأزلنا ما نزل به من بلاء فى جسده ، وجعلناه سليما معافى . بأن أمرناه أن يضرب برجله الأرض ففعل ، فنبعت له عين فاغتسل منها ، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . . . »(٢) .

وقال - تعالى - : « وآتيناه أهله ومثلهم معهم » أى : لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا ، بل استجبنا له دعاءه ، بفضلنا وكرمنا ، فأزلنا عنه المرض الذى نزل به ، ولم نكتف بهذا - أيضا - بل عوضناه عمن فقده من أولاده ، ورزقناه مثلهم معهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : «قوله : «وآتيناه أهله ومثلهم معهم . . . » أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : سألت النبى - صلى الله عليه وسلم - عن قوله : « وآتيناه أهله ومثلهم معهم » فقال : رد الله - تعالى - امرأته إليه ، وزاد فى شبابها ، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٠ .

(٢) سورة ص الآية ٤١ ، ٤٢ .

فالمعنى على هذا : آتيناه فى الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر .

وعن قتادة: إن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا فى بلائه ، وأوتى مثلهم فى الدنيا ....»(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله - تعالى - : « رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » أى : أجبنا له دعاءه ، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان الخيرات ، من أجل رحمتنا به ، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبرة وعظة وذكرى لغيره من العابدين، حتى يقتدوا به فى صبره على البلاء ، وفى المداومة على شكرنا فى السراء والضراء .

وخص - سبحانه - العابدين بالذكرى، لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحانا ، ففى الحديث الشريف : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » .

وفى حديث آخر : « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »(٢) .

وقد كان أيوب آية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .

هذا ، وقصة أيوب - عليه السلام - ستأتى بصورة أكثر تفصيلا فى سورة «ص» ، وقد تركنا هنا أقوالا عن كيفية مرضه ، وعن مدة هذا المرض ... نظرا لضعفها ، ومنافاتها لعصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من الأمراض المنفرة .

ثم أشارت السورة إشارات مجملة إلى قصة كل من إسماعيل وإدريس وذى الكفل ، قال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٣٥٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٨١ .

« وإسماعيلَ وإدريسَ وذَا الكِفلِ . كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصَّالحينَ (٨٦) » .

وإسماعيل : هو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما السلام - وهو الذبيح الذى افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم .

وإدريس : هو واحد من أنبياء الله - تعالى - . قالوا : وهو جد نوح - عليه السلام - وأنه ولد فى حياة آدم . وبعث بعد موته .

أما ذو الكفل: فقد قال الآلوسى فى شأنه ماملخصه: «ظاهر نظم ذى الكفل فى سلك الأنبياء أنه منهم ، وهذا ذهب إليه الأكثر . واختلف فى اسمه : فقيل : بشر وهو ابن أيوب ، بعثه الله - بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام ...

وقيل : هو إلياس بن ياسين وينتهى نسبه إلى هارون - عليه السلام - .

وقيل : هو زكريا والد يحيى - عليهما السلام - وسمى بذلك لكفالته مريم.

وقيل : لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا ... »(١) .

ثم مدح - سبحانه - هؤلاء الأنبياء فقال : «كل من الصابرين» أى : كل واحد منهم من عبادنا الصابرين الذين تحملوا فى سبيلنا الكثير من المصاعب والآلام .

« وأدخلناهم » بفضلنا وإحساننا « فى رحمتنا » التى وسعت كل شىء « إنهم من » عبادنا « الصالحين » لحمل رسالتنا ، وتبليغها إلى أقوامهم بصدق وصبر وأمانة .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة يونس - عليه السلام - فقال:

« وذَا النُّونِ إذ ذَهبَ مُغاضِباً فظنَّ أن لَنْ نقدِرَ عليهِ فنادَى فى

(١) تفسير الآلوسى ج١٧ ص ٨٢ .

الظُّلُماتِ أن لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ سُبحانكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمينَ (٨٧) فاستَجَبْنا لهُ ونَجَّيْناهُ من الغمِّ ، وكذلكَ نُنْجِي المؤمنينَ (٨٨) » .

والمراد بذى النون : يونس بن متى - عليه السلام - ، والنون : الحوت . وجمعه نينان وأنوان . وسمى بذلك لابتلاع الحوت له .

قال - تعالى - : «وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ...»(١)

وملخص قصة يونس «أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل - فاستعصوا عليه : فضاق بهم ذرعا ، وتركهم وهو غضبان ليذهب إلى غيرهم ، فوصل إلى شاطىء البحر ، فوجد سفينة فركب فيها ، وفى خلال سيرها فى البحر ضاقت بركابها ، فقال ربانها : إنه لابد من أن أحد الركاب يلقى بنفسه فى البحر لينجو الجميع من الغرق .. فجاءت القرعة على يونس . فألقى بنفسه فى اليم ، فالتقمه الحوت . ثم نبذه إلى الساحل بعد وقت يعلمه الله - تعالى - ، فأرسله - سبحانه - إلى قومه مرة أخرى فآمنوا ...» .

وسيأتى تفصيل هذه القصة فى سورة الصافات - بإذن الله - .

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ - عبدنا ذا النون . وقت أن فارق قومه وهو غضبان عليهم ، لأنهم لم يسارعوا إلى الاستجابة له .

قال الجمل : «وقوله : إذ ذهب مغاضبا ، أى : غضبان على قوله ، فالمفاعلة ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت ، ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة ، أى غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا فى أول الأمر»(٢).

---

(١) سورة الصافات الآيات ١٣٩-١٤٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٤٣ .

وقوله - تعالى - : « فظن أن لن نقدرعليه » بيان لما ظنه يونس - عليه السلام - حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه - عز وجل - .

أى : أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته. فظن أن لن نضيق عليه ، عقابا له على مفارقته لهم من غير أمرنا ، أو فظن أننا لن نقضى عليه بعقوبة معينة فى مقابل تركه لقومه بدون إذننا .

فقوله : « نقدر عليه » بمعنى نضيق عليه ونعاقبه . يقال : قدر الله الرزق يقدره - بكسر الدال وضمها - إذا ضيقه . ومنه قوله - تعالى - : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . . . »(١) وقوله : « وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه . . . »(٢) أى : ضيقه عليه .

ثم بين - سبحانه - ما كان يردده يونس وهو فى بطن الحوت فقال : « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

والفاء فى قوله « فنادى » فصيحة .

والمراد بالظلمات : ظلمات البحر ، وبطن الحوت ، والليل . . .

أى : خرج يونس غضبان على قومه ، فحدث له ماحدث من التقام الحوت له ، فلما صار فى جوفه المظلم ، بداخل البحر المظلم ، أخذ يتضرع إلينا بقوله : أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق للعبادة ، « سبحانك » أى : أنزهك تنزيها عظيما « إنى كنت من الظالمين » لنفسى حين فارقت قومى بدون إذن منك . وإنى أعترف بخطيىء - يا إلهى - فتقبل توبتى ، واغسل حوبتى .

هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين هنا روايات متعددة عن المدة التى مكثها يونس فى بطن الحوت ، وعن فضل الدعاء الذى

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٦ (٢) سورة الفجر الآية ١٦

تضرع به إلى الله - تعالى -، ومن ذلك مارواه ابن جرير عن سعد بن وقاص - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى. قال: قلت : يا رسول الله ، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال: هى ليونس ابن متى خاصة وللمؤمنين عامة ، إذا دعوا بها . ألم تسمع قول الله - تعالى - : « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين » فهو شرط من الله لمن دعاه به[1] .

ثم بين - سبحانه - أنه قد أجاب ليونس دعاءه فقال : «فاستجبنا له» أى : دعاءه وتضرعه « ونجيناه من الغم » أى : من الحزن الذى كان فيه حين التقمه الحوت وصار فى بطنه .

وقد بين - سبحانه - فى آية أخرى ، أن يونس - عليه السلام - لولم يسبح الله للبث فى بطن الحوت إلى يوم البعث . قال - تعالى - : « فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » .

وقوله - تعالى - : « وكذلك ننجى المؤمنين » بشارة لكل مؤمن يقتدى بيونس فى إخلاصه وصدق توبته ، ودعائه لربه .

أى : ومثل هـذا الإنجاء الذى فعلناه مع عبـدنا يونس ، ننجى عبادنا المؤمنين من كل غم ، متى صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا فى دعائهم .

• • •

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من قصة زكريا ويحيى فقـال - تعالى - :

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٧ ص ٦٥ .

« وزكريّا إذ نادَى ربَّه ربِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وأنتَ خيرُ الوارِثينَ (٨٩) فاستَجَبْنا لهُ ووهَبْنا له يَحيى ، وأصْلَحْنا لهُ زوْجَهُ ، إنَّهم كانوا يسارِعُون فى الخيراتِ ويدعُوننَا رغَباً ورهَباً ، وكانوا لَنا خاشِعينَ (٩٠) »

وزكريا هو ابن آزن بن بركيا ، ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - ، وكان عيسى قريب العهد به ، حيث كفل زكريا مريم أم عيسى .

أى : واذكر - أيها المخاطب - حال زكريا - عليه السلام - وقت أن نادى ربه وتضرع إليه فقال : يارب لاتتركنى فردا أى : وحيداً بدون ذرية «وأنت خير الوارثين» أى : وأنت خير حى باق بعد كل الأموات .

فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه فقال : «فاستجبنا له» أى : دعاءه وتضرعه .

«ووهبنا له» بفضلنا وإحساننا ابنه «يحيى» - عليهما السلام - .

«وأصلحنا له زوجه» بأن جعلناها تلد بعد أن كانت عقيما تكريما له ورحمة به .

وقوله : «إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات» تعليل لهذا العطاء الذى منحه - سبحانه - لأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - . والضمير فى «إنهم» يعود للأنبياء السابقين . وقيل : يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى .

أى : لقد أعطيناهم ما أعطيناهم من ألوان النعم ، لأنهم كانوا يبادرون فى فعل الخيرات التى ترضينا ، ويجتهدون فى أداء كل قول أو عمل أمرناهم به . «ويدعوننا رغبا ورهبا» أى : ويجأرون إلينا بالدعاء ، راغبين فى آلائنا ونعمنا وراهبين خائفين من عذابنا ونقمنا .

فقوله « رغبا ورهبا » مصدران بمعنى اسم الفاعل ، منصوبان على الحال، وفعلهما من باب « طرب » « وكانوا لنا خاشعين » أى : مخبتين متضرعين لا متكبرين ولا متجبرين .

وبهذه الصفات الحميدة ، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا .

* * *

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء الكرام ، بذكر جانب من قصة مريم وابنها عيسى فقال :

« والتى أَحْصَنَتْ فَرْجها فَنَفَخْنا فيها مِنْ رُوحِنا وجَعلْنَاها وابْنَها آيةً لِلعَالمِينَ (٩١) » .

وقوله : « أحصنت » من الإحصان بمعنى المنع ، يقال : هذه درع حصينة أى : مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال: هذه امرأة حصينة، أى : مانعة نفسها من كل فاحشة بسبب عفتها أو زواجها .

أى : واذكر - أيضا - أيها المخاطب خبر مريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، أى : حفظته ومنعته من النكاح منعا كليا . والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عن السوء .

« فنفخنا فيها من روحنا » أى : فنفخنا فيها من جهة روحنا، وهو جبريل - عليه السلام - حيث أمرناه بذلك فامتثل أمرنا، فنفخ فى جيب درعها، فكان بذلك عيسى ابنها ، ويؤيد هذا التفسير قوله - تعالى - فى سورة مريم : « قال - أى جبريل لمريم - « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » .

أى : لأكون سببا فى هبة الغلام لك عن طريق النفخ فى درعك فيصل هذا النفخ إلى الفرج فيكون الحمل بعيسى بإذن الله وإرادته .

والمراد بالآية فى قوله - سبحانه - : «وجعلناها وابنها آية للعالمين» : الأمر الخارق للعادة، الذى لم يسبقه ولم يأت بعده ما يشابهه .

أى : وجعلنا مريم وابنها عيسى آية بينة، ومعجزة واضحة دالة على كمال قدرتنا للناس جميعا، إذ جاءت مريم بعيسى دون أن يمسها بشر، ودون أن تكون بغيا .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : هلا قيل آيتين كما قال - سبحانه - : «وجعلنا الليل والنهار آيتين» ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة . وهى ولادتها إياه من غير فحل»[1] .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص عدد كبير من الأنبياء فى سورة الأنبياء، عقب - سبحانه - على ذلك ببيان أنهم - عليهم السلام - قد جاءوا بعقيدة واحدة، هى إخلاص العبادة لله - تعالى - فقال :

«إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)» .

ولفظ الأمة يطلق بإطلاقات متعددة . يطلق على الجماعة كما فى قوله - تعالى - «ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون . . . » . ويطلق على الرجل الجامع للخير، كما فى قوله - تعالى - : «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا . . . » . ويطلق على الحين والزمان، كما فى قوله - سبحانه - : «وقال الذى نجا منهما واذكر بعد أمة . . » أى وتذكر بعد حين من الزمان .

والمراد بالأمة هنا : الدين والملة . كما فى قوله - تعالى - : «إنا وجدنا آباءنا على أمة . . . » أى : على دين وملة معينة .

والمعنى : إن ملة التوحيد التى جاء بها الأنبياء جميعا، هى ملتكم ودينكم أيها الناس، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبياء، وأن تخلصوا لله - تعالى -

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٢ .

العبادة والطاعة ، فهو - سبحانه - ربكم ورب كل شيء ، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد الذى جاء به الرسل ، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خالفهم فقال :

« وتقطَّعوا أمرَهم بينَهم . كلٌّ إلينا راجعُون (٩٣) فَمَنْ يعمَلْ من الصَّالحاتِ وهو مُؤمِنٌ فلا كُفرانَ لسَعْيِه وإنَّا لهُ كاتِبُون (٩٤) وحرامٌ عَلَى قريةٍ أهلَكناهَا أنَّهم لا يرجِعُونَ (٩٥) حتَّى إذا فُتِحَت يأجُوجُ ومأجوجَ وهُمْ من كلِّ حدَبٍ ينسِلُون (٩٦) واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هِيَ شاخِصَةٌ أبصارُ الذينَ كفرُوا ياوَيلنَا قد كنَّا فى غَفلةٍ من هذا بلْ كنَّا ظالمِينَ (٩٧) إنكُم وما تعبدُونَ من دُونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّم أنتُم لهَا وارِدُونَ (٩٨) لو كانَ هَؤلاءِ آلهةً ما ورَدُوها وكلٌّ فيها خالدُونَ (٩٩) لهمْ فيها زفيرٌ وهُمْ فيها لا يَسْمعونَ (١٠٠) » .

والضمير فى قوله - تعالى - : «وتقطعوا . . .» يعود للناس الذين تفرضوا فى شأن الدين شيعا وأحزابا . أى : وافترق الناس فى شأن الدين الحق فرقا متعددة، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا، يجازى فيه المحسن خير، ويعاقب فيه المسىء على إساءته .

وقال - سبحانه - : « فلا كفران لسعيه » بالنفى المفيد للعموم، لبيان كمال عدالته - تعالى -، وتنزيهه - عز وجل - عن ظلم أحد، أو أخذ الشىء بما يستحقه .

وعبر عن العمل بالسعى ، لإظهار الاعتداد به ، وأن صاحب هذا العمل الصالح ، قد بذل فيه جهدا مشكورا ، وسعى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته .

ثم أكد - سبحانه - بعد ذلك ماسبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب ، فقال : « وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال منها :

أن المعنى : وحرام - أى : وممتنع امتناعا تاما - على قرية أهلكنا أهلها بسبب قسوتهم عن أمرنا، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا فى الآخرة للحساب.

فالآية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة ، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، والذين آمنوا وعملوا صالحاً فى دنياهم ، الكل سيرجعون إلى الله - تعالى - ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة .

وقد أكدت الآية الكريمة رجوعهم إليه - تعالى - يوم القيامة بأسلوب بديع . حيث نفت عن الأذهان ما قد يتبادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب فى الدنيا ، قد ينجيهم من الحساب والعقاب يوم القيامة ، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد .

قال صاحب فتح القدير : «قوله «وحرام على قريه أهلكناها . . .» قرأ أهل المدينة «وحرام» ، وقرأ أهل الكوفة «وحرم» - بكسر الحاء وإسكان الراء - وهما لغتان مثل : حلال وحل ...

ومعنى «أهلكناها» : قدرنا إهلاكها . وجملة «أنهم لا يرجعون» فى محل رفع مبتدأ ، وقوله : «حرام» خبرها . . . والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء . . .»(١) .

وقال بعض العلماء : «وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ماقبلها ، و «لا» فيها على بابها . وهى مع لفظ «حرام» من قبيل نفى النفى . فيدل على الإثبات ، والمعنى : وحرام على القرية المهلكة . عدم رجوعها إلى الآخرة ، بل واجب رجوعها للجزاء ، فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث ، وتحقيق ماتقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه - سبحانه - سيحييه ويعمله يجزيه»(٢) .

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ٤٢٦ للشوكانى .
(٢) تفسير القاسمى ج ١٧ ص ٤٣٠٩ .

ومنهم من يرى أن « لا » زائدة. وأن المراد بالرجوع: رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى: وحرام على أهل قرية أهلكناهم بسبب كفرهم ومعاصيهم، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم.

ومنهم من يرى أن المراد بقوله - تعالى - « أنهم لا يرجعون »، أى: لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان.

قال صاحب الكشاف: « استعير الحرام للممتنع وجوده، ومنه قوله - تعالى -: « إن الله حرمهما على الكافرين » أى: منعهما منهم ... ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة. ومجاز الآية: إن قوما عزم الله - تعالى - على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة ... »[1].

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات، ولأنه بعيد عن التكلف، إذ أن الآية الكريمة واضحة فى بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون فى الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال - تعالى -: « قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ».

ولعل مما يؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - بعد ذلك: « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ... ».

فإن حتى هنا ابتدائية، وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها فكأنه قيل: إن هؤلاء المهلكين ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب، ويقولون عند مشاهدته: ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٣٤.

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس. قيل: مأخوذان من الأوجّة وهي الاختلاط أوشدة الحر. وقيل: من الأوج وهو سرعة الجرى.

والمراد بفتحهما: فتح السد الذى على هاتين القبيلتين، والذى يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس.

«وهم من كل حدب ينسلون» والحدب: المرتفع من الأرض كالجبل ونحوه. و «ينسلون» من النسل - بإسكان السين - وهو مقاربة الخطو مع الإسراع فى المسير، يقال: نسل الرجل فى مشيته إذا أسرع، وفعله من باب قعد وضرب.

أى: وهم - أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض، يسرعون السير إلى المحشر، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها، وقيل إن الضمير «وهم» يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر.

وقوله: «واقترب الوعد الحق ..» معطوف على «فتحت ...» أى: فتح السد الذى كان على يأجوج ومأجوج، وقرب موعد الحساب والجزاء.

قال الآلوسى: «وهو مابعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى... وهذا الفتح لسد يأجوج ومأجوج يكون فى زمن نزول عيسى من السماء، وبعد قتله الدجال.

فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث طويل: إن الله - تعالى - يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى، لا يدان لك بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور، فيبعث الله - تعالى - يأجوج ومأجوج وهم كما قال - سبحانه - «من كل حدب ينسلون» ثم يرسل الله عليهم نغفا - أى: دودا - فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة»[1].

وقوله: «فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ....» جواب الشرط وهو قوله - تعالى - قبل ذلك «إذا فتحت يأجوج ومأجوج».

والضمير «هى» للقصة والشأن. و «إذا» للمفاجأة.

---

(1) راجع تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٩٢.

قال الجمل : « قوله : « فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا .. » فيه وجهان : أحدهما ـ وهو الأجود ـ أن يكون هى ضمير القصة . وشاخصة : خبر مقدم . وأبصار: مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر لهى لأنها لاتفسر إلا بجملة مصرح بجزأيها ... »(١) .

والمعنى : لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة ، ومن خروج يأجوج ومأجوج ، ومن عودة الخلق إلينا للحساب ... ورأى المشركون كل ذلك فإذا بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفزع .

يقال : شخص بصر فلان يشخص شخوصا فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما .

وقوله : « يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا » مقول لقول محذوف .

أى : أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصو البصر : ياهلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإننا قد كنا فى الدنيا فى غفلة تامة عن هذا اليوم الذى أحضرنا فيه للحساب .

وقوله : « بل كنا ظالمين » إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة ، إلى وصفها بالظلم وتجاوز الحدود .

أى : لم نكن فى الحقيقة فى غفلة عن هذا اليوم وأهواله ، فقد أخبرنا رسلنا به ، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل لأننا لم نطعهم ، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم .

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة فى يوم لاينفعهم فيه ذلك .

وقوله ـ سبحانه ـ : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... » زيادة فى تقريعهم وتوبيخهم ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٤٦ .

والحصب - بفتحتين - ما تحصب به النار . أي : يلقى فيها تزداد به اشتعالا كالحصب والخشب . .

أي : إنكم - أيها الكافرون - وأصنامكم التى تعبدونها من دون الله - تعالى - وقود جهنم ، ووزادها الذى تزداد به اشتعالا .

وفى إلقاء أصنامهم معهم فى النار مع أنها لا تعقـــل ، زيادة فى حسرتهم وتبكيتهم ، حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت لم قرنوا بآلهتهم؟ قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة ، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب ، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة ، وينتفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شىء أبغض إليهم منهم »[1] .

وجملة « أنتم لها واردون » بدل من « حصب جهنم » ، أو مستأنفة .

أى : أنتم - أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون فى جهنم دخولا لا مفر لكم منه .

وجاء الخطاب بقوله « أنتم » على سبيل التغليب ، وإلا فالجميع داخلون فيها .

ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزير والملائكة ، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم ، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك ، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده .

ثم أقام - سبحانه - لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لغيره فقال : « لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها » .

أى : لو كان هؤلاء الأصنام المعبودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم أيها الكافرون - ما ألقى بهم فى النار ، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب ،

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٣٦ .

وحيث تبين لكم دخولهم إياه ، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها ، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها .

وقوله « وكل فيها خالدون » تذييل مقرر لما قبله . أى : وكل من العابدين والمعبودين باقون فى هذه النار على سبيل الخلود الأبدى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين فى جهنم فقال : « لهم فيها زفير ... » .

أى : لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر ، كما هو شأن المغموم المحزون . وأصل الزفير : ترديد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع .

« وهم فيها لا يسمعون » أى : وهم فى جهنم لا يسمعون ما يريحهم ، وإنما يسمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم ، أى: وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف .

وبعد هذا الحديث الذى ترتجف له القلوب ... أتبع القرآن ذلك بحديث آخر تسر له النفوس ، وتنشرح له الصدور ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الذينَ سبقَتْ لهم منَّا الْحُسْنَى ، أُولئك عنها مُبْعَدونَ (١٠١) لايَسْمَعُونَ حَسِيسَها وهم فيما اشْتَهَتْ أنفُسُهم خالدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ وتتلقَّاهم الملائِكة ، هذا يومُكم الذى كنتُم توعَدُونَ (١٠٣) » .

والحسنى : تأنيث الأحسن ، وصفة لموصوف محذوف .

أى : إن الذين سبقت لهم منا فى دنياهم المنزلة الحسنى بسبب إيمانهم الخالص وعملهم الصالح ، وقولهم الطيب .

« أولئك » الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ، « عنها مبعدون » أى : عن ... بفضل الله - تعالى - ورحمته .

وقوله : «لا يسمعون حسيسها» تأكيد لبعدهم عن النار . وأصل الحسيس الصوت الذى تسمعه من شىء يمر قريبا منك .

أى : هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين سبقت لهم من خالقهم الدرجة الحسنى لا يسمعون صوت النار ، الذى يحس من حركة لهيبها وهيجانها ، لأنهم قد استقروا فى الجنة ، وصاروا فى أمان واطمئنان .

وقوله - سبحانه - : «وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون» بيان لفوزهم بأقصى ما تتمناه الأنفس بعد بيان بعدهم عن صوت النار .

أى : وهم فيما تتمناه أنفسهم ، وتشتهيه أفئدتهم ، وتنشرح له صدورهم ، خالدون خلودا أبديا لا ينغصه حزن أو انقطاع .

وقوله - تعالى - : «لا يحزنهم الفزع الأكبر ...» بيان لنجاتهم من كل ما يفزعهم ويدخل القلق على نفوسهم .

أى : إن هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى ، لا يحزنهم ما يحزن غيرهم من أهوال يشاهدونها ويحسونها فى هذا اليوم العصيب ، وهو يوم القيامة وما يشتمل عليه من مواقف متعددة . فالمراد بالفزع الأكبر : الخوف الأكبر الذى يعترى الناس فى هذا اليوم .

وفضلا عن ذلك فإن الملائكة تستقبلهم بفرح واستبشار ، فتقول لهم على سبيل التهنئة : «هذا يومكم الذى كنتم توعدون» به فى الدنيا من خالقكم - عز وجل - فى مقابل إيمانكم وعملكم الصالح .

قالو : وهذا الاستقبال من الملائكة للمؤمنين ، يكون على أبواب الجنة ، أو عند الخروج من القبور .

ثم ختم - سبحانه - سورة الأنبياء ببيان جانب من أحوال هذا الكون يوم القيامة ، وببيان سنته فى خلقه ، وببيان نعمه على عباده ، وببيان ما أمر به نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

« يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه ، وعداً عَلَيْنا إنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠٤) ولقد كَتَبْنَا في الزَّبُورِ من بَعْدِ الذِّكرِ أن الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالحونَ (١٠٥) إنَّ في هذا لَبلاغاً لِقومٍ عابِدِينَ (١٠٦) وما أرسَلْناكَ إلا رحمةً لِلعالَمِينَ (١٠٧) قلْ إنَّما يُوحِي إليَّ أنَّما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فهلْ أنتُمْ مُسلِمون (١٠٨) فإنْ تَوَلَّوا فَقُلْ آذَنتُكم على سواء ، وإن أَدْرِي أَقَرِيبٌ أم بعيدٌ ما تُوعَدُونَ (١٠٩) إنَّه يعلَمُ الجهرَ من القولِ ويعلَمُ ما تَكتُمونَ (١١٠) وإنْ أَدْرِي لعلَّهُ فِتْنَةٌ لكُم ومتاعٌ إلى حِينٍ (١١١) قالَ ربِّ احكُم بالحقِّ وربُّنا الرَّحمنُ المستعانُ على ما تَصِفُونَ (١١٢) » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب . . . » الظرف فيه منصوب بقوله ـ تعالى ـ قبل ذلك « لا يحزنهم الفزع الأكبر » أو بقوله ـ سبحانه ـ : « وتتلقاهم الملائكة » .

وقوله : « نطوى » من الطى وهو ضد النشر . والسجل : الصحيفة التى يكتب فيها .

والمراد بالكتب : ما كتب فيها من الألفاظ والمعانى ، فالكتب بمعنى المكتوبات . واللام بمعنى على .

والمعنى : إن الملائكة تتلقى هؤلاء الأخيار الذين سبقت لهم من الله ـ تعالى ـ الحسنى بالفرح والسرور ، يوم يطوى ـ سبحانه ـ السماء طيا مثل طى الصحيفة على ما فيها من كتابات .

وفى هذا التشبيه إشعار بأن هذا الطى بالنسبة لقدرته ـ تعالى ـ فى منتهى السهولة واليسر ، حيث شبه طى السماء بطى الصحيفة على ما فيها .

وقيل : إن لفظ « السجل » اسم لملك من الملائكة ، وهو الذى يطوى كتب أعمال الناس بعد موتهم . . .

والإضافة فى قوله « كطى السجل » من إضافة المصدر إلى مفعوله والجار والمجرور صفة لمصدر مقدر . أى : نطوى السماء طيا كطى الرجل أو الملك الصحيفة على ما كتب فيها .

وقرأ أكثر القراء السبعة : « للكتاب » بالإفراد . ومعنى القراءتين واحد لأن المراد به الجنس فيشمل كل الكتب .

وقوله ـ تعالى ـ : « كما بدأنا أول خلق نعيده » بيان لصحة الإعادة قياسا على البدء ، إذ الكل داخل تحت قدرته ـ عز وجل ـ .

أى : نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا إياه ، دون أن ينالنا تعب أو يمسنا لغوب ، لأن قدرتنا لا يعجزها شىء : قال ـ تعالى ـ : «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . . . » .

قال صاحب الكشاف : « وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه ؟ قلت : أوله إيجاده من العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم . يعيده ثانيا من عدم » .

وقوله ـ تعالى ـ : « وعدا علينا إنا كنا فاعلين » تأكيد للإعادة . ولفظ « وعدا » منصوب بفعل محذوف . و « علينا » فى موضع الصفة له .

أى : هذه الإعادة وعدنا بها وعدا كائنا علينا باختيارنا وإرادتنا ، إنا كنا محققين هذا الوعد ، وقادرين عليه ، والعاقل من يقدم فى دنياه العمل الصالح الذى ينفعه عند بعثه للحساب .

ثم ساق ـ سبحانه ـ سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

والمراد بالزبور : الكتاب المزبور أى : المكتوب ، مأخوذ من قولهم : زبرت الكتاب إذا كتبته .

ويشمل هنا جميع الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور .

والمراد بالذكر : اللوح المحفوظ الذى هو أم الكتاب .

وقيل : المراد بالزبور : كتاب داود خاصة . وبالذكر التوراة ، أو العلم.

والمقصود بالأرض هنا : أرض الجنة .

فيكون المعنى : ولقد كتبنا فى الكتب السماوية ، من بعد كتابتنا فى اللوح المحفوظ . أن أرض الجنة نورثها يوم القيامة لعبادنا الصالحين .

وهذا القول يؤيده قوله - تعالى - فى شأن المؤمنين : « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين »[1] .

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالأرض هنا : أرض الدنيا فيكون المعنى :

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن هذه الأرض التى يعيش عليها الناس مؤمنهم وكافرهم ، ستكون فى النهاية لعبادنا الصالحين .

قال الآلوسى ما ملخصه : « أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد بالأرض فى الآية : أرض الجنة ، وإنها الأرض التى يختص بها الصالحون . لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع ، وأن الآية ذكرت عقب ذكر الإعادة وليس بعدها أرض يستقر عليها الصالحون ، ويمتن الله بها عليهم سوى أرض الجنة .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن المراد بها أرض الدنيا يرثها المؤمنون . ويستولون عليها .

(١) سورة الزمر الآية ٧٤ .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى عن ثوبان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله - تعالى - زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها ... »[1] .

ويبدو لنا أن لا مانع من أن يكون المراد بالأرض التى يرثها العباد الصالحون ، ما يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا ، لأنه لم يرد نص يخصص أحد المعنيين .

وقد سار على هذا التعميم الإمام ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الآية : « يقول الله - تعالى - مخبرا عما قضاه لعباده الصالحين ، من السعادة فى الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة، كقوله - تعالى - «إن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وقال - سبحانه - : إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

وأخبر - تعالى - أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية ، فهو كائن لا محالة ، ولهذا قال : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ... »[2] .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين» يعود على القرآن الكريم الذى منه هذه السورة .

والبلاغ : الشىء الذى يكفى الإنسان الوصول إلى غايته . يقال : فى هذا الشىء بلاغ أى : كفاية أو سبب لبلوغ المقصد .

أى : إن فى هذا القرآن ، وفيما ذكر فى هذه السورة من آداب وهدايات، وعقائد وتشريعات ، لبلاغا وكفاية فى الوصول إلى الحق ، لقوم عابدين .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٥ ص ٣٨٠ .

وخص العابدين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بتوجيهات القرآن الكريم ، إذ العابد لله - تعالى - بإخلاص ، يكون خاشع القلب ، نقى النفس ، مستعدا للتلقى والتدبر والانتفاع .

ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر فضله على الناس أن أرسل إليهم نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون رحمة لهم فقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن .

وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم متى اتبعوك ، واستجابوا لما جئتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أوتنهاهم عنهم .

وفى الحديث الشريف : « إنما أنا رحمة مهداة » فرسالته - صلى الله عليه وسلم - رحمة فى ذاتها ، ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذى ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد وضح هذا المعنى فقال: «أرسل - صلى الله عليه وسلم - » رحمة للعالمين ، لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه . ومن خالف ولم يتبع ، فإنما أتى من عند نفسه ، حيث ضيع نصيبه منها . ومثاله: أن يفجر الله عينا غديقة - أى : كبيرة عذبة - ، فيسقى ناس زروعهم، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا . فالعين المفجرة فى نفسها نعمة من الله - تعالى - ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه،حيث حرمها ما ينفعها »(١) .

ثم أمر الله - تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الناس بأن رسالته لحمتها وسداها الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده فقال : « قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ... » .

---

(١) [illegible] الكشاف [illegible]

أى : قل - يا محمد - للناس : إن الذى أوحاه الله - تعالى - إلى من تكاليف وهدايات وعبادات وتشريعات . . . تدور كلها حول إثبات وحدانيته - سبحانه - ووجوب إخلاص العبادة له وحده .

قال الآلوسى - رحمه الله - : ذهب جماعة إلى أن فى الآية حصرين . الأول : لقصر الصفة على الموصوف . والثانى : لقصر الموصوف على الصفة . فالأول : قصر فيه الوحى على الوحدانية .

والثانى : قصر الله - تعالى - على الوحدانية . والمعنى : ما يوحى إلى إلا اختصاص الله بالوحدانية ، ومعنى هذا القصر أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه ، أو غير منظور إليه فى جانبه . . . »(١) .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : « فهل أنتم مسلمون » للتحضيض . أى : ما دام الأمر كما ذكر لكم فأسلموا لتسلموا .

ثم أرشد - سبحانه - النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يقوله للناس فى حال إعراضهم عن دعوته ، فقال : « فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء . . . » .

وآذنتكم : من الإيذان بمعنى الإعلام والإخبار . ومنه الأذان للصلاة بمعنى الإعلام بدخول وقتها

قال بعضهم : آذن منقول من أذن إذا علم ، ولكنه كثر استعماله فى إجرائه مجرى الإنذار والتحذير »(٢) .

أى : فإن أعرضوا عن دعوتك - أيها الرسول الكريم - فقل لهم : لقد أعلمتكم وأخبرتكم بما أمرنى ربى أن أعلمكم وأخبركم به ، ولم أخص أحدا منكم بهذا الإعلام دون غيره ، وإنما أخبرتكم جميعا « على سواء » أى : حال كونكم جميعا مستوين فى العلم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٠٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ...

فقوله : « على سواء » في موضع الحال من المفعول الأول لآذنتكم . أى : فقد أعلمتكم ما أمرنى ربى به حالة كونهم مستوين فى هذا العلم .

ويجوز أن يكون الجار والمجرور فى موضع الصفة لمصدر مقدر . أى : فقد آذنتكم إيذانا على سواء .

وقوله - تعالى - : « وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون » إرشاد منه - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يقوله لهم - أيضا - فى حال إعراضهم عن دعوته .

و « إن » نافية . أى : فإن أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، فقل لهم : لقد أعلمتكم جميعا بما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وإنى بعد هذا التبليغ والتحذير ما أدرى وما أعرف ، أقريب أم بعيد ماتوعدون به من العذاب ، أو من غلبة المسلمين عليكم ، أو من قيام الساعة ، فإن علم ذلك وغيره إلى الله - تعالى - وحده ، وما أنا إلى مبلغ عنه .

فهو - سبحانه - الذى يعلم ماتجهرون به وماتسرونه من أقوال وأعمال . ويعلم - أيضا - ما تكتمونه فى نفوسكم من كفر وجحود وكراهيـــة لى ولأتباعى ، وسيعاقبكم - سبحانه - على ذلك العقاب الذى تستحقونه .

وقوله - سبحانه - : « وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » زيادة فى تأكيد أن علم ما سينزل بهم من عقاب مرده إلى الله - تعالى - وحده .

أى : وإنى - أيضا - ما أدرى ، لعل تأخير عقابكم - بعد أن أعرضتم عن دعوتى - باب الامتحان والاختبار لكم ، أو من باب الاستدراج لكم إلى حين مقدر عنده - سبحانه - ، ثم يأخذكم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

وفى إسناد علم ماسينزل بهم إلى الله - تعالى - وحده ، تخويف لهم أى : تخويف ، وأدب ليس بعده أدب من النبى - صـــلى الله عليه وسلم - مع الله - عز وجل - .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : «قال رب احكم بالحق، وربنا الرحمن المستعان» أي : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو يتضرع إلى ربه : رب احكم بيني وبين هؤلاء الذين آذنتهم على سواء بالحق «وربنا الرحمن» أي : الكثير الرحمة على عباده «المستعان» أي : المطلوب منه العون «على ماتصفون» أي : على ماتصفونه بألسنتكم من أنواع الكذب والزور والبهتان .

وقرأ أكثر القراء السبعة «قل رب احكم بالحق ...» بصيغة الأمر . وهذه القراءة تدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أمره الله - تعالى - أن يقول ذلك .

وصيغة «قال ...» تدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد امتثل أمر ربه، فقال ما أمره بقوله .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام - نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه، ونافعا لعباده

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة . مدينة نصر — د . محمد سيد طنطاوى

الجمعة ١٧/١/١٤٠٥ هـ - ١٢/١٠/١٩٨٤ م

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الأنبياء »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة والتمهيد	٢٢٩
١	اقترب للناس حسابهم ...	٢٣٥
٧	وما أرسلنا قبلك إلا رجالا ...	٢٤٢
١٠	لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ...	٢٤٤
١٦	وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ...	٢٥٠
٢١	أم اتخذوا آلهة من الأرض ...	٢٥٣
٢٦	وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ...	٢٥٧
٣٠	أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا	٢٦٠
٣٤	وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد ...	٢٦٦
٤٢	قل من يكلؤكم بالليل والنهار ...	٢٧٤
٤٨	ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ...	٢٨١
٥١	ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ...	٢٨٣
٥٩	قالوا من فعل هذا بآلهتنا ...	٢٨٨
٦٦	قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم ...	٢٩٢
٧٤	ولوطا آتيناه حكما وعلما ...	٢٩٧
٧٦	ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ...	٢٩٩
٧٨	وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ...	٣٠٠
٨٣	وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ...	٣٠٩
٨٥	وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ...	٣٠٢
٨٧	وذا النون إذ ذهب مغاضبا	٣١٢
٨٩	وزكريا إذ نادى ربه ...	٣١٦
٩١	والتى أحصنت فرجها ...	٣١٧
٩٢	إن هذه أمتكم أمة واحدة ...	٣١٨
٩٣	وتقطعوا أمرهم بينهم ...	٣١٩
١٠١	إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ...	٣٢٥
١٠٤	يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ...	٣٢٧

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الحج

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتى جمهورية مصر العربية

الجزء السابع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه

أما بعد : فهذا تفسير لسورة الحج ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، إنه - سبحانه - أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المؤلف

د / محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة الحج

١ – سورة الحج هى السورة الثانية والعشرون فى ترتيب المصحف . وعدد آياتها ثمان وتسعون آية فى المصحف الكوفى ، وسبع وتسعون فى المكى وخمس وتسعون فى البصرى ، وأربع وتسعون فى الشامى .

وسميت بسورة الحج ، لحديثها بشىء من التفصيل عن أحكام الحج .

٢ – ومن العلماء من يرى أنها من السور المكية ، ومنهم من يرى أنها من السور المدنية .

والحق أن سورة الحج من السور التى فيها آيات مكية ، وفيها آيات مدنية فمثلا : الآيات التى تتحدث عن الإذن بالقتال ، من الواضح أنها آيات مدنية ، لأن القتال شرعه الله - تعالى - بالمدينة ، وكذلك الآيات التى تتحدث عن أحكام الحج ، لأن الحج فرض بعد الهجرة .

قال الآلوسى بعد أن ذكر أقوال العلماء فى ذلك : « والأصح أن سورة الحج مختلطة ، فيها آيات مدنية ، وفيها آيات مكية ، وإن اختلف فى التعيين ، وهو قول الجمهور »[١] .

وقال بعض العلماء : « والذى يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية وجو السور المكية . فموضوعات التوحيد ، والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث ، وإنكار الشرك ، ومشاهد القيامة ، وآيات الله المبثوثة فى صفحات الكون ... بارزة فى السورة . وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد العدوان ، والأمر بالجهاد فى سبيل الله »[٢] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١١٠ . (٢) فى ظلال القرآن ج ١٧ ص ٥٨٥

٣ — وقد افتتحت السورة الكريمة افتتاحا ترتجف له النفوس ، حيث تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ...

قال ـ تعالى ـ « ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

٤ - وبعد أن ساقت السورة الكريمة نماذج متنوعة لأحوال الناس فى هذه الحياة ، وأقامت الأدلة على أن البعث حق ... أتبعت ذلك ببشارة المؤمنين بما يشرح صدورهم .

قال ـ تعالى ـ : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، إن الله يفعل ما يريد » .

ثم بينت السورة الكريمة أن كل شيء فى هذا الكون يسجد لله ـ تعالى ـ وأن كثيرا من الناس ينال الثواب بسبب إيمانه وعمله الصالح ، وكثيرا منهم يصيبه العقاب بسبب كفره وفسوقه .

قال ـ تعالى ـ : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء » .

٥ — وبعد أن عقدت السورة الكريمة مقارنة بين خصمين اختصموا فى ربهم ، وبينت عاقبة كل منهما ... أتبعت ذلك بحديث مفصل عن فريضة الحج . فذكرت سوء عاقبة الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، كما بينت أن الله ـ تعالى ـ قد أمر نبيه إبراهيم بأن يؤذن للناس بالحج ، لكى يشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ، كما بشرت الذين يعظمون حرمات الله بالخير وحسن الثواب ، ووصفت من يشرك بالله بأنه « كأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

ثم ختمت حديثها عن فريضة الحج ببيان أن الهدى الذى يقدمه الحجاج هو من شعائر الله ، فعليهم أن يقدموه بإخلاص وسخاء ، وأن يشكروا الله - تعالى - على نعمه .

قال - تعالى - : والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين » .

ثم بينت السورة أن الله - تعالى - قد شرع لعباده المؤمنين الجهاد فى سبيله ، وبشرهم بأنه معهم يدافع عنهم ، ويجعل العاقبة لهم ، فقال - تعالى - « إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ... » .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه .

قال - تعالى - : « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ، ثم أخذتهم فكيف كان نكير » .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله بأن يمضى فى طريقه دون أن يهتم بأذى المشركين ، وأن يجابههم بكلمة الحق بدون خوف أو وجل ، فقال - تعالى - « قل ياأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » .

٧ — وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر حكمته فى هداية من اهتدى ، وفى

ضلال من ضل ، أتبع ذلك بحديث مستفيض عن ألوان نعمه على خلقه ، فقال - تعالى - :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، إن الله لطيف خبير . . . ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور . . . » .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بندائين : أحدهما : وجهه إلى الناس جميعاً ، وبين لهم فيه ، أن الذين يعبدونهم من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له .

والثانى : وجهه - سبحانه - إلى المؤمنين ، وأمرهم فيه بمداومة الركوع والسجود والعبادة له - عز وجل - وبالمواظبة على فعل الخير وعلى الجهاد فى سبيله .

قال - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » .

٩ - هذا : والمتأمل فى هـــذه السورة الكريمة ، يرى أن من أن أبرز ما اهتمت بالحديث عنه ما يأتى :

(ا) بيان أنواع النـاس فى هذه الحياة ، وعاقبة كل نوع . نرى ذلك واضحا فى قوله - تعالى - :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد » .

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة » .

(ب) إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى أن البعث حق، بأسلوب منطقى واضح ، يقنع العقول ، ويهدى القلوب .

نرى ذلك فى قوله - تعالى - : « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » .

(حـ) الحديث المفصل عن فريضة الحج ، وما اشتملت عليه هذه الفريضة من منافع وآداب وأحكام .

(د) المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، نرى ذلك فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم » .

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير »

(هـ) بيان سنن الله فى خلقه ، والتى من أعظمها : دفاعه عن المؤمنين ،

ونصره لهم، ترى ذلك فى مثل قوله ـ تعالى ـ : «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» «ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز».

والتى من أعظمها — أيضا — عدم إخلاف وعده. قال — تعالى — : «ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون. وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير».

(و) يمتاز أسلوب السورة ـ فى مجموعة ـ بالقوة والعنف، والشدة والرهبة، والإنذار والتحذير، وغرس التقوى فى القلوب بأسلوب تخشع له النفوس.

نرى ذلك فى كثير من آياتها، ومن ذلك، قوله ـ تعالى ـ :

«يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد».

وقوله ـ تعالى ـ : «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق».

وقوله ـ تعالى ـ : «فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم. يصهر به مافى بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد».

وقوله ـ سبحانه ـ : «فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور».

وبجانب هذه الشدة فى الأسلوب، نرى فى السورة ـ أيضا ـ أسلوبا آخر فيه من اللين والرقة والبشارة للمؤمنين مافيه، ويكفيك قوله ـ تعالى ـ :

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد » .

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين ، وأن يحشرنا معهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

التفسير

قال الله تعالى : « يأيها الناسُ اتقُوا ربكُم إنّ زَلزَلةَ الساعَةِ شيءٌ عظيمٌ (١) يومَ تَروْنَها تَذهَل كلُّ مُرضعةٍ عمَّا أرضَعتْ ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَملٍ حَملها ، وترى الناسَ سكَارى وما همْ بسُكارى ولكنّ عذابَ اللهِ شديدٌ (٢) » .

افتتحت سورة الحج بهذا النداء الموجه من الخالق - عز وجل - إلى الناس جميعا ، يأمرهم فيه بامتثال أمره ، وباجتناب نهيه ، حتى يفوزوا برضاه يوم القيامة .

وقوله - سبحانه - : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » تعليل للأمر بالتقوى .

قال القرطبي : « الزلزلة شدة الحركة ، ومنه قوله - تعالى - : « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ... » وأصل الكلمة من زل فلان عن الموضع ، أي : زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه ، أي : حركها وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء »[١] .

وقال الآلوسي : « والزلزلة : التحريك الشديد ، والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير ، بحيث يزيل الأشياء من مقارها ، ويخرجها عن مراكزها .

وإضافتها إلى الساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله ، لكن على سبيل المجاز في النسبة كما قيل في قوله - تعالى - : « بل مكر الليل والنهار » ؛ لأن المحرك حقيقة هو الله - تعالى - ، والمفعول الأرض أو الناس ، أو من إضافته إلى

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٣ .

المفعول ، لكن على إجرائه مجرى المفعول به اتساعا كما فى قوله : « يا سارق الليلة أهل الدار ... »[١] .

والمعنى : يأيها الناس اتقوا ربكم اتقاء تاما ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل مالا يرضيه ، وبأن تسارعوا إلى فعل ما يحبه ، لأن ما يحدث فى هذا الكون عند قيام الساعة ، شىء عظيم ، ترتجف لهوله القلوب ، وتخشع له النفوس .

وقال ـ سبحانه ـ : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » بصيغة الإجمال والإبهام لهذا الشىء العظيم ، لزيادة التهويل والتخويف .

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذا الشىء العظيم تفصيلا يزيد فى وجل القلوب فقال: «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت .... » .

والضمير فى ترونها ، يعود إلى الزلزلة لأنها هى المتحدث عنها ، والظرف « يوم » منصوب بالفعل تذهل ، والرؤية بصرية لأنهم يرون ذلك بأعينهم .

والذهول : الذهاب عن الأمر والانشغال عنه مع دهشة وحيرة وخوف وقول عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ :

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

أى : أن هــذه الزلزلة من مظاهر شدتها ورهبتها ، أنكم ترون الأم بسببها تنسى وتترك وليدها الذى ألقمته ثديها . وكأنها لا تراه ولا تحس به من شدة الفزع .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت: لم قيل «مرضعة» دون مرضع ؟ قلت: المرضعة التى هى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى ، والمرضع : التى من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ، فقيل : مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هـذه ، وقد ألقمت الرضيع ثديها

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١١٠ .

نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة « عما أرضعت » عن إرضاعها : أو عن الذى أرضعته وهو الطفل ... »(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وتضع كل ذات حمل حملها » بيان لحالة ثانية تدل على شدة الزلزلة وعلى عنف آثارها .

أي : وترونها ـ أيضا ـ تجعل كل حامل تضع حملها قبل تمامه من شدة الفزع .

ثم بين ـ سبحانه ـ حالة ثالثة للآثار التى تدل على شدة هذه الزلزلة فقال: « ويرى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

أى : وترى ـ أيها المخاطب ـ الناس فى هذا الوقت العصيب ، هيئتهم كهيئة السكارى من قوة الرعب والفزع . وما هم على الحقيقة بسكارى ، لأنهم لم يشربوا مايسكرهم ولكن عذاب الله شديد . أى : ولكن شدة عذابه ـ سبحانه ـ هى التى جعلتهم بهذه الحالة التى تشبه حالة السكارى فى الذهول والاضطراب ،

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال : « وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن مارهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذى أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ... » .

وقد علق صاحب الانتصاف على عبارة صاحب الكشاف هذه فقال : قال أحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك :زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحمار ، فتنفى عنه الحقيقة ، فكذلك الآية ، بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء . والسر فى تأكيده : التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى تلك الحالة ليس من المعهود فى شىء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا مثله من قبل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٤٢ .

والاستدراك بقوله «ولكن عذاب الله شديد» راجع إلى قوله: «وما هم بسكارى»، وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى، فكأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال: شدة عذاب الله تعالى ...»[1].

هذا، وقد اختلف العلماء فى وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا، فمنهم من يرى أنها تكون فى آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة، ومنهم من يرى أنها تكون يوم القيامة، بعد خروج الناس من قبورهم للحساب.

وقد وفى هذه المسألة حقها الإمام ابن كثير فقال ماملخصه: «قال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا. وأول أحوال الساعة.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور».

ثم ساق - رحمه الله - سبعة أحاديث استدل بها أصحاب الرأى الثانى.

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الله - تعالى - يوم القيامة: يا آدم. فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار، قال يارب، وما بعث النار؟ قال من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم.

فقال - صلى الله عليه وسلم -: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد، ثم أنتم فى الناس كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود،

(١) تفسير الكشاف وحاشيته ج٣ ص١٤٢.

وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا »[1].

وعلى الرأى الأول تكون الزلزلة بمعناها الحقيقى، بأن تتزلزل الأرض وتضطرب، ويعقبها طلوع الشمس من مغربها، ثم تقوم الساعة.

وعلى الرأى الثانى تكون الزلزلة المقصود بها شدة الخوف والفزع، كما فى قوله ـ تعالى ـ فى شأن المؤمنين بعد أن أحاطت بهم جيوش الأحزاب: « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً »، فالمقصود: أصيبوا بالفزع والخوف، وليس المقصود أن الأرض تحركت واضطربت من تحتهم.

وبعد هذا الافتتاح الذى يغرس الخوف فى النفوس، ويحملها على تقوى الله وخشيته. ساقت السورة حال نوع من الناس يجادل بالباطل، ويتبع خطوات الشيطان، فقال ـ تعالى ـ:

« ومن النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فى الله بغير علمٍ ويتَّبِعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ (٣) كُتِبَ عليْهِ أنَّه مَن تولَّاه فأنَّه يُضِلُّه ويَهْدِيه إلى عذابِ السَّعيرِ (٤) ».

و « من » فى قوله « ومن الناس » للتبعيض، وقوله « يجادل » من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمخاصمة والمغالبة، مأخوذ من جدلت الحبل. أى: أحكمت فتله، كأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه، ويضعف رأى صاحبه.

والمراد بالمجادلة فى الله: المجادلة فى ذاته وصفاته وتشريعاته.

وقوله: « بغير علم » حال من الفاعل فى يجادل. وهى حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٨٦ طبعة دار الشعب

أي : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون في ذات الله وصفاته ، وفي وحيه وفي أحكامه بغير مستند من علم عقلي أو نقلي ، وبغير دليل أو مايشبه الدليل .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ويتبع كل شيطان مريد » معطوف على ماقبله . والمريد والمتمرد : البالغ أقصى الغاية في الشر والفساد ، يقال : مرد فلان على كذا ـ من باب نصر وظرف ـ إذا عتا وتجبر واستمر على ذلك .

وأصل المادة للملاسة والتجرد ، ومنه قولهم: شجرة مراده ، أي : ملساء لا ورق لها وغلام أمرد . أي : لم ينبت في ذقنه شعر . . .

أي : يجادل في ذات الله وصفاته بغير علم يعلمه ، ويتبع في جداله وتطاوله وعناده ، كل شيطان عار عن الخير ، متجرد للفساد ، لا يعرف الحق أو الصلاح ، ولا ما يعرفانه ، وإنما هو خالص للشر والغى والمنكر من القول والفعل .

وتقييد الجدال بكونه بغير علم ، يفهم منه أن الجدال بعلم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، سائغ محمود ، ولذا قال الإمام الفخر الرازي : « هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل ، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة ، فالمجادلة الباطلة : هي المرادة من قوله ـ تعالى ـ : « ماضربوه لك إلا جدلا » والمجادلة الحقة هي المرادة من قوله : « وجادلهم بالتي هي أحسن . . »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة هذا المجادل بالباطل ، والمتبع لكل شيطان مريد ، فقال: « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » .

أي : كتب على هذا الشيطان ، وقضى عليه ، أنه من تولاه ، أي اتخذه ولياً وقدوة له « فإنه يضله » أي : فشأن هذا الشيطان أن يضل تابعه عن كل خير « ويهديه إلى عذاب السعير » أي : وأن شأن هذا الشيطان ـ أيضا ـ أن

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٦ ص ١٤٣ .

يهدى متبعه إلى طريق النار المستمرة وفى التعبير بقوله « ويهديه إلى عذاب السعير » تهكم بمن يتبع هذا الشيطان ، إذ سمى - سبحانه - قيادة الشيطان لأتباعه هداية .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن النضر ابن الحارث ، أو العاص بن وائل ، أو أبى جهل . . . وكانوا يجادلون النبى - صلى الله عليه وسلم - بالباطل . .

ومن المعروف أن نزول هاتين الآيتين فى شأن هؤلاء الأشخاص ، لا يمنع من عمومهما فى شأن كل من كان على شاكلة هؤلاء الأشقياء ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ولذا قال صاحب الكشاف : «وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من الصفات والأفعال . ولا يرجع إلى علم . ولا يعض فيه بضرس قاطع ، وليس فيه إتباع للبرهان . ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل[1] .

ثم ساق - سبحانه - أهم القضايا التى جادل فيها المشركون بغير علم ، واتبعوا فى جدالهم فيها خطوات الشيطان ، وهى قضية البعث ، وأقام الأدلة على صحتها ، وعلى أن البعث حق وواقع فقال - تعالى - :

« يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٣ .

عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج (٥) ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير (٦) وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور (٧) » .

قال أبو حيان في البحر : «لما ذكر - سبحانه - من يجادل في قدرة الله بغير علم ، وكان جدالهم في الحشر والمعاد ، ذكر دليلين واضحين على ذلك

أحدهما : في نفس الإنسان وابتداء خلقه . وتطوره في أطوار سبعة ، وهى : التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلا ، وبلوغ الأشد ، والتوفى أو الرد إلى أرذل العمر .

والدليل الثانى : في الأرض التى يشاهد تنقلها من حال إلى حال . فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلا ، فإذا ورد الشرع بوقوعه، وجب التصديق به ، وأنه واقع لا محالة »[1] .

والمراد بالناس هنا : المشركون وكل من كان على شاكلتهم في إنكار أمر البعث واستبعاده . لأن المؤمنين يعترفون بأن البعث حق ، وأنه واقع بلا أدنى شك أو ريب .

والمعنى : يأيها الناس إن كنتم في شك من أمر إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب يوم القيامة ، فانظروا وتفكروا في مبدأ خلقكم ، فإن هذا التفكر من شأنه أن يزيل هذا الشك ، لأن الذى أوجدكم الإيجاد الأول . وخلقكم من التراب . قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى ، إذ الإعادة - كما يعرف كل عاقل - أيسر من ابتداء الفعل.

وقد قرب - سبحانه - هذا المعنى في أذهانكم في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[2] .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج٦ ص ٣٥١ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٧ .

وأتى - سبحانه - بأن المفيدة للشك فقال . . إن كنتم فى ريب من البعث، مع أن كونهم فى ريب أمر محقق تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لموضوع البعث عن أن يتحقق الشك فيه من أى عاقل ،وتوبيخاً لهم لوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ووجه الإتيـان بفى الدالة على الظرفية ، الإشـارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف .

قال الآلوسى : « وقوله « فإنا خلقناكم من تراب » دليل جواب الشرط ، أو هو الجواب بتأويل ، أى : إن كنتم فى ريب من البعث ، فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم ، فإنا خلقناكم من تراب ، وخلقهم من تراب فى ضمن خلق أبيهم آدم منه. . . »(١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : «التحقيق فى معنى قوله - تعالى - «فإنا خلقناكم من تراب » : أنه - سبحانه - خلق أباهم آدم منه،ثم خلق من آدم زوجه حواء ، ثم خلق الناس منهما عن طريق التناسل .

فلما كان أصلهم الأول من تراب ، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب، لأن الفروع تتبع الأصـل . وعلى ذلك يكون خلقهم من تراب هو الطور الأول . . . »(٢) .

ثم بين - سبحانه - الطور الثانى من أطوار خلق الإنسان فقال : « ثم من نطفة » . وهذا اللفظ مأخوذ من النطف - بفتح النون مع التشديد وإسكان الطاء - بمعنى السيلان والتقاطر . يقـال : نطفت القربة ، إذا تقـاطر المـاء منها بقلة .

والنطفة تطلق فى اللغة : على الماء القليل ، والمراد بها هنا : المـاء المختلط من الرجل والمرأة عند الجماع ، والمعبر عنه بالمنى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٦ .

(٢) أضواء البيان جـ ٥ ص ٢٠ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمه الله - .

وقوله : « ثم من مضغة » هو الطور الرابع « والمضغة قطعة صغيرة من اللحم تتحول إليها العلقة .

وقوله - سبحانه - « مخلقة وغير مخلقة » صفة للمضغة .

والمراد بالمخلقة : التامة الخلقة ، السالمة من العيوب ، والمراد بغير المخلقة : ما ليست كذلك كأن تكون ناقصة الخلقه .

وقد اكتفى بهذا المعنى صاحب الكشاف فقال : والمخلقه : المستواة الملساء من النقصان والعيب . يقال : خلق السوق والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، إذا كانت ملساء . كأن الله - تعالى - يخلق المضغ متفاوتة . منها : ماهو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ماهو على عكس ذلك التفاوت ، تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم . . . »(١) .

وقيل : « مخلقة » أى : مستبينة الخلق ، ظاهرة التصوير . « وغير مخلقة » أى : لم يستبين خلقها ولا ظهر تصويرها كالسقط الذى هو مضغة ولم تظهر صورته الإنسانية بعد .

وقيل : « مخلقة » أى : نفخ فيها الروح . « وغير مخلقة » أى : لم ينفخ فيها الروح .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب الكشاف واكتفى به أولى بالقبول ، لأنه هو المشهور من كلام العرب . فهم يقولون : حجر أخلق أى : أملس مصمت لا يؤثر فيه شىء ، وصخرة خلقاء ، أى : ليس بها تشويه أو كسر .

وقوله - تعالى - : « لنبين لكم » متعلق بقوله : « خلقناكم » أى : خلقناكم على هذا النحو العجيب ، وفى تلك الأطوار البديعة ، لنبين لكم كمال قدرتنا ، وبليغ حكمتنا وأننا لا يعجزنا إعادة كل حى إلى الحياة بعد موته .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٤ .

وحذف مفعول « نبين » للإشعار بأن أفعاله - تعالى - الدالة على كال قدرته ، لا يحيط بها وصف ، ولا تحدها عبارة .

أى : لنبين لكم عن طريق المشاهدة ، مايدل على كمال قدرتنا دلالة يعجز الوصف عن الإحاطة بها .

وقوله - تعالى - : « ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى » كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الناس بعد تمام خلقهم ، وتوارد تلك الأطوار عليهم .

أى : ونقر ونثبت فى أرحام الأمهات مانشاء إقراره وثبوته فيها من الأجنة والأحمال ، إلى أجل معلوم عندنا ، وهو الوقت المحدد للولادة والوضع ، ومالم نشأ إقراره من الحمل لفظته الأرحام وأسقطته ، إذ كل شىء بمشيئتنا وإرادتنا .

وقوله - تعالى - : « ثم نخرجكم طفلا » بيان للطور الخامس من أطوار خلق الإنسان .

أى : ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم بعد استقراركم فيها إلى الوقت الذى حددناه ، طفلا صغيرا . أى : أطفالا صغاراً ، وإنما جاء مفردا باعتبار إرادة الجنس الشامل للواحد والمتعدد ، أو باعتبار كل واحد منهم ، وهو حال من ضمير المخاطبين .

ومن الأساليب العربية المعهودة ، أن الاسم المفرد إذا كان اسم جنس ، يكثر إطلاقه على الجمع ، ومن ذلك قوله تعالى - : « واجعلنا للمتقين إماما » أى : أئمة . وقوله - سبحانه - « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا .. » أى : أنفسا ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :

وكان بنو فزارة شر عم فكنت لهم كشر بنى الأخينا

أى : شر أعمام .

وقوله - تعالى - « ثم لتبلغوا أشدكم » بيان للطور السادس والأشد :

قوة الإنسان وشدته واشتعال حرارته . من الشدة بمعنى الارتفاع والقوة . يقال : شدة النهار إذا ارتفع ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو جمع لا واحد له ، أو جمع شدة - كأنعم ونعمة - .

قال الآلوسى : « والجملة علة لنخرجكم ، وهى معطوفة على علة أخرى مناسبة لها .

كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا أشدكم ، أى كما لكم فى القوة والعقل والتمييز . وقيل : علة لمحذوف . والتقدير : ثم نمهلكم لتبلغوا أشدكم . . .

وتقديم التبيين « لنبين لكم » على ما بعده ، مع أن حصوله بالفعل بعد الكل ، الإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات .

وإعادة اللام فى « لتبلغوا » مع تجريد نقر ونخرج عنها ، للاشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الاقرار والاخراج ، إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة »[1] .

وقوله - سبحانه - : « ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا » بيان للطور السابع والأخير .

أى : منكم - أيها الناس - من يبلغ أشده فى هذه الحياة ، ومنكم من يموت قبل ذلك ، ومنكم من يعيش إلى أرذل العمر أى : أخسه وأدونه ، فيصير من بعد علمه بالأشياء وفهمه لها ، لا علم له ولا فهم ، شأنه فى ذلك شأن الأطفال .

قال - تعالى - : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين » فالآية الكريمة تصور أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته أكمل تصوير ، للتنبيه على مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق وصدق .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١١٧ .

وبعد إقامة هذا الدليل من نفس الإنسان وتطور خلقه على صحة البعث، ساق - سبحانه - الدليل الثانى عن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من حال إلى حال، فقال - تعالى - «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج».

وقوله: «هامدة» أى: يابسة. يقال: همدت الأرض تهمد - بضم الميم - همودا، إذا يبست.

ومعنى: «اهتزت»: تحركت. يقال: هز فلان الشىء فاهتز، إذا حركه فتحرك.

ومعنى: «ربت» زادت بسبب تداخل الماء والنبات فيها. يقال: ربا الشىء يربو ربوا، إذا زاد ونما. ومنه الربا والربوة.

أى: وترى - أيها العاقل - ببصرك الأرض يابسة لا نبات فيها. فإذا ما أنزلنا عليها بقدرتنا الماء، تحركت بسبب خروج النبات منها، وانتفخت بسبب ما يتخللها من الماء والنبات، وأنبتت بعد ذلك من كل صنف بهيج نضر حسن المنظر.

وشبيه بهذه الآية فى أن إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الناس بعد موتهم، بقدرة الله - تعالى - وإرادته، قوله - عز وجل -: «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - أى يابسة - فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير»(١).

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على وحدانيته وقدرته فقال: «ذلك بأن الله هو الحق، وأنه يحيى الموتى، وأنه على كل شىء قدير».

واسم الإشارة يعود إلى المذكور من خلق الإنسان وإحياء الأرض بعد موتها.

(١) سورة فصلت الآية ٣٩

أي : ذلك الذي ذكرناه لكم دليل واضح ، وبرهان قاطع ، على أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذي يجب أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، لأنه هو وحده الخالق لكل شيء ، ولأنه هو وحده الذي يعيد الموتى إلى الحياة ، ولأنه هو وحده الذي لا يعجزه شيء .

وخص - سبحانه - إحياء الموتى بالذكر ، مع أنه من جملة الأشياء المقدور عليها ، للتصريح بما هو محل النزاع وهو البعث ، ولدحض شبه المنكرين له .

ثم أكد - سبحانه - ذلك تأكيداً دامغا فقال : « وأن الساعة ، وما تشتمل عليه من حساب وثواب وعقاب « آتية لاريب فيها » أي: لاريب ولا شك فى إتيانها فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - .

« وأن الله » - تعالى - وحده « يبعث من فى القبور » ليحاسبهم على أعمالهم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأوضحها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن البعث حق وصدق وأنه لآت لا ريب فيه .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك نموذجين لصنفين من الناس ، أحدهما : متكبر مغرور ، والآخر مذبذب لا ثبات له فى عقيدة فقال - تعالى - :

« ومِنَ الناسِ من يُجادِلُ فى اللهِ بغيرِ علْمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنِيرٍ (٨) ثانِيَ عِطْفِه لِيُضِلَّ عن سبيلِ اللهِ لهُ فى الدُّنيا خِزْيٌ ونُذِيقُه يومَ القيامةِ عذابَ الحَرِيق (٩) ذلكَ بما قدَّمتْ يداكَ ، وأنَّ اللهَ ليسَ بظلَّامٍ للعبيدِ (١٠) ومِنَ النـاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فإنْ أصابَهُ خـيرٌ اطمأنَّ به ، وإنْ أصابَتْه فِتْنَةٌ انقلَبَ على وجْهِه خَسِرَ الدُّنيـا والآخرَةَ ، ذلكَ هو الخُسرانُ المبين (١١) يدعُو مِنْ دُونِ اللهِ مالا يضرُّهُ ومالاَ ينفَعُهُ ، ذلكَ هوَ الضلالُ البعيدُ (١٢) يدْعُو لمنْ ضرُّهُ أكبرُ من نَفْعِه ، لبئسَ المَوْلَى ولبئسَ العَشيرُ (١٣) » .

قال ابن كثير - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - حال الضلال الجهال المقلدين لغيرهم فى الآية الثالثة من هذه السورة وهى قوله - سبحانه - : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد » ، ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع ، فقال : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ، أى : بلا عقل صحيح ، ولا نقل صحيح صريح . بل بمجرد الرأى والهوى »(١) .

ولعل مما يؤيد ماذهب إليه ابن كثير من أن الآية الثالثة من هذه السورة فى شأن المقلدين لغيرهم ، أنه - سبحانه - قال فيها فى شأنهم : « ويتبع كل شيطان مريد » .

أما فى هذه الآية فقد قال فى شأن هذا النوع من الناس : « ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله . . » أى : ليضل غيره ويصرفه عن طاعة الله - تعالى - وإتباع طريقه الحق .

وقد نفت الآية الكريمة عن المجادل ، استناده إلى أى دليل أو ما يشبه الدليل ، فهو يجادل فى ذات الله - تعالى - وفى صفاته « بغير علم » يستند إليه وبغير « هدى » يهديه ويرشده إلى الحق وبغير « كتاب منير » ، أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد

فأنت ترى أن الآية قد جردت هذا المجادل من أى مستند إليه فى جداله سواء كان عقليا أم نقليا ، بل أثبتت له الجهالة من جميع الجهات .

ثم صورته السورة الكريمة بعد ذلك بتلك الصورة المزرية ، صورة الجاهل المغرور المتعجرف ، فقال - تعالى - : « ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله » .

وقوله « ثانى » من الثنى بمعنى اللى والميل عن الإستقامة . يقال : فلان ثنى الشىء إذا رد بعضه على بعض فانثنى أى : مال والتوى .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٩٤

والعطف - بكسر العين - الجانب وهذا التعبير كناية عن غروره وصلفه مع جهله . أى : أنه مع جداله بدون علم . متكبر معجب بنفسه ، معرض عن الحق ، يجتهد فى إضلال غيره عن سبيـــل الله - تعالى - وعن الطريق الذى يوصل إلى الرشاد.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور المضل لغيره فقال : « له فى الدنيا خزى » أى : هوان وذلة وصغار .

« ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » أى : ونجعـــله يوم القيامة يدرك طعم العذاب المحرق . ويصطلى به جزاء غروره وشموخه فى الدنيا بغير حق .

وتقول له ملائكتنا وهى تصب عليه ألوان العذاب «ذلك بما قدمت يداك» أى : ذلك الذى تتذوقه من عذاب محرق سببه : جهلك وغرورك وإصرارك على الكفر ، وحرصك على إضلالك لغيرك .

وأسند - سبحانه - سبب ما نزل بهذا الكافر مــن خزى وعذاب إلى يديه ، لأنهما الجارحتان اللتان يزاول بهما أكثر الأعمال .

وقوله - سبحانه - « وأن الله ليس بظلام للعبيد » بيان لعدله - تعالى - مع عباده أى : وأن الله - تعالى - ليس بذى ظلم لعباده أصلا، حتى يعذبهم بدون ذنب ، بل هو عادل رحيم بهم ، ومن مظاهر عدله ورحمته أنه يضاعف الحسنات ، ويعاقب على السيئات ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده .

ثم بين - سبحانه - نوعا آخر من الناس ، لا يقل جرما عن سابقه فقـال - تعالى - : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . . . »

قال صاحب الكشاف : « على حرف » أى : على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهـــم : لا على سكون وطمأنينة ، كالذى يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر

وغنيمة قر واطمأن ، وإلا فر وطار على وجهه . . »(١) .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإذا ولدت امرأته غلاما ، ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . . . »(٢) .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد صورت المذبذبين فى عقيدتهم أكمل تصوير ، فهم يقيسون العقيدة بميزان الصفقات التجارية ، إن ربحوا من ورائها فرحوا ، وإن خسروا فيها أصابهم الغم والحزن .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ فى شأن المنافقين : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون »(٣) .

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ « على حرف » يصور هذا النوع من الناس ، وكأنه يتأرجح فى عبادته كما يتأرجح من يكون على طرف الشىء . فهو معرض للسقوط فى أية لحظة .

والمراد من الخير فى قوله تعالى ـ : « فإن أصابه خير اطمأن به » : الخير الدنيوى من صحة وغنى ومنافع دنيوية .

أى : فإن نزل بهذا المذبذب فى عبادته خير دنيوى « اطمأن به » أى : ثبت على ما هو عليه من عبادة ثباتا ظاهريا ، وليس ثباتا قلبيا حقيقيا كما هو شأن المؤمنين الصادقين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم وعد أو وعيد .

« وإن أصابته فتنة » أى : مصيبة أو شر « انقلب على وجهه » أى : ارتد ورجع عن عبادته ودينه إلى الكفر والمعاصى .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٤٦

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص ١٣٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ٥٨ .

وقوله - تعالى - : « خسر الدنيا والآخــــرة ذلك هو الخسران المبين » بيان لسوء عاقبة صنيعه .

أى : هذا الذى يعبد الله على حرف ، جمع على نفسه خسارتين ، خسارة الدنيا بسبب عدم حصوله على ما يريده منها ، وخسارة الآخرة بسبب ارتداده إلى الكفر وغشيان السيئات ، وذلك الذى جمعه على نفسه هو الخسران الواضح ، الذى لا يتنازع فى شأنه عاقلان ، إذ لا خسران أشد وأظهر ، من الخسران الذى ضيع دنياه وآخرته .

ثم بين - سبحانه - مظاهر خسران هذا المذبذب ، وأحواله القبيحة فقال : « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه . . . » .

أى : يعبد سوى الله - تعالى - أوثانا وأصناما ، إن ترك عبادتها لا تستطيع أن تضره ، وإن عبدها فلن تستطيع أن تنفعه .

و « ذلك » الذى يفعله هذا الشقى من عبادته لما لا يضر ولا ينفع ، « هو الضلال البعيد » بعدا شاسعا عن كل صواب ورشاد .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تبكيت هذا المذبذب وتقريعه ، تقريعا آخر فقال : « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير » .

والمولى : هو كل من انعقد بينك وبينه سبب ، يجعلك توالیه ويواليك ، وتناصره ويناصرك . والعشير : هو من يعاشرك ويخالطك فى حياتك .

أى يعبد هـذا الإنسان الجاهل المضطرب ، معبودا ضرره أقرب من منفعته لبئس الناصر ولبئس الصاحب هذا المعبود .

فإن قيل ، كيف نجمع بين هـذه الآية التى جعلت المعبود الباطل ضرره أقرب من نفعه ، وبين الآية السابقة عليها والتى نفت عنه الضر والنفع نفيا تاما .

وقد أجاب العلماء عن هذا التساؤل بإجابات منها : أن لفظ « يدعو » فى الآية الثانية بمعنى يقول

وقد صدر الآلوسي تفسيره للآية بهذا الرأي فقال ما ملخصه: «قوله - تعالى - «يدعو لمن ضره أقرب من نفعه» استئناف يبين مآل دعائه وعبادته غير الله - تعالى -، ويقرر كون ذلك ضلالا بعيدا. فالدعاء هنا بمعنى القول.

أي: يقول الكافر يوم القيامة برفع صوت، وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه، ولا يرى منه أثرا مما كان يتوقعه منه من نفع أو دفع ضر: والله لبئس الذي يتخذ ناصرا - من دون الله - ولبئس الذي يعاشر ويخالط، فكيف بما هو ضرر محض، عار عن النفع بالكلية. وفي هذا من المبالغة في تقبيح حال الصنم والإمعان في ذمه مالا يخفى...»[1].

ومنها ما ذكره الإمام القرطبي فقال: «قوله - تعالى - «يدعو لمن ضره أقرب من نفعه» أي: هذا الذي انقلب على وجهه يدعو من ضره أدنى من نفعه في الآخرة. لأنه بعبادته دخل النار. ولم ير منه نفعا أصلا، ولكنه قال: ضره أقرب من نفعه، ترفيعا للكلام، كقوله - تعالى -: «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»[2].

ومنها: ما ذكره بعض العلماء من أن الآية الأولى في شأن الذين يعبدون الأصنام، إذ الأصنام لا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها، ولذا قال فيها: «مالا يضره ومالا ينفعه». والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام. التعبير بلفظة «ما» في قوله: «مالا يضره ومالا ينفعه» لأن لفظ «ما» يأتي - غالبا - لما لا يعقل. والأصنام لا تعقل.

أما الآية الثانية فهي في شأن من عبد بعض الطغاة من دون الله، كفرعون القائل لقومه: «ما علمت لكم من إله غيري» فإن فرعون وأمثاله من الطغاة المعبودين، قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم. وهذا النفع الدنيوي بالنسبة

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ١٢٥.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٨.

لما سيلاقونه من عذاب لا شيء . فضر هذا المعبود بخلود عابده في النار . أقرب من نفعه بعرض قليل زائل من حطام الدنيا .

والقرينة على أن المراد بالمعبود الباطل في الآية الثانية بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء : هي التعبير « بمن » التي تأتي - غالباً - لمن يعقل ، كما قال - تعالى - : « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ... »(١) .

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير له وجه من القبول .

وبذلك ترى السورة الكريمة قد ساقت لنا نماذج من أحوال الناس في هذه الحياة ، لكي يحذرهم المؤمنون ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة .

ثم بينت السورة الكريمة ما أعده الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين من حسن الثواب ، بعد أن صرحت بما توعد به - سبحانه - المجادلين فيه بغير علم بسوء العقاب ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) » .

أي : إن الله - تعالى - بفضله وكرمه، يدخل عباده « الذين آمنوا » إيمانا حقا ، « وعملوا » الأعمال « الصالحات جنات تجري من » تحت أشجارها « الأنهار إن الله - تعالى - يفعل ما يريد فعله على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته دون أن ينازعه في ذلك منازع . أو يعارضه معارض ، فهو - سبحانه - لا يسأل عما يفعل .

ثم بين - سبحانه - أن نصره لنبيه - صلى الله عليه وسلم - آت لا شك فيه مهما كره ذلك الكارهون ، فقال - تعالى - :

---

(١) أضواء البيان جـ ٥ ص ٤٨ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

« مَنْ كانَ يظُنُّ أنْ لنْ ينصرَه اللهُ فى الدُّنياَ والآخرةِ ، فليَمدُد بسبَبٍ إلى السَّماء ثم ليقْطَعْ فلينْظر هلْ يُذهبنَّ كيدُهُ مايَغيظُ (١٥) وكذلكَ أنزَلناهُ آياتٍ بيناتٍ وأنَّ اللهَ يَهدِى مَنْ يرِيدُ (١٦) » .

والعلماء فى تفسير الآية الأولى أقوال :

أولها أن الضمير فى قوله «يظن» يعود إلى أعداء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى قوله « ينصره » يعود إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

والمعنى : « من كان يظن » من الكافرين الكارهين للحق الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أن لن ينصره الله » .

أى : أن لن ينصر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فى الدنيا والآخرة فليمدد » هذا الكافر « بسبب » أى : بحبل « إلى السماء » أى : إلى سقف بيته، لأن العرب تسمى كل ما علاك فهو سماء .

« ثم ليقطع » ثم ليختنق هذا الكافر بهذا الحبل ، بأن يشده حول عنقه. ويتدلى من الحبل المعلق بالسقف حتى يموت .

« فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ» أى : فليتفكر هذا الكافر فى أمره ، هل يزيل فعله هذا ما امتلأت به نفسه من غيظ لنصر الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

كلا ، فإن ما يفعله بنفسه من الإختناق والغيظ ، لن يغير شيئاً من نصر الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فليمت هذا الكافر بغيظه وكيده .

فالمقصود بالآية الكريمة : بيان أن ما قدره الله ـ تعالى ـ من نصر لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يحول بين تنفيذه حائل ، مهما فعل الكافرون ، وكره الكارهون ، فليموتوا بغيظهم ، فإن الله ـ تعالى ـ ناصر نبيه لا محالة ،

وصح عود الضمير فى قوله « أن لن ينصره » إلى النبى ـ صلى الله عليه

وسلم - مع أنه لم يسبق له ذكر ، لأن الكلام دال عليه فى الآيات السابقة ، إذ المراد بالإيمان فى قوله - تعالى - فى الآية السابقة « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » : الإيمان بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من عند ربه - تعالى - .

وعبر - سبحانه - عن إختناق هذا الحاقد بالحبل بقوله : «ثم ليقطع» لأن قطع الشىء يؤدى إلى إنتهائه وهلاكه . والمفعول محذوف . والتقدير : ثم ليقطع نفسه أو حياته .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا القول فقال : « هذا كلام قد دخله إختصار .

والمعنى : إن الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك .. فليستقصى وسعه ، ليستفرغ جهوده فى إزالة مايغيظه . بأن يفعل مايفعله من بلغ به الغيظ كل مبلغ ، حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر - هذا الحاسد - وليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه ؟

وسمى - سبحانه - فعل هذا الكافر كيداً ، لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره ، أوسماه كذلك على سبيل الإستهزاء ، لأنه لم يكد به محسود ، إنما كاد به نفسه .

والمراد : إنه ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه .. »(١)

وثانيها : أن الضمير فى قوله : « ان ينصره » يعود إلى «من» فى قوله « من كان يظن » ، وأن النصر هنا بمعنى الرزق .

فيكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فليختنق ، وليقتل نفسه ، إذ لاخير فى حياة ليس فيها رزق الله وعونه ، أو فليختنق فإن إختناقه لن يغير شيئا مما قضاه الله - تعالى -

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ١٤٨ .

قال الآلوسى : «واستظهر أبو حيان كون الضمير فى «ينصره» عائداً على «من» ، لأنه المذكور ، وحق الضمير أن يعود على مذكور . . . وفسر النصر بالرزق .

قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بنى بكر فقال : من ينصرنى نصره الله - أى : من يرزقنى رزقه الله .

والمعنى : أن الأرزاق بيد الله - تعالى - لا تنال إلا بمشيئته ، فمن ظن أن الله - تعالى - غير رازقه ، ولم يصبر ولم يستسلم فليختنق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقا .

والغرض : الحث على الرضا بما قسمه الله - تعالى - لا كمن يعبده على حرف . . . »(١) .

وثالثها : أن الآية فى قوم من المسلمين إستبطأ وانصر الله - تعالى - ، لاستعجالهم وشدة غيظهم وحنقهم على المشركين ، فنزلت الآية لبيان أن كل شىء عند الله بمقدار .

ويكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن ينصره الله ، واستبطأ حدوث ذلك ، فليمت غيظا . لأن للنصر على المشركين وقتا لا يقع إلا فيه بإذن الله ومشيئته .

ويبدو أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، القول الأول ، وعليه جمهور المفسرين ، ويؤيده قوله - تعالى - : «إنا لننصر رسلنا الذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»(٢) .

وقوله - سبحانه - : «وإذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور»(٣) .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٢٧ .

(٢) سورة غافر الآية ٥١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٩

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم فقال : « وكذلك أنزلناه آيات بينات ... » أي : ومثل ذلك الإنزال البليغ الواضح ، أنزلنا القرآن آيات بينات الدلالة على معانيها الحكيمة ، وتوجيهاتها السديدة .

وأن الله - تعالى - يهدى من يريد هدايته إلى صراط المستقيم ، فهو الهادى الذى ليس هناك من هاد سواه .

ثم بين - سبحانه - أن مرد الفصل بين الفرق المختلفة إليه وحده ، إذ هو العليم بكل ما عليه كل فرقة من حق أو باطل ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الذينَ آمَنُوا ، والذينَ هادُوا ، والصَّابِئِينَ ، والنَّصارَى ، والمجُوسَ ، والذينَ أشركُوا ، إنَّ اللهَ يفصِلُ بينَهُم يومَ القيامةِ ، إنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شيءٍ شهيدٌ (١٧) » .

ففى هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن ست فرق من الناس : أما الفرقة الأولى ، فهى : فرقة الذين آمنوا . والمراد بهم : الذين آمنوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وصدقوه واتبعوه .

وابتدأ القرآن بهم ، للإشعار بأن دين الإسلام هو الدين الحق ، القائم على أساس أن الفوز برضا الله - تعالى - لاينال إلا الإيمان والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك ، كما قال - تعالى - : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وأما الفرقة الثانية فهى « الذين هادوا » أى : صاروا يهودا . يقال : هاد فلان وتهود أى : دخل فى اليهودية .

وسموا يهودا نسبة إلى « يهوذا » أحد أولاد يعقوب - عليه السلام - ، وقلبت الذال دال عند التعريب . أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل مأخوذ من هاد يهود هودا بمعنى تاب . ومنه قوله - تعالى - : « إنا هدنا إليك » أى : تبنا إليك .

والفرقة الثالثة هى فرقة « الصابئين » جمع صابىء ، وهو الخارج من دين إلى آخر .

يقال : صبأ الظلف والناب والنجم - كمنع وكرم - إذ طلع .

والمراد بهم : الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل . وهم قوم يعبدون الكواكب والملائكة ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث ابن آدم .

والفرقة الرابعة هى فرقة « النصارى » جمع نصران بمعنى نصرانى كندامى وندمان . والياء فى نصرانى للمبالغة ، وهم قوم عيسى - عليه السلام - ، قيل : سموا بذلك لأنهم كانوا أنصارا له : وقيل : إن هذا الإسم مأخوذ من الناصرة ، هى القرية التى كان عيسى قد نزل بها .

وأما الفرقة الخامسة فهى فرقة « المجوس » وهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنار . وقيل : هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئا ، ومن دين اليهود شيئا ، ويقولون : بأن العالم أصلين نورا وظلمة . .

وأما الفرقة السادسة والأخيرة فهى فرقة الذين أشركوا . والمشهور أنهم عبدة الأصنام والأوثان . وقيل ما يشملهم ويشمل معهم كل من اتخذ مع الله - تعالى - إلها آخر .

وقوله - سبحانه - : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيدا » بيان لما سيكون عليه حالهم جميعا يوم القيامة ، من حكم عادل سيحكم الله - تعالى - به عليهم .

أى : إن الله يحكم بين هؤلاء جميعا بحكمة العادل يوم القيامة ، إنه - سبحانه - على كل شىء شهيد ، بحيث لا يخفى عليه شىء من أحوال خلقه .

قال الجمل ما ملخصه : « ولهذه الآية قيل : الأديان ستة . واحد للرحمن وهو الإسلام .

وخمسة للشيطان وهى ما عداه . وأن الثانية واسمها وخبرها فى محل رفع خبر لإن الأولى .

وقوله : « إن الله على كل شىء شهيد » تعليل لقوله : « إن الله يفصل بينهم . . . » وكأن قائلا قال : أهذا الفصل عن علم أولا ؟ فقيل : إن الله على كل شىء شهيد . أى : علم به على مشاهدة »[1] .

• • •

ثم بين - سبحانه - أن الكون كله يخضع لسلطانه - تعالى - ويسجد لوجهه فقال :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) » .

والاستفهام فى قوله « ألم تر . . . » للتقرير ، والرؤية هنا بمعنى العلم وذلك لأن سجود هذه الكائنات لله - تعالى - آمنا به عن طريق الإخبار دون أن نرى كيفيته .

والسجود فى اللغة : التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه . وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

والمراد به هنا دخول الأشياء جميعها تحت قبضة الله - تعالى - وتسخيره وانقيادها لكل ما يريده منا انقيادا تاما ، وخضوعها له - عز وجل - بكيفية

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٥٨ .

هو الذى يعلمها . فنحن نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله ـ تعالى ـ ونفوض كيفية هذا السجود له ـ تعالى ـ .

والمعنى : لقد علمت ـ أيها العاقل ـ أن الله ـ تعالى ـ يسجد له ، ويخضع لسلطانه جميع من فى السموات وجميع من فى الأرض .

وقوله : « والشمس والقمر والنجوم » عطف خاص على قوله : « من فى السموات » .

ونص ـ سبحانه ـ عليها مفردا إياها بالذكر ، لشهرتها ، ولاستبعاد بعضهم حدوث السجود منها ، ولأن آخرين كانوا يعبدون هذه الكواكب ، فبين ـ سبحانه ـ أنها عابدة وساجدة لله ، وليست معبودة .

وقوله ـ تعالى ـ : « والجبال والشجر والدواب » عطف خاص على « من فى الأرض » ونص ـ سبحانه ـ عليها ـ أيضا ـ لأن بعضهم كان يعبدها ، أو يعبد ما يؤخذ منها كالأصنام .

وقوله ـ تعالى ـ « وكثير من الناس » بيان للذين اهتدوا إلى طريق الحق .

أى : ويسجد له ـ كذلك ـ كثير من الناس ، وهم الذين خلصت عقولهم من شوائب الشرك والكفر ، وطهرت نفوسهم من الأدناس والأوهام .

وقوله : « وكثير حق عليه العذاب » بيان لحال الذين استحبوا العمى على الهدى .

أى : وكثير من الناس حق وثبت عليهم العذاب ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وإيثارهم الغى على الرشد .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يدل على نفاذ قدرته ، وعموم مشيئته فقال : « ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء » .

و « من » شرطية وجوابها « فما له من مكرم » ومكرم اسم فاعل من أكرم .

أى : ومن يهنه الله ويخزه ، فما له من مكرم يكرمه ، أو منقذ ينقذه مما هو فيه من شقاء ، إن الله - تعالى - يفعل ما يشاء فعله بدون حسيب يحاسبه ، أو معقب يعقب على حكمه .

قال - تعالى : « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك صورة فيها ما فيها من وجوه المقارنات بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين . لكى ينحاز كل ذى عقل سليم إلى فريق الإيمان لا الكفر ، فقال - تعالى - :

« هذَانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فى ربِّهم ، فالذينَ كفرُوا قُطِّعت لهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ ، يصَبُّ من فوقِ رُءوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ به مافى بُطونِهِمْ والجُلُود (٢٠) ولهُم مقامِعُ مِنْ حديدٍ (٢١) كُلَّما أرَادُوا أنْ يخرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أعيدُوا فيها وذُوقُوا عذابَ الحريق (٢٢) إنَّ اللهَ يدْخِلُ الذينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ جناتٍ تَجْرِى مِنْ تحتِها الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها من أساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ولؤلؤاً ولِباسُهم فيها حَرِيرٌ (٢٣) وهُدوا إلى الطَّيبِ من القَوْلِ وهُدوا إلى صِرَاطِ الحميدِ (٢٤) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - « هذان خصمان اختصموا فى ربهم ... » ، روايات أشار الإمام ابن كثير إلى معظمها فقال : « ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر : أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية « هذان خصمان ... » نزلت فى حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا فى بدر .

وعن قتادة قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب :

نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضى على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم . فأفلح الله الإسلام على من ناوأه - أى فنصر الله الإسلام - ، وأنزل الآية .

وعن مجاهد فى الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث .

وهذا القول يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصر دين الله والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان »(١).

أى : هذان خصمان اختصموا فى ذات ربهم فى صفاته، بأن اعتقد كل فريق منهم أنه على الحق ، وأن خصمه على الباطل .

قال الجمل : « والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يوحد ويذكر غالبا ، وعليه قوله - تعالى - : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » . ويجوز أن يثنى ويؤنث ، ولما كان كل خصم فريقا يجمع طوائف قال : « اختصموا » بصيغة الجمع كقوله - تعالى - : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » ، فالجمع مراعاة للمعنى »(٢) .

وقوله - سبحانه - : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار . . . » تفصيل وبيان لحال كل خصم وفريق .

أى : فالذين كفروا جزاؤهم أنهم قطع الله - تعالى - لهم من النار ثيابا ، وألبسهم إياها .

قال الآلوسى : « أى أعد الله لهم ذلك ، وكأنه شبه إعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم . ففى الكلام استعارة تمثيلية تهكمية ، وليس هناك تقطيع ثياب ولا ثياب حقيقية . وكأن جمع الثياب للإيذان

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٥٩ .

بتراكم النار المحيطة بهم، وكون بعضها فوق بعض... وعبر بالماضي، لأن الإعداد قد وقع، فليس من التعبير بالماضي لتحققه...»(١).

وقوله: «يصب من فوق رءوسهم الحميم» زيادة في عـــذابهم «أي: لم تقطع لهم ثياب من نار فحسب، وإنما زيادة على ذلك يصب من فوق رءوسهم «الحميم» أي: الماء البالغ أقصى درجات الشدة في الحرارة.

وقوله: «يصهر به مافي بطونهم والجلود». بيان للآثار التي تترتب على هذا العذاب.

والفعل «يصهر» مأخوذ من الصهر بمعنى الإذابة. يقال: صهر فلان الشحم يصهره إذا أذابه.

أي: فذلك الحميم الذي يصب من فوق رءوسهم من آثاره أنه يذاب به مافي بطونهم من الشحوم والأحشاء، كما تذاب به جلودهم - أيضاً -. فقوله: «والجلود» عطف على «ما» الموصولة في قوله «مافي بطونهم» أي: يذاب به الذي في بطونهم عذاب به أيضا جلودهم.

وقيل: إن لفظ الجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على «يصهر».

والتقدير: يصهر به مافي بطونهم من أحشاء وشحوم، وتحرق به الجلود. قالوا: وذلك لأن الجلود لاتذاب وإنما تنقبض وتنكمش إذا أصليت بالنار.

والضمير في قوله - سبحانه -: «ولهم مقامع من حديد» يعود إلى الكفرة المعذبين بهذا الحميم الذي تصهر به البطون.

والمقامع: جمع مقمعة - بكسر الميم وسكون القاف وفتح الميم الثانية -، وهي آلة تستعمل في القمع عن الشيء، والزجر عنه. يقال: قمع فلان فلانا إذا قهره وأذله.

---

(١) تفسير الآلوسي جـ١٧ ص ١٣٤.

أى : وخصصت لهؤلاء الكافرين مضارب من حديد تضربهم بها الملائكة على رءوسهم زيادة فى إذلالهم وقهرهم.

وقيل : إن الضمير فى « لهم » يعود على خزنة النار . أى : ولخزنة النار مضارب من حديد يضربون بها هؤلاء الكافرين .

وعلى كلا القولين فالآية تصور هوان هؤلاء الكافرين أكمل تصوير .

وقوله ـ سبحانه ـ : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » بيان لما يقابلون به عندما يريدون التزحزح عن النار .

أى : كلما أراد هؤلاء الكافرون أن يخرجوا من النار ومن غمها وكربها وسعيرها ، أعيدوا فيها مرة أخرى ، كما قال ـ تعالى ـ : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : « وذوقوا عذاب الحريق » مقول لقول محذوف . أى : أعيدوا فيها وقيل لهم على لسان خزنة النار : ذوقوا العذاب المحرق لأبدانكم .

هذا هو حال فريق الكافرين ، وهو حال يزلزل القلوب ويرهب المشاعر ، ويفزع النفوس .

ولكن القرآن كعادته فى قرن الترهيب بالترغيب ، لا يترك النفوس فى هذا الفزع ، بل يتبع ذلك بما يمسح عنها خوفها ورعبها عن طريق بيان حال المؤمنين فيقول : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ... » .

وغير ـ سبحانه ـ الأسلوب فلم يقل : والذين آمنوا على سبيل العطف على الذين كفروا .. تعظيم لشأن المؤمنين ، وإشعار بمباينة حالهم لحال خصمائهم الكافرين .

---

(١) سورة المائدة آية ٣٧

أى : إن الله - تعالى - بفضله وإحسانه يدخل عباده الذين آمنوا وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات، جنات عاليات تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار .

وقوله «يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير» بيان لما ينالون فى تلك الجنات من خير وفير، وعطاء جزيل .

أى : يتزينون فى تلك الجنات بأساور كائنة من الذهب الخالص، ومن اللؤلؤ الثمين، أما لباسهم الدائم فيها فهو من الحرير الرقيق الناعم الفاخر.

قال الآلوسى: «وقوله : «ولباسهم فيها حرير» غير الأسلوب حيث لم يقل [ويلبسون فيها حريرا ، الإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان . . . ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام فى كل أهل الجنة . وقيل هو باعتبار الأغلب، لما أخرجه النسائى وابن حبان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة. وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه»(١).

قالوا : ومحله فيمن مات مصرا على ذلك .

وقوله - تعالى - : «وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد» بيان لحسن خاتمتهم، ولعظم النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : وهدى الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين إلى القول الطيب الذى يرضى الله - تعالى - عنهم، كأن يقولوا عند دخولهم الجنة : «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب»(٢) .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٣٦ .

(٢) سورة فاطر الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

وهداهم - أيضاً - خالقهم إلى الصراط المحمود ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام ، فصاروا بسبب هذه النعمة يقولون الأقوال الطيبة ، ويفعلون الأفعال الحميدة .

قال الشوكاني : « قوله : « وهدوا إلى الطيب من القول . . » أي : أرشدوا إليه . قيل : هو لا إله إلا الله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من الله من بشارات . وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا، وهو قوله - سبحانه - : « الحمد لله الذي صدقنا وعده . . الحمد لله الذي هدانا لهذا . . الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . . » .

ومعنى : « وهدوا إلى صراط الحميد » أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذي هو دينه القويم وهو الإسلام »(١) .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الخصمين وعن عاقبة كل منهما . . جاء الحديث عن المسجد الحرام ، وعن مكانته ، وعن الأمر ببنائه وعن وجوب الحج إليه ، وعن المنافع التي تعود على الحجاج ، وعن سوء مصير من يصد الناس عن هذا المسجد ، جاء قوله - تعالى - :

« إِنَّ الذينَ كفَروا ويَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ الذي جعَلْناهُ للناسِ سواءً العاكفُ فيه والبادِ ، ومَنْ يرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلمٍ نذِقْهُ من عذَابٍ أليمٍ (٢٥) وإذ بَوَّأْنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ أنْ لا تشرِكْ بي شيئاً ، وطهِّرْ بيتِيَ للطَّائفينَ والقائمينَ والرُّكَّعِ السُّجودِ (٢٦) وأذِّنْ في النَّاسِ بالحجِّ يأتُوكَ رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍ عميقٍ (٢٧) ليَشْهَدوا منافِعَ لهُم ويذكُروا اسمَ

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ٤٤٥ .

اللهِ فى أيامٍ معلوماتٍ على ما رزَقَهم مِنْ بَهِيمةِ الأنعامِ فكلُوا منْها وأَطعِموا البائِسَ الفقيرَ (٢٨) ثمَّ ليقْضوا تفثَهم وليُوفُوا نذورَهم، وليطَّوفوا بالبيتِ العتِيقِ (٢٩) » .

قال الإمام الرازى: «اعلم أنه ـ تعالى ـ بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت، وعظم كفر هؤلاء الكافرين فقال: «إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام».

قال ابن عباس: الآية نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الحديبية عن المسجد الحرام، عن أن يحجوا، أو يعتمروا، وينحروا الهدى فكره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتالهم، وكان محرما بعمرة، ثم صالحوه على أن يعود فى العام القادم..»(1)

وصح عطف المضارع وهو «يصدون» على الماضى وهو «كفروا» لأن المضارع هنا لم يقصد به زمن معين من حال أو استقبال، وإنما المراد به مجرد الاستمرار، كما فى قولهم: فلان يحسن إلى الفقراء، فإن المراد به استمرار وجود إحسانه.

ويجوز أن يكون قوله «ويصدون...» خبر المبتدأ محذوف أى: وهم يصدون عن المسجد الحرام. وخبر إن فى قوله ـ سبحانه ـ «إن الذين كفروا..» محذوف لدلالة آخر الآية عليه.

والمعنى: إن الذين أصروا على كفرهم بما أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، واستمروا على منع أهل الحق من أداء شعائر

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ١٥٤

دين الله - تعالى - ، ومن زيارة المسجد الحرام . . هؤلاء الكافرون سوف نذيقهم عذابا أليما .

ويصح أن يكون الخبر محذوفا للتهويل والإرهاب . وكأن وصفهم بالكفر والصد كاف فى معرفة مصيرهم المهين .

قال القرطبي : « وقوله - تعالى - : « والمسجد الحرام » قيل إنه المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن ، لأنه لم يذكر غيره ، وقيل الحرم كله ، لأن المشركين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه عنه عام الحديبية ، فنزل خارجا عنه . . . وهذا صحيح لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك »(١) .

وقوله - سبحانه - : «الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد . . .» تشريف لهذا المكان حيث جعل الله - تعالى - الناس تحت سقفه سواء ، وتشنيع على الكافرين الذين صدوا المؤمنين عنه .

ولفظ سواء ، قرأه جمهور القراء بالرفع على أنه خبر مقدم ، والعاكف مبتدأ والباد معطوفة عليه أى : العاكف والباد سواء فيه . أى مستويان فيه .

وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على أنه المفعول الثانى لقوله «جعلناه» بمعنى صيرناه . أى : جعلناه مستويا فيه العاكف والباد . ويصح أن يكون حالا من الهاء فى « جعلناه » . أى : وضعناه للناس حال كونه سواء العاكف فيه والباد .

والمراد : بالعاكف فيه : المقيم فيه . يقال : عكف فلان على الشىء ، إذ لازمه ولم يفارقه . والباد : الطارىء عليه من مكان آخر . وأصله من يكون من أهل البوادى الذين يسكنون المضارب والخيام ، وينتقلون من مكان إلى آخر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٣٢

أي: جعلناه للناس على العموم، يصلون فيه، ويطوفون به، ويحترمونه ويستوى تحت سقفه من كان مقيما فى جواره، وملازما للتردد عليه، ومن كان زائرا له وطارئا عليه من أهل البوادي أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة.

فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله، فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه أحد منهم، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء.

وقوله - تعالى -: «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» تهديد لكل من يحاول ارتكاب شيء نهى الله عنه فى هذا المسجد الحرام.

والإلحاد: الميل. يقال. ألحد فلان فى دين الله، أى: مال وحاد عنه

و «من» شرطية وجوابها «نذقه»، ومفعول «يرد» محذوف لقصد التعميم. أى: ومن يرد فيه مرادا بإلحاد ويصح أن يكون المفعول قوله «بإلحاد» على أن الباء زائدة.

أى: ومن يرد فى هذا المسجد الحرام إلحادا أى: ميلا وحيدة عن أحكام الشريعة وآدابها بسبب ظلمه وخروجه عن طاعتنا، نذقه من عذاب أليم لا يقادر قدره، ولا يمكنه كنهه.

وقد جاء هذا التهديد فى أقصى درجاته لأن القرآن توعد بالعذاب الأليم كل من ينوى ويريد الميل فيه عن دين الله، وإذا كان الأمر كذلك، فمن ينوى ويفعل يكون عقابه أشد، ومصيره أقبح.

ويدخل تحت هذا التهديد كل ميل عن الحق إلى الباطل، أو عن الخير إلى الشر كالاحتكار، والغش.

ولذا قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك: «وأولى الأقوال التى ذكرناها فى تأويل ذلك بالصواب: القول الذى ذكرناه من أن المراد بالظلم

فى هذا الموضع ، كل معصية لله ، وذلك لأن الله عم بقوله : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم » ، ولم يخصص به ظلما دون ظلم فى خبر ولا عقل ، فهو على عمومه فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام : ومن يرد فى المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصى الله فيه ، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له »[١] .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن بناء البيت وتطهيره فقال ـ تعالى ـ : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا يشرك بى شيئا . . » .

وبوأنا من التبوء بمعنى النزول فى المكان . يقال بوأته منزلا ، أى : أنزلته فيه ، وهيأته له ، ومكنته منه .

والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن هيأنا لنبينا إبراهيم مكان بيتنا الحرام ، وأرشدناه إليه ، لكى يبنيه بأمرنا ، ليكون مثابة للناس وأمنا .

قال بعض العلماء : « والمفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب ريح تسمى الخجوج ، كنست مافوق الأساس ، حتى ظهر الأساس الأول الذى كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه . . . وأن محل البيت كان مربض غنم لرجل من جرهم .

وغاية مادل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له ، وعرفه إياه ليبنيه فى محله ، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله .

وظاهر قوله ـ تعالى ـ على لسان إبراهيم : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . . . » يدل على أنه كان مبنيا واندرس كما يدل عليه ـ أيضا ـ قوله هنا « مكان البيت » لأنه يدل على أن له مكانا سابقا كان معروفا »[٢] .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٠٥ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٦٢ .

و « أن » في قوله - تعالى - « أن لا تشرك بي شيئا » مفسرة ، والتفسير - كما يقول الآلوسي - باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : أمرنا إبراهيم بالعبادة ، وذلك فيه معنى القول دون حروفه . أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ .

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب - وقت أن هيأنا لإبراهيم - عليه السلام - مكان بيتنا الحرام ، وأوصيناه بعدم الإشراك بنا ، وبإخلاص العبادة لنا ، كما أوصيناه - أيضا - بأن يطهر هذا البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة الكفر والبدع والضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهيأ للطائفين به ، وللقائمين فيه لأداء فريضة الصلاة .

قال الشوكاني : « والمراد بالقائمين في قوله : « وطهر بيتي للطائفين والقائمين » المصلون .

وذكر « الركع السجود » بعده ، لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يشرعان إلا في البيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه »(١) .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام ، قذر من الأقذار ولا نجس من الأنجاس المعنوية ولا الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضى الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات .

ثم ذكر - سبحانه - ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال : « وأذن في الناس بالحج . يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ..... » .

والأذان : الإعلام . و « رجالا » أى : مشاة على أرجلهم ، جمع راجل . يقال : رجل فلان يرجل - كيفرح - فهو راجل ، إذا لم يكن معه ما يركبه .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٤٤٨ .

والضامر : البعير المهزول من طول السفر . وهو اسم فاعل من ضمر - بزنة قعد - يضمر ضمورا فهو ضامر ، إذا أصابه الهزال والتعب .

وجملة « يأتين من كل فج عميق » صفة لقوله « كل » ، والجمع باعتبار المعنى . كأنه قيل : وركبانا على ضوامر من كل طريق بعيد .

والفج فى الأصل : الفجوة بين جبلين ، ويستعمل فى الطريق المتسع . والمراد به هنا : مطلق الطريق وجمعه فجاج .

والعميق البعيد ، مأخوذ من العمق بمعنى البعد ، ومنه قولهم : بئر عميقة ، أى بعيدة الغور .

والمعنى : واعلم يا إبراهيم الناس بفريضة الحج ، يأتوك مسرعين مشاة على أقدامهم ، ويأتوك راكبين على دوابهم المهزولة ، من كل مكان بعيد .

قال ابن كثير : أى : ناد - يا إبراهيم - فى الناس داعيا إياهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يارب ، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا يصل إليهم ؟ فقيل : ناد وعلينا البلاغ . فقام على مقامه ، وقيل : على الحجر ، وقيل على الصفا ، وقيل : على أبى قبيس ، وقال : يأيها الناس ؛ إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض .. وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك »(1) .

وقيل : إن الخطاب فى قوله - تعالى - : « وأذن ... » للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن الكلام عن إبراهيم - عليه السلام - قد انتهى عند قوله - تعالى - : « والركع السجود » .

وجمهور المفسرين على أن الخطاب لإبراهيم - عليه السلام - لأن سياق الآيات يدل عليه ، ولأن التوافد على هذا البيت موجود منذ عهد إبراهيم ،

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤١٠

وما يزال وعد الله يتحقق منذ هذا العهد إلى اليوم وإلى الغد ، وما تزال أفئدة ملايين الناس تهوى إليه ، وقلوبهم تشرح لرؤيته ، وتسعد بالطواف من حوله .

وقوله - سبحانه - : « ليشهدوا منافع لهم » متعلق بقوله « ايشهدوا » .

أى : يأتوك الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد ، ليشهدوا وليحصلوا منافع عظيمة لهم فى دينهم وفى دنياهم .

ومن مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابة دعائهم ، ورضا الله - تعالى - عنهم .

ومن مظاهر منافعهم الدنيوية : اجتماعهم فى هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء وغير ذلك من أنواع المعاملات التى أحلها الله - تعالى - .

وجاء لفظ « منافع » بصيغة التنكير ، للتعميم والتعظيم والتكثير . أى : منافع عظيمة وشاملة لأمور الدين والدنيا ، وليس فى الإمكان تحديدها لكثرتها وقوله « ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام » معطوف على قوله « ليشهدوا » .

والمراد بالأيام المعلومات : الأيام العشر الأولى من شهر ذى الحجة ، أو هى أيام النحر ، أو يوم العيد وأيام التشريق .

والمراد ببهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم .

أى : ليشهدوا منافع لهم ، وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته فى تلك الأيام المباركة . وليشكروه على مارزقهم من بهيمة الأنعام التى يتقربون إليه - سبحانه - عن طريق ذبحها وإراقة دمائها ، واستجابة لأمره - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » : إرشاد منه - تعالى - إلى كيفية التصرف فيها بعد ذبحها .

أي : فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ، أي : الذى أصابه بؤس ومكروه بجانب فقره واحتياجه .

قال الآلوسى : «والأمر فى قوله «فكلوا منها . . » للإباحة بناء على أن الأكل كان منهيا عنه شرعا . وقد قالوا : إن الأمر بعد المنع يقتضى الإباحة ويدل على سبق النهى قوله - صلى الله عليه وسلم - : «كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخروا» .

وقيل : لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون فيه ، أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم فى الأكل منها . . »[1]

ثم بين - سبحانه - ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال : «ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق» .

والمراد بالقضاء هنا : الإزالة ، وأصله القطع والفصل فأريد به الإزالة على سبيل المجاز .

والتفث : الوسخ والقذر ، كطول الشعر والأظفار يقال : تفث فلان - كفرح - يتفث تفثا فهو تفث ، إذا ترك الاغتسال والتطيب والتنظيف فأصابته الأوساخ .

والمراد بالطواف هنا : طواف الإفاضة ، الذى هو أحد أركان الحج ، وبه يتم التحلل .

والعتيق : القديم حيث إنه أول بيت وضع لعبادة الله فى الأرض ، وقيل سمى بالعتيق لأن الله - تعالى - أعتقه من أن يتسلط عليه جبار فيهدمه أو يخربه .

والمعنى : ثم بعد حلهم وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك . فليزيلوا عنهم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٤٦ .

أدرانهم وأوساخهم ، وليوفوا نذورهم التى نذروها لله - تعالى - فى حجهم ، وليطوفوا طواف الإفاضة ، بهذا البيت القديم الذى جعله الله - تعالى - أول بيت لعبادته ، وصانه من إعتداء كل جبار أثيم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد توعدت كل من يصد الناس عن هذا البيت بأشد ألوان الوعيد ، وبينت أن الناس فيه سواء ، وتحدثت عن جانب من فضله - سبحانه - على نبيه إبراهيم - عليه السلام - حيث أرشده إلى مكان هذا البناء ، وشرفه بتهيئته ليكون أول مكان لعبادته - تعالى - ، وأمره بأن ينادى فى الناس بالحج إليه ، ليشهدوا منافع عظيمة لهم .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن الذين يعظمون حرمات الله ، وعما أحله الله لعباده من الأنعام ، وعن سوء عاقبة من يشرك بالله ، فقال - تعالى - :

« ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) » .

واسم الإشارة « ذلك » فى قوله : « ذلك ومن يعظم حرمات الله ... »

يؤتى به مثل هذا التركيب للفصل بين كلامين. والمشهور فى مثل هذا التركيب الإتيان بلفظ «هذا» . كما فى قوله - تعالى - : «هذا وإن للمتقين لحسن مآب» .

وجىء هنا بلفظ ذلك للإشعار بتعظيم شأن المتحدث عنه ، وعلو منزلته وهو يعود إلى المذكور من تهيئة مكان البيت لإبراهيم ، وأمره بتطهيره . . . الخ .

قال صاحب الكشاف : « قوله «ذلك» خبر مبتدأ محذوف . أى : الأمر والشأن ذلك . كما يقدم الكاتب جملة من كتابه فى بعض المعانى ، ثم إذا أراد الخوض فى معنى آخر قال : هذا ، وقد كان كذا »[1].

والحرمات : جمع حرمة . والحرمة كل ما أمر الله - تعالى - باحترامه ، ونهى عن قوله أو فعله ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا ما يتعلق بمناسك الحج كتحريم الرفث والفسوق والجدال والصيد ، وتعظيم الحرمات يكون بالعلم بوجوب مراعاتها ، وبالعمل بمقتضى هذا العلم.

والمعنى : ذلك الذى ذكرناه لكم عن البيت الحرام ، وعن مناسك الحج ، هو جانب من أحكام الله - تعالى - فى هذا الشأن فاتبعوها ، والحال أن يعظم حرمات الله - تعالى - بأن يترك ملابستها واقترافها ، فهو أى : هذا التعظيم ، خير له عند ربه ، إذ بسبب هذا التعظيم لتلك الحرمات ينال رضا ربه وثوابه .

وقد جاء النهى فى هذه الجملة عن فعل هذه الحرمات بأبلغ أسلوب . حيث عبر عن اجتنابها بالتعظيم وبأفعل التفضيل وهو لفظ « خير » وبإضافتها إلى ذاته .

فكأنه - سبحانه يقول : إذا كان ترك هذا التعظيم لحرمات الله يؤدى

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٥٤ .

إلى حصولكم على شىء من المتاع الدنيوى الزائل ، فإن الاستمساك بهذا التعظيم أفضل من ذلك بكثير عند ربكم وخالقكم، فكونوا عقلاء ولا تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .

ثم بين - سبحانه بعض الأحكام التى تتعلق بالأنعام وهى الإبل والبقر والغنم فقال : « وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم . . . »

أى : وأحل الله - تعالى - لكم - فضلا منه ورحمة - ذبح الأنعام وأكلها إلا ما يتلى عليكم تحريم ذبحه وأكله فاجتنبوه .

وهذا الإجمال هنا ، قد جاء ما فصله قبل ذلك فى سورة الأنعام فى قوله - تعالى - : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به . . . »

قال بعض العلماء : «ثم إنه ليس المقصود بما يتلى ، ما ينزل فى المستقبل ، كما يعطيه ظاهر الفعل المضارع . بل المراد ما سبق نزوله مما يدل على حرمة الميتة وما أهل لغير الله به . أو ما يدل على حرمة الصيد فى الحرم أو حالة الإحرام .

وعلى هذا يكون السر فى التعبير بالمضارع ، التنبيه إلى أن ذلك المتلو ينبغى استحضاره والالتفات إليه . . . والجملة معترضة لدفع ما عساه يقع فى الوهم من أن تعظيم حرمات الله فى الحج قد يقضى باجتناب الأنعام ، كما قضى باجتناب الصيد »[1] .

ثم أمرهم - سبحانه - باجتناب ما يغضبه ، وحضهم على الثبات على الدين الحق فقال - تعالى - : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به » والفاء فى قوله : « فاجتنبوا » هى الفصيحة . والرجس : الشىء المستقذر الذى تعافه النفوس . و « من » فى قوله

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٢ ص ٧٢ لفضيلة المرحوم الشيخ محمد على السايس .

« من الأوثان » بيانية والأوثان : الأصنام ، يدخل فى حكمها ومعناها عبادة كل معبود من دون الله ـ تعالى ـ كائناً من كان .

وسماها ـ سبحانه ـ رجسا ، زيادة تقبيحها وفى التنفير منها .

والزور : الكذب والباطل . وكل قول مائل عن الحق فهو زور ، لأن أصل المادة التى هى الزور من الأزورار بمعنى الميل والاعوجاج ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين . » أى : تميل .

وقوله « حنفاء » جمع حنيف وهو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق .

والمعنى : مادام الأمر كما ذكرت لكم ، فاجتنبوا ـ أيها الناس عبادة الاوثان أو تعظيمها ، واجتنبوا أيضاً ـ القول المائل عن الحق ، وليكن شأنكم وحالكم الثبات على الدين الحق ، وعلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ الذى خلقكم ، وخلق كل شىء .

وهذه الجملة الكريمة مؤكدة لما سبق وجوب تعظيم حرمات الله ، ومن وجوب التمسك بما أحله الله والبعد عما حرمه .

قال الآلوسى : « وقوله ـ تعالى ـ : « واجتنبوا قول الزور » تعميم بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، لما فيها من إدعاء الاستحقاق ، كأنه ـ تعالى ـ لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما ، والافتراء على الله ـ تعالى ـ بأنه حكم بذلك . ولم يعطف قول الزور على الرجس ؛ بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء . والإضافة بيانية . . . »(1)

وجملة « حنفاء لله » وجملة « غير مشركين به » حالان مؤكدان لما قبلهما من وجوب اجتناب عبادة الأوثان ، واجتناب قول الزور .

أى : اجتنبوا ما أمرناكم باجتنابه حال كونكم ثابتين على الدين الحق ، مخلصين لله العبادة .

(1) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٥

ثم صور - سبحانه - حال من يشرك بالله تصويراً تنخلع له القلوب، ويحمل كل عاقل على إجتناب هذا الرجس فقال: «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق».

أى: ومن يشرك بالله - تعالى - فى عبادته، ومات على ذلك، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله، أو تسقطه الريح فى مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر.

والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين، وبيان أن الوقوع فى الشرك يؤدى إلى الهلاك الذى لا نجاة معه بحال، لأن من يسقط من السماء فتمزق أوصاله، وتتخطفه الطير أو تلقى به الريح فى مكان بعيد لا يطمع له فى نجاة، بل هو هالك لا محالة.

قال صاحب الكشاف: «يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا - أى قطعاً - فى حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح - أى المقاذف - البعيدة.

وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة، بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة»[1].

ثم أمر - سبحانه - بتعظيم شعائره بعد أن أمر بتعظيم حرماته فقال: «ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب».

قال القرطبى: «والشعائر: جمع شعيرة. وهى كل شىء لله - تعالى - فيه أمر

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص١٥٥.

أشعر به وأعلم . ومنه شعار القوم فى الحرب ، أى : علامتهم التى يتعارفون بها. ومنه إشعار البدنة وهو الطعن فى جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة لها . . فشعائر الله : إعلام دينه لا سيما مايتعلق بالمناسك وقال قوم : المراد هنا تسمين البدن . والاهتمام أمرها . . . »(١) .

والمعنى : ذلك الذى أمرناكم به أو نهيناكم عنه عليكم امتثاله وطاعته ، والحال أن من يعظم شعائر الله ، التى من بينها الذبائح التى يتقرب بها إليه - تعالى - يكون تعظيمه إياها عن طريق تسمينها وحسن اختيارها دليلا على تقوى القلوب ، وحسن صلتها بالله - سبحانه - وخشيتها منه ، وحرصها على رضاه - عز وجل - .

قال الآلوسى : «وتعظيمها أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان روى أنه - صلى الله عليه وسلم - أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة - أى حلقة - من ذهب . وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ، فسأل النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك ، وقال له : بل أهدها . . . »(٢) .

وفى إضافة هذه الشعائر إلى الله - تعالى - : حض على الاهتمام بها ، وفعل مايرضى الله - تعالى - بالنسبة لها .

والضمير المؤنث فى قوله « فإنها من تقوى القلوب » يعود على الفعلة التى يتضمنها الكلام ، أو إلى الشعائر بحذف المضاف ، أى : فإن تعظيمها أى الشعائر من تقوى القلوب ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٥٦ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ١٥٠ .

وقوله -سبحانه- : «لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق» بيان لبعض مظاهر نعم الله - تعالى - عليهم فى هذه الأنعام .

أى : لكم - أيها المؤمنون - فى تلك الأنعام التى تقدمونها قربة لله-تعالى- «منافع» تصل إليكم عن طريق ركوبها ولبنها ونسلها . . . . وهذه المنافع موقوتة إلى وقت معين ، هو وقت ذبحها أو وقت تعيينها وتسميتها هديا ، أما بعد ذلك فاتركوا الانتفاع بها للفقراء والمحتاجين ، فهذا أكثر ثوابا لكم عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - «ثم محلها إلى البيت العتيق» بيان لمكان ذبحها .

والمحل مأخوذ من حل الشىء يحل - بالكسر - حلولا إذا وجب أو انتهى أجله . والمراد به فى الآية مكان الحلول ، أى : المكان الذى ينتهى فيه أجل تلك الأنعام ، أو المكان الذى يجب ذبحها فيه .

والمعنى : لكم فى تلك الأنعام منافع إلى أجل مسمى ثم المكان الذى تذبح فيه منته إلى البيت العتيق . ومتصل به .

والمقصود بهذا المحل الحرم كله ، لأن البيت ليس مكانا للذبح .

وبعضهم يرى أن المراد بالمحل فى قوله : «ثم محلها إلى البيت العتيق» : تحلل الحجاج من إحرامهم بعد أداء شعائر الحج المعبر عنها بقوله - تعالى - : «ذلك ومن يعظم شعائر الله . . .» .

قال القرطبى : «قوله - تعالى - «ثم محلها إلى البيت العتيق» يريد أنها تنتهى إلى البيت ، وهو الطواف . فقوله : «محلها» مأخوذ من إحلال المحرم والمعنى : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه . . .»[1] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٥٦ .

ثم بين - سبحانه - أنه قد شرع لكل أمة الذبائح التى ينتفعون بها ، لكى يذكروه - سبحانه - ويشكروه ويخلصوا له العبادة ، ولكى يطعموا منها السائل والمحتاج ، فقال - تعالى - :

« ولِكُلِّ أمةٍ جَعَلْنا مَنْسكا ليذكُروا اسمَ اللهِ على ما رزقَهم مِنْ بَهِيمةِ الأنعامِ . فإلهكُم إلهٌ واحدٌ ، فلهُ أسلِموا وبشِّرِ المخبتينَ (٣٤) الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَت قلوبُهم ، والصابرينَ على ما أصابهم ، والمقيمي الصَّلاةِ ومما رزقْناهم ينفِقُونَ (٣٥) والبُدْنَ جعلناها لكم مِنْ شعائرِ اللهِ لكم فيها خيرٌ ، فاذكُروا اسم اللهِ عليْها صوافَّ ، فإذَا وجبتْ جُنوبها فكلُوا منها وأطعِمُوا القانِعَ والمعترَّ ، كذلكَ سخَّرناها لكُم لعلكُم تشكُرونَ (٣٦) لن ينالَ اللهَ لحومُها ولادِماؤُها ولكنْ ينالُه التَّقْوى منكم ، كذلكَ سَخَّرها لكُم لتكبِّروا اللهَ علَى ما هَداكُم وبشِّرِ المُحسنِينَ (٣٧) » .

والمنسك - بفتح السين وكسرها - مأخوذ من النسك بمعنى العبادة ، فيجوز أن يراد به النسك نفسه ، ويجوز أن يراد به مكانه أو زمانه .

ويبدو أن المراد به هنا عبادة خاصة وهى الذبح تقربا إلى الله - تعالى - .

قال الآلوسى : «والمنسك موضع النسك إذا كان اسم مكان، أو النسك إذا كان مصدرا . وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه - تعالى - فجعله مصدرا ، وحمل النسك على عبادة خاصة، وهو أحد استعمالاته وإن كان فى الأصل بمعنى العبادة مطلقا ، وشاع فى أعمال الحج ..»[١] .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٥٢

وجملة «ولكل أمة ....» معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : «لكم فيها منافع إلى أجل المسمى .....» .

والمعنى : جعلنا لكم - أيها المؤمنون - منافع كثيرة فى هذه الأنعام إلى وقت معين ، ثم تكون نهايتها وذبحها عند البيت الحرام ، كما جعلنا وشرعنا لمن قبلكم من الأمم شعيرة الذبح ليتقربوا بها إلينا ، وأرشدناهم إلى المكان الذى يذبحون فيه ، وإلى أفضل الطرق التى تجعل ، ذبائحهم مقبولة عندنا .

وفى هذه الجملة الكريمة «ولكل أمة جعلنا منسكا» تحريك لنفوسهم نحو الإقدام على إراقة الدم تقربا إلى الله ، لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة وحدها ، وإنما هى من شعائرها ومن شعائر الأمم التى سبقتها .

وقوله - تعالى - : «ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام ..» بيان للعلة التى من أجلها شرعت تلك الذبائح .

أى : شرعناها لكم وللأمم السابقة عليكم الإكثار من ذكر الله عند ذبحها فهو - سبحانه - الذى رزقكم إياها بفضله وإحسانه ، فعليكم أن تكثروا من ذكره وشكره ، ليزيدكم من خيره ورزقه .

وفى هذه الجملة الكريمة تعريض وتوبيخ لمن يذكرون غير اسم الله - تعالى - عند الذبح ، وتأكيد لوجوب ذكر اسمه - تعالى - ، حتى لكأن المقصود الأعظم من وراء ذبح هذه الأنعام ، هو المداومة على ذكر اسم الله - عز وجل - وعلى شكره - سبحانه - على نعمه ، أما ماسوى ذلك كالأكل منها ، والانتفاع بها ... فهى مقاصد فرعية .

ثم عقب - سبحانه - على ذلك بتقرير وحدانيته ، وبوجوب إسلام الوجه إليه ، فقال : «فإلهكم إله واحد فله أسلموا» .

أى : شرعنا لكم ذلك لأن إلهكم إله واحد لاشريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ، فله وحده أسلموا وجوهكم ، وأخلصوها لعبادته وطاعته .

بجمله ، فالحكم إله واحد ، بمثابة العلة لما قبلها من تخصيص اسمه الكريم بالذكر عند الذبح ، لأن تفرده - سبحانه - بالألوهية يستلزم هذا التخصيص .

وقوله - تعالى - « فله أسلموا » مرتب على ماقبله، لأنه متى ثبت أن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد الأحد ، فعليهم أن يسلموا وجوههم إليه

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يبشر المخبتين برضاه - سبحانه - ومثوبته فقال : « وبشر المخبتين » أى : المتواضعين لله - تعالى - المطمئنين إلى عدالة قضائه فيهم ، ولفظ « المخبتين » من الإخبات . وهو فى الأصل نزول الخبت - بفتح الخاء وسكون الباء - .

أى : المكان المنخفض ، ثم استعمل فى اللين والتواضع . يقال : فلان مخبت ، أى : متواضع خاشع لله رب العالمين .

وحــــذف - سبحانه - المبشر به لتهويله وتعظيمه ، أى : وبشر - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المتواضعين لله - تعالى - بالثواب العظيم ، والأجر الكبير الذى لاتحيط بوصفه عبارة .

ثم مدحهم - سبحانه - بأربع صفات فقال : « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .

أى : بشر هؤلاء المخبتين الذين من صفاتهم أنهم إذا سمعوا ذكر الله - تعالى - وصفاته ، وحسابه لعباده يوم القيامة ، خافت قلوبهم ، وحذرت معصيته - تعالى - :

والذين من صفاتهم كذلك : الصبر على مايصيبهم من مصائب ومحن فى هذه الحياة ، والمداومة على أداء الصلاة فى مواقيتها بإخلاص وخشوع ، والإنفاق مما رزقهم الله - تعالى - على الفقراء والمحتاجين .

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى وصفت المؤمنين الصادقين بأنهم

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وبين قوله ـ تعالى ـ فى آية أخرى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

فالجواب : أنه لا تنافى بين الآيتين ، لأن من شأن المؤمن الصادق أنه إذا استحضر وعيد الله وحسابه لعباده يوم القيامة ، امتلأ قلبه بالخشية والخوف والوجل .

فإذا ما استحضر بعد ذلك رحمته ـ سبحانه ـ وسعة عفوه ، اطمأن قلبه وسكن روعه ، وثبت يقينه ، وانشرح صدره ، واستسلم لقضاء الله وقدره بدون تردد أو تشكك أو جزع .

فالوجل والاطمئنان أمران يجدهما المؤمن فى قلبه ، فى وقتين مختلفين . وفى حالتين متمايزتين .

ويؤخذ من هاتين الآيتين : أن التواضع لله ـ تعالى ـ ، والمراقبة له ـ سبحانه ـ والصبر على بلائه ، والمحافظة على فرائضه . . . كل ذلك يؤدى إلى رضاه ـ عز وجل ، وإلى السعادة الدنيوية والأخروية .

ثم أكد ـ سبحانه ـ ما سبق الحديث عنه من وجوب ذكر اسمه ـ تعالى ـ عند الذبح ، ومن وجوب شكره على نعمه فقال : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله » .

والبدن : جمع بدنة . وهى الإبل خاصة التى تهدى إلى البيت الحرام للتقرب بها إلى الله ـ تعالى ـ وقيل : البدن تطلق على الإبل والبقر .

وسميت بهذا الإسم لبدانتها وضخامتها . يقال : بدن الرجل ـ بوزن كرم ـ إذا كثر لحمه ، وضخم جسمه .

أى : وشرعنا لكم ، أيها المؤمنون ـ التقرب إلينا بالإبل البدينة السمينة وجعلنا ذلك شعيرة من شعائر ديننا ، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص .

وقوله - تعالى - « لكم فيها خير » جملة مستأنفة مقررة لما قبلها . أى : لكم فيها خير فى الدنيا عن طريق الانتفاع بألبانها ووبرها . . . ولكم فيها خير فى الآخرة عن طريق الثواب الجزيل الذى تنالونه من خالقكم بسبب استجابتكم لما أرشدكم إليه .

وقوله - تعالى - : « فاذكروا اسم الله عليها صواف » إرشاد لما يقوله الذابح عند ذبحها .

وصواف : جمع صافة . أى : قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن . استعدادا للذبح .

أى : إذا ما هيأتم هذه الإبل للذبح ، فاذكروا اسم الله عليها ، بأن تقولوا عند نحرها : بسم الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك .

وقوله - سبحانه - : « فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » بيان لما ينبغى عليهم فعله بعد ذبحها .

ووجبت بمعنى سقطت : وهو كناية عن موتها . يقال : وجب الجدار إذا سقط ، ووجبت الشمس إذا غابت .

والقانع : هو الراضى بما قدره الله - تعالى - له ، فلا يتعرض لسؤال الناس مأخوذ من قنع يقنع - كرضى يرضى - وزنا ومعنى .

والمعتر : هو الذى يسأل غيره ليعطيه . يقال : فلان يعترى الأغنياء ، أى : يذهب إليهم طالبا عطاءهم .

وقيل : القانع هو الطامع الذى يسأل غيره ، والمعتر : هو الذى يتعرض للعطاء من غير سؤال وطلب .

أى : فإذا ماسقطت جنوب هذه الإبل على الأرض ، وأعددتموها للأكل فكلوا منها ، وأطعموا الفقير القانع الذى لايسألكم ، والفقير المعتر الذى يتعرض لكم بالسؤال والطلب .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر فضله عليهم ، حيث ذلل هذه الأنعام لهم فقال : « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » .

وقوله « كذلك » نعت لمصدر محذوف . أى : مثل ذلك التسخير البديع سخرنا لكم هذه الأنعام ، وذللناها لكم ، وجعلناها منقادة لأمركم ، لعلكم بعد أن شاهدتم هذه النعم ، وانتفعتم بها ، تكونون من الشاكرين لنا ، المستجيبين لتوجيهاتنا وإرشادنا .

قال صاحب الكشاف : «من الله على عباده واستحمد إليهم ، بأن سخرلهم البدن مثل التسخير الذى رأوا وعلموا . يأخذونها منقادة للأخذ طيعة ، فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون فى لباتها . ولولا تسخير الله لم تطعن ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى أصغر منها جرما ، وأقل قوة ، وكفى بما يتأبد من الإبل مشاهداً على ذلك »[1] .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الحديث عن شعائر الحج ، بتوجيه عباده إلى وجوب الإخلاص له ، والاستجابة لأمره ، وشكره على نعمه ، فقال ـ تعالى ـ : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ... » .

أى : لن يصل إلى الله ـ تعالى ـ لحم هذه الأنعام ودماؤه ، من حيث هى لحوم ودماء ، ولكن الذى يصل إليه ـ سبحانه ـ ويثيبكم عليه ، هو تقواكم ومراقبتكم له ـ سبحانه ـ وخوفكم منه ، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم العبادة له .

قالوا : وفى هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون ، من تقطيعهم للحوم الأنعام ، ونشرها حول الكعبة ، وتلطيخها بالدماء ، وتحذير للمسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجهلاء ، إذ رضا الله ـ تعالى ـ لا ينال بذلك ، وإنما ينال بتقوى القلوب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٥٩ .

ثم كرر ـ سبحانه ـ تذكيره إياهم بنعمه، ليكون أدعى إلى شكره وطاعته فقال: «كذلك سخرناها لكم، لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين».

أى: كهذا التسخير العجيب الذى ترونه سخرنا لكم هذه الأنعام، لكى تكبروا الله وتعظموه وتقدسوه بسبب هدايته لكم إلى الإيمان.

وبشر ـ أيها الرسول الكريم ـ المحسنين لأقوالهم وأفعالهم، بثوابنا الجزيل وبعطائنا الواسع».

وبذلك نرى أن سورة الحج قد سبحت بنا سبحا طويلا فى حديثها عن البيت الحرام، وعن آداب الحج ومناسكه وأحكامه، وعن الجزاء الحسن الذى أعده ـ تعالى ـ للمستجيبين لأمره.

وبعد هذا الحديث عن الشعائر والمناسك، أذن ـ سبحانه ـ للمؤمنين بالقتال فى سبيله، للدفاع عن دينه وشعائره، ووعدهم ـ عز وجل ـ بالنصر متى نصروه وحافظوا على فرائضه ... فقال ـ تعالى ـ:

« إنَّ اللهَ يدَافعُ عن الذينَ آمنُوا ، إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خوَّانٍ كفُور (٣٨) أُذِنَ للَّذِينَ يقاتَلُونَ بأنَّهم ظلِمُوا ، وإنَّ الله على نَصْرِهم لقدِيرٌ (٣٩) الذينَ أُخرِجُوا من ديارِهم بغَيرِ حقٍّ إلاَّ أَنْ يقُولُوا ربُّنا الله ، ولولاَ دفعُ اللهِ النـاسَ بَعضهم ببَعْضٍ لهدِّمَتْ صـوامعُ وبيَعٌ وصـلواتٌ ومساجِدُ يذكَرُ فيها اسم اللهِ كثيراً ، ولينصُرنَّ اللهُ من ينصُره إنَّ اللهَ لقوِىٌّ عزِيزٌ (٤٠) الذينَ إنْ مكنّاهُم فى الأرضِ أقاموا الصَّـلاةَ وآتوُا الزَّكاةَ وأمَرُوا بالمعروفِ ونَهوا عن المنـكر ولله عاقبةُ الأمورِ (٤١) ».

قال الفخر الرازى : «أعلم أنه - تعالى - لما بين ما يلزم فى الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وما كان من صد الكفار عنه ، أتبع ذلك ببيان مايزيل الصد . ويؤمن معه التمكن من الحج فقال - تعالى - «إن الله يدافع عن الذين آمنوا ...»(١).

ومفعول «يدافع» محذوف . وجاء التعبير بقوله - تعالى - «يدافع» بصيغة المفاعلة ، للمبالغة فى الدفاع والدفع ، أو الدلالة على أن ذلك حاصل للمؤمنين كلما حصل من الكافرين عدوان عليهم .

أى : إن الله - تعالى - بفضله وكرمه يدافع عن المؤمنين أعداءهم وخصومهم ، فيرد كيدهم فى نحورهم .

ويصح أن يكون «يدافع» بمعنى يدفع ، ويؤيده قراءة ابن كثير وأبى عمرو . أى : إن الله - تعالى - يدفع السوء عن عباده المؤمنين الصادقين، ويجعل العاقبة لهم على أعدائهم .

فالجملة الكريمة بشارة للمؤمنين ، وتقوية لعزائمهم،حتى يقبلوا على ماشرعه الله لهم من جهاد أعدائهم، بثبات لا تردد معه.وبأمل عظيم فى نصر الله وتأييده.

وقوله سبحانه - : «إن الله لا يحب كل خوان كفور» تعليل لوعده - سبحانه - للمؤمنين بالدفاع عنهم ، ويجعل العاقبة لهم .

والخوان : هو الشديد الخيانة . والكفور : هو المبالغ فى كفره وجحوده، فاللفظان كلاهما صيغة مبالغة .

قال الآلوسى : «وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك ، لا للتقييد المشعر بمحبة الخائن والكافر ...»(٢) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص١٦٢ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص ١٦١

أى : إن الله - تعالى - يدافع عن المؤمنين لمحبته لهم ، ويبغض هؤلاء الكافرين الذى بلغوا فى الخيانة والكفر أقصى الدركات .

وأوثر التعبير بقوله - تعالى - « لا يحب » على قوله : يبغض أو يكره ، الإشعار بأن المؤمنين هم أحباء الله - تعالى - ، وللتعريض بهؤلاء الكافرين الذين تجاوزوا كل حد فى كراهيتهم الحق .

ثم رخص - سبحانه - للمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيله فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ..... » .

وقوله - تعالى - « أذن » فعل ماض مبنى للمجهول مأخوذ من الإذن بمعنى الإباحة والرخصة . والمقصود إباحة مشروعية القتال ، وقد قالوا : بأن هذه الآيات ، أول مانزل فى شأن مشروعية القتال .

أخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عباس قال : لما خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فنزلت هذه الآيات .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائى « أذن » بالبناء للفاعل . والمأذون لهم فيه هو القتال ، وهو محذوف فى قوة المذكور بدليل قوله « يقاتلون » والباء فى قوله « بأنهم ظلموا » للسببية .

أى : أذن الله - تعالى - للمؤمنين ، ورخص لهم بأن يقاتلوا أعداءهم الذين ظلموهم ، وآذوهم ، واعتدوا عليهم ، بعد أن صبر هؤلاء المؤمنون على أذى أعدائهم صبرا طويلا .

قال الآلوسى : « والمراد بالموصول أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - الذين فى مكة ، فقد نقل الواحدى وغيره ، أن المشركين كانوا يؤذونهم ، وكانوا يأتون النبى - صلى الله عليه وسلم - بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال حتى هاجر - صلى الله عليه وسلم - ،

فنزلت هذه الآية . وهى أول آية نزلت فى القتال بعد مانهى عنه فى نيف وسبعين آية »[1] .

وقوله - تعالى - : « وإن الله على نصرهم لقدير » وعد منه - سبحانه - المؤمنين بالنصر وحض لهم على الإقدام على الجهاد فى سبيله بدون تردد أو وهن.

أى : وإن الله - تعالى - لقادر على أن ينصر عباده المؤمنين . وعلى أن يمكن لهم فى الأرض ، وعلى أن يجعلهم الوارثين لأعدائهم الكافرين .

قال الإمام ابن كثير ماملخصه : « وقوله : « وإن الله على نصرهم لقدير » أى : هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلو جهدهم فى طاعته ، كما قال - تعالى - : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ... »

وإنما شرع - سبحانه - الجهاد فى الوقت الأليق به ، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددا . فلو أمر المسلمون بالقتال لشق ذلك عليهم . .

فلما استقروا بالمدينة ، وصارت لهم دار إسلام ، ومعقلا يلجأون إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول مانزل فى ذلك ... »[2] .

وقوله - سبحانه - : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ... » بيان لبعض الأسباب التى من أجلها شرع الله الجهاد فى سبيله .

أى : إن الله - تعالى - لقدير على نصر المؤمنين الذين أخرجهم الكافرون من ديارهم بغير حق . وبغير أى سبب من الأسباب، سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله - تعالى - وحده ، ولن نعبد من دونه إلها آخر .

---

(١) تفسير الآلوسى ج١٧ ص١٦٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٥ ص٤٣١ .

أى : ليس هناك مايوجب إخراجهم - فى زعم المشركين - سوى قولهم ربنا الله .

ثم حرض - سبحانه - المؤمنين على القتال فى سبيله ، بأن بين لهم أن هذا القتال يقتضيه نظام هذا العالم وصلاحه ، فقال - تعالى - : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .

والمراد بالدفع : إذن الله للمؤمنين فى قتال المشركين . والمراد بقوله : « بعضهم » الكافرون . وبقوله : « ببعض » المؤمنون .

والصوامع : جمع صومعة ، وهى بناء مرتفع يتخذه الرهبان معابد لهم.

والبيع : جمع بيعة - بكسر الباء - وهى كنائس النصارى التى لا تختص بالرهبان .

والصلوات : أماكن العبادة لليهود .

أى : ولولا أن الله - تعالى - أباح للمؤمنين قتال المشركين ، لعاث المشركون فى الأرض فسادا ، ولهدموا فى زمن موسى وعيسى أماكن العبادة الخاصة بأتباعهما ، ولهدموا فى زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - المساجد التى تقام فيها الصلاة .

قال القرطبى: وقوله - تعالى - : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ...» أى : ولولا ماشرعه الله - تعالى - للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء . لاستولى أهل الشرك . وعطلوا ما بناه أهل الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن وجب القتال ليفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم فى الأمم . وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال : أذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : « ولولا دفع الله الناس ... الآية » أى : لولا الجهاد والقتال لتغلب أهل الباطل على أهل الحق.

فى كل أمة . . . »(١) .

فالآية الكريمة تفيد أن الله - تعالى - قد شرع القتال لإعلاء الحق وإزهاق الباطل . ولولا ذلك لاختل نظام هذا العالم . وانتشر فيه الفساد .

والتعبير بقوله - تعالى - : «لهدمت» بالتشديد الإشعار بأن عدم مشروعية القتال ، يؤدى إلى فساد ذريع ، وإلى تحطيم شديد لأماكن العبادة والطاعة لله - عز وجل - .

وقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد ، باعتبار أنها أقدم منها فى الوجود ، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف .

ثم ساق - سبحانه - بأسلوب مؤكد سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : «ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز» .

أى : ووالله لينصرن - سبحانه - من ينصر دينه وأولياءه ، لأنه - تعالى - هو القوى على كل فعل يريده ، العزيز الذى لا يغالبه مغالب ، ولا ينازعه منازع .

وقد أنجز - سبحانه - وعده وسنته ، فسلط عباده المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، على أعدائه، فأذلوا الشرك والمشركين، وحطموا دولتى الأكاسرة والقياصرة ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الذين وعدهم بنصره بأكرم الصفات ليميزهم عن غيرهم فقال : «الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور» .

أى : ولينصرن الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، والذين من صفاتهم أنهم إذا ما مكنا لهم فى الأرض، ونصرناهم على أعدائهم ، شكروا لنا ما أكرمناهم به ، فأقاموا الصلاة فى مواقيتها

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٧٢ .

بخشوع وإخلاص، وقدموا زكاة أموالهم للمحتاجين، وأمروا غيرهم بالمعروف ونهوه عن المنكر ولله - تعالى - وحده عاقبة الأمور ومردها ومرجعها فى الآخرة، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

فالآية الكريمة تبين أن أولى الناس بنصر الله، هم هؤلاء المؤمنون الصادقون، الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد».

وقوله - تعالى - : «يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ....».

وبعد أن أذن الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين فى القتال، وبشرهم بالنصر ... أتبع ذلك بتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب تكذيب المشركين له ووبخ - سبحانه - أولئك المشركين على اعتبارهم بمن سبقهم فقال - تعالى - :

«وإنْ يكذِّبُوكَ فقدْ كذَّبَتْ قبلَهُم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمُودُ (٤٢) وقوم إبراهيمَ وقَومُ لوطٍ (٤٣) وأصحابُ مدْينَ وكُذِّب موسَى فأمليتُ للكافرِينَ ثم أخذتهم فكيفَ كانَ نكير (٤٤) فكأيِّنْ مِنْ قريةٍ أهلكناهَا وهىَ ظالمةٌ فهِىَ خاوِيةٌ على عروشِها، وبئرٍ معَطَّلةٍ وقَصْرٍ مشيدٍ (٤٥) أفلَمْ يَسِيروا فى الأرضِ فتكونَ لهُم قلوبٌ يعقِلُونَ بهاَ، أو آذانٌ يسمَعُون بهاَ، فإنَّها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكِنْ تَعْمَى القلوب التى فى الصُّدُور (٤٦) ويستعجِلُونَكَ بالعَذابِ ولن

يُخلِفَ اللهُ وعدَهُ ، وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّونَ (٤٧)
وكأيِّن مِنْ قريةٍ أمليتُ لها وهِيَ ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المصيرُ (٤٨)
قلْ يا أيُّها الناسُ إنَّما أنا لكُم نذيرٌ مبينٌ (٤٩) فالذينَ آمنُوا وعمِلُوا
الصَّالحاتِ لهُمْ مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ (٥٠) والذينَ سعَوا فى آياتِنا
مُعاجِزينَ أولئِكَ أصحابُ الجحيمِ (٥١) » .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك فيما جئتهم به من عند ربك ، وأعرضوا عنه ، فإن قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم موسى ، قد كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام ، ومايقال لك من هؤلاء المشركين ، قد قيل للرسل من قبلك .

قال - تعالى - : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين »[1] .

واستغنى فى عاد وثمود عن ذكر القوم ، لاشتهارهم بهذا الاسم الذى يدل دلالة واضحة على هؤلاء الظالمين .

وقال - سبحانه - وأصحاب مدين ، ولم يقل وقوم شعيب ، لأنهم هم الأسبق فى التكذيب له - عليه السلام - على أصحاب الأيكة ، ولأنهم هم أهله أما أصحاب الأيكة فكانوا غرباء عنه .

قال - سبحانه - « وكذب موسى » ، لأنه لم يكذب من جميع قومه وهم بنو إسرائيل . وإنما كان المكذب له هو فرعون وملأه ، والإشارة إلى أن موسى

(١) سورة الذاريات الآيات من ٥٢ - ٥٣ .

ـ عليه السلام ـ قد جاء إلى الناس بآيات واضحات تدل على صدقه، ومع ذلك فقد قوبل بالتكذيب من فرعون ومثله .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حل بهؤلاء من عقوبات فقال : « فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » .

والإملاء : الإمهال ، وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

والنكير : اسم مصدر بمعنى الإنكار . يقال : أنكرت على فلان فعله ، إذا ردعته وزجرته عنه .

أى : هؤلاء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ، لم أعاجلهم بالعقوبة ، بل أمهلتهم وأمليت لهم ، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، فانظر ـ أيها العاقل ـ كيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد كان إنكارا مخيفا مهلكا « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(١) .

وقال ـ سبحانه ـ « فأمليت للكافرين » بالإظهار دون الإضمار ، لزيادة التشنيع عليهم ، والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « فكيف كان نكير » للتهويل والتعجيب . أى : لقد كان إنكارا عظيما حول حياتهم إلى موت ، وعمرانهم إلى خراب ، وغرورهم إلى ذلة وهوان ... فعلى مشركى قريش أن يعتبروا بذلك ويتعظوا ... وإلا فالعاقبة معروفة لهم .

وبعد هذا البيان المشتمل على سوء عاقبة هذه الأمم التى كذبت رسلها .. أتبع ذلك ـ سبحانه ـ ببيان مصير كثير من الأمم الظالمة فقال : « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة ، وقصر مشيد » .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

وكلمة «كأين» مركبة من كاف التشبيه، ومن أي الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزءيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير، ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها. ومميزها غالبا مايجرى بمن كما في هذه الآية وفي غيرها. قال - تعالى -: «وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير». «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون».

قال الآلوسي: «وقوله: فكأين من قرية، منصوب بمضمر يفسره قوله - تعالى - «وأهلكناها» أي: فأهلكنا كثيرا من القرى أهلكناها. أو مرفوع على الابتداء، وجملة «أهلكناها» خبره.

أي: فكثير من القرى أهلكناها. وقوله: «وهي ظالمة» جملة حالية من مفعول أهلكنا...»[1].

ولفظ «خاوية» بمعنى ساقطة أو خالية. يقال خوى البيت يخوي إذا سقط أو خلا ممن يسكنه.

والعروش: جمع عرش. وهو سقف البيت. ويسمى العريش. وكل ماهيئ ليستظل به فهو عريش.

وبئر معطلة أي: مهجورة لهلاك أهلها، يقال بأر فلان الأرض إذا حفرها ليستخرج منها الماء.

والمشيد: المجصص بالشيد وهو الجص. يقال شاد فلان بيته يشيده. إذا طلاه بالشيد.

والمعنى: وكثير من القرى أهلكنا بسبب ظلمهم وكفرهم، فإذا مانظرت إليها وجدتها خالية من أهلها، وقد سقطت سقوفها على جدرانها. وكثير من الآبار التي كانت تنفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة، وكثير - أيضا -

---

(١) تفسير الآلوسي جـ١٧ ص ١٦٦.

من القصور المشيدة الفخمة أخليناها من أهلها . وذلك لأنهم كذبوا رسلنا، وجحدوا نعمنا، فدمرناهم تدميرا . وجعلنا مساكنهم من بعدهم أثرا بعد عين .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الوعيد والتهديد لكفار قريش الذين كذبوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأعرضوا عن دعوته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا »(١) .

ثم ينتقل القرآن الكريم من هذا التهديد الشديد ، إلى التوبيخ والتقريع لهؤلاء المشركين ، الذين لا يعتبرون ولا يتعظون فيقول : أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ... ؟

والاستفهام للتوبيخ والإنكار، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام.

والمعنى : إن مصارع الغابرين وديارهم ، يمر بها كفار قريش، ويعرفونها، فهم يرون فى طريقهم إلى الشام قرى صالح . وقرى قوم لوط ... قال - تعالى - : « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » .

والشأن فى هذه الرؤية أن تجعل صاحبها يعتبر ويتعظ ، متى كان عنده قلب يعقل ما يجب فهمه أو أذن تسمع ما يجب سماعه وتنفيذه ، ولكن هؤلاء الجاهلين يرون مصارع الغابرين فلا يعقلون ولا يعتبرون ويسمعون الأحاديث عن تلك الآبار المعطلة ، والقصور الخالية من سكانها ، والمنازل المهدمة، فلا يتعظون .

وقوله - تعالى - « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» بيان لسبب انطماس بصائرهم ، وقسوة قلوبهم .

---

(١) سورة الطلاق الآيتان ٨، ٩

والضمير فى قوله «فإنها» للقصة . أى : فإن الحال أنه لا يعتد بعمى الأبصار ، لكن الذى يعتد به هو عمى القلوب التى فى الصدور ، وهؤلاء المشركون قد أصيبوا بالعمى الذى هو أشنع عمى وأقبحه . وهو عمى القلوب عن الفهم وقبول الحق .

وذكر ـ سبحانه ـ أن مواضع القلوب فى الصدور ، لزيادة التأكيد ، ولزيادة إثبات العمى لتلك القلوب التى حدد ـ سبحانه ـ موضعها تحديدا دقيقا .

قال الآلوسى: «فالكلام تذييل لتهويل ما نزل بهم من عدم فقه القلب، وأنه العمى الذى لا عمى بعده، بل لا عمى إلا هو، أو المعنى: إن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها . وإن العمى بقلوبهم ، فكأنه قيل: أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر ، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم، وهى الآفة التى كل آفة دونها . كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعى عليهم تقاعدهم عنها»(١).

ثم أكد ـ سبحانه ـ انطماس بصائرهم ، حيث بين أنهم بدل أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه ، استعجلوه لعذاب فقال : «ويستعجلونك بالعذاب، ولن يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» .

أى : أن هؤلاء الطغاة بدل أن يسيروا فى الأرض فيعتبروا ويتعظوا ، أخذوا يطلبون منك ـ أيها الرسول الكريم ـ نزول العذاب عاجلا ، على سبيل الاستهزاء بك والاستخفاف بما هددناهم به ، ويقولون لك : متى هو ؟

فالجملة الكريمة «ويستعجلونك بالعذاب» خبرية فى اللفظ ، إستفهامية فى المعنى .

وقوله ـ سبحانه ـ : «ولن يخلف الله وعده» جملة حالية جىء بها لتهديدهم على استعجالهم العذاب . أى : والحال أن الله ـ تعالى ـ لن يخلف

(١) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص ١٦٧ .

ماوعدهم به من العذاب . بل هو منجزه فى الوقت الذى يريده هو وليس الذى يريدونه هم .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » جملة مستأنفة سيقت لبيان أن حساب الأزمان فى تقـــدير الله ـ تعالى ـ يخالف ما يقدره البشر .

أى دعهم ـ أيها الرسول الكريم ـ يستعجلون العذاب، فذلك دأب الظالمين فى كل حين ، وسبيل الجاهلين فى كل زمان ، وأعلمهم أن الله ـ تعالى ـ أن يخلف وعده إياهم به فى الوقت المحدد لذلك ، وإن يوما عنده ـ تعالى ـ كألف سنة مما يعده هؤلاء فى دنياهم ، وسيأتيهم هذا اليوم الذى يطول عليهم طولا شديدا ، لما يرون فيه من عذاب مهين .

قال القرطبى : « قوله ـ تعالى ـ : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » قال ابن عباس ومجاهد : يعنى من الأيام التى خلق فيها السموات . والأرض . وقال عكرمة : يعنى من أيام الآخرة ،أعلمهم الله إذا استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة وأنه يأتيهم به فى أيام طويلة .. وقال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة .

وقيل المعنى : وإن يوما فى الخوف والشدة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ... »[1] .

ثم أكد ـ سبحانه ـ أن إملاءه للظالمين ، سيعقبه العذاب الأليم ، فقال : « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير » .

أى : وكثير من القرى الظالمة أمهلت عقوبة أهلها إلى أجل مسمى ،ثم أخذتها بعد ذلك أخذا شديدا ، جعلهم فى قراهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، وسيرجعون إلينا فيجدون عذاباً أشد وأبقى ، إذ أن مصيرهم إلى غيرى .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٧٨ .

وبعد هذا العرض لمصارع الغابرين، وبيان سنة الله - تعالى - في المكذبين، يأمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرشد الناس إلى مصيرهم فيقول: «قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين».

أي: قل - أيها الرسول الكريم - للناس إن وظيفتي أن أنذركم وأخوفكم من عذاب الله، بدون التباس أو غموض.

«فالذين آمنوا، وعملوا الأعمال الصالحات لهم من ربهم مغفرة واسعة» ورزق كريم، لا انقطاع معه ولا امتناع.

«والذين سعوا في آياتنا معاجزين» أي: والذين بذلوا كل جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا، وأسرعوا في تكذيبها وغالبوا المؤمنين وعارضوهم ليظهروك بمظهر العاجز عن الدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم.

«أولئك» الموصوفون بهذا السعي الآثم «أصحاب الجحيم» أي: الملازمون للنار المتأججة ملازمة المالك لما يملكه.

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن فضل الله - تعالى - على أنبيائه ورسله حيث عصمهم من كيد الشيطان ووسوسته، وحفظ دعوتهم من تكذيب المكذبين، وعبث العابثين... فقال - تعالى -:

«وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ ولا نبيٍّ إلاَّ إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ في أُمْنِيَّتِه، فيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ، ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ (٥٢) ليَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً للَّذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وإنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بعِيدٍ (٥٣) وليَعْلَمَ الذينَ أُوتوا العِلْمَ أَنَّه الحقُّ من رَبِّكَ فيُؤْمِنُوا بِهِ»

فَتُخْبِتَ لهُ قلوبُهم ، وإنّ اللهَ لهـــــادِي الذينَ آمنُوا إلى صِرَاط مستَقِيم (٥٤) » .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق(١) ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا .

ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بمكة سورة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » .

قال : فألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن ترتجى » .

قالوا : ـ أي المشركون ـ : ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته .. »(٢) .

وجمع ـ سبحانه ـ بين الرسول والنبي . لأن المقصود بالرسول من بعث بكتاب ، وبالنبي من بعث بغير كتاب . أو المقصود بالرسول من بعث بشرع جديد ، وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله .

ولفظ « تمنى » هنا : فسره العلماء بتفسيرين :

أولهما : أنه من التمني ، بمعنى محبة الشيء ، وشدة الرغبة في الحصول عليه

(١) الغرانيق : المراد بها هنا الأصنام . وهي في الأصل تطلق على الذكور من طير الماء ، واحدها : غرنوق ـ بضم فسكون فضم ـ سمي به الطائر لبياضه . وقد كان المشركون يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله ـ تعالى ـ فسموها بالغرانيق تشبيها لها بالطيور التي ترتفع نحو السماء .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٢٨ طبعة دار الشعب .

ومفعول « ألقى » محذوف ، والمراد بإلقاء الشيطان فى أمنيته: محاولته صرف الناس عن دعوة الحق ، عن طريق إلقاء الأباطيل فى نفوسهم ، وتثبيتهم على ماهم فيه من ضلال .

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - يا محمد - من رسول ولا نبى ، إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين الحق الذى جاءهم به من عند ربه، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات فى طريق أمنيته لكى لا تتحقق هذه الأمنية، بأن يوهم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبى ساحر أو مجنون ، أو غير ذلك من الصفات القبيحة التى برأ الله - تعالى - منها رسله وأنبياءه .

قال - تعالى - : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون »(١) .

والآية الكريمة على هذا التفسير واضحة المعنى ، ويؤيدها الواقع ، إذ أن كل رسول أو نبى بعثه الله - تعالى - كان حريصا على هداية قومه ، وكان يتمنى أن يؤمنوا جميعا ، بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كاد يهلك نفسه هما وغما بسبب إصرار قومه على الكفر .

قال - تعالى - : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهـــذا الحديث أسفا »(٢) .

إلا أن قوم كل رسول أو نبى منهم من آمن به ، ومنهم من أعرض عنه بسبب إغواء الشيطان لهم ، وإيهامهم بأن ماهم عليه من ضلال هو عين الهدى .

وإلى هذا التفسير أشار صاحب الكشاف بقوله : قوله - تعالى - : « من رسول ولا نبى » دليل بين على تغاير الرسول والنبى . والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه . والنبى غير

(١) سورة الذاريات الآية ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦ .

الرسول : من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعوا الناس إلى شريعة من قبله .

والسبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أعرض عنه قومه وشاقوه ، وخالفته عشيرته ولم يشايعوه على ماجاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ماينفرهم، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم ... » (١) .

أما التفسير الثانى للفظ « تمنى » فهو أنه بمعنى قرأ وتلا . ومنه قول حسان ابن ثابت ، فى رثاء عثمان ـ رضى الله عنه :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

أى : قرأ وتلا كتاب الله فى أول الليل . وفى آخر الليل وفاه أجله .

ومفعول « ألقى » على هذا المعنى محذوف ـ أيضا ـ . والمراد بما يلقيه الشيطان فى قراءته : مايلقيه فى معناها من أكاذيب وأباطيل، ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه الرسول ومايتلوه ، وليس المراد أنه يلقى فيه ماليس منها بالزيادة أو بالنقص ، فإن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله ـ تعالى ـ الذى تكفل ـ سبحانه ـ بحفظه فقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٢) .

والمعنى : وما أرسلنا من قبلك ـ أيها الرسول الكريم ـ من رسول ولا نبى إلا إذا قرأ شيئا مما أنزلناه عليه ، ألقى الشيطان فى معنى قراءته الشبه والأباطيل، ليصد الناس عن اتباع مايتلوه عليهم هذا الرسول أو النبى .

قال الآلوسى ـ رحمه الله ـ : « والمعنى : وما أرسلنا من قبلك رسولا ولا نبيا . إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئا من الآيات ، ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ، ليجادلوه بالباطل ، ويردوا ماجاء به، كما قال ـ تعالى ـ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٦٤ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » . وقال - سبحانه - : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ... »

وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - « حرمت عليكم الميتة والدم ... » : إن محمدا يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله . وكقولهم عند سماع قراءته لقوله - تعالى - « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .. » إن عيسى قد عبد من دون الله ، وكذلك الملائكة قد عبدوا من دون الله ... »[1] .

والآية الكريمة على هذا التفسير - أيضاً - واضحة المعنى ، إذ المراد بما يلقيه الشيطان فى قراءة الرسول أو النبي ، تلك الشبه والأباطيل التى يلقيها فى عقول الضالين ، فيجعلهم يؤولونها تأويلا سقيما ويفهمونها فهما خاطئا .

وقوله - تعالى - : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » بيان لسنته - سبحانه - التى لا تتخلف فى إحقاق الحق . وإبطال الباطل .

وقوله « فينسخ » من النسخ بمعنى الإزالة . يقال : نسخت الشمس الظل إذا أزالته .

أي : فيزيل - سبحانه - بمقتضى قدرته وحكمته ما ألقاه الشيطان فى القلوب التى شاء الله - تعالى - لها الإيمان والثبات على الحق . ثم يحكم - سبحانه - آياته بأن يجعلها متقنة ، لا تقبل الرد ، ولا تحتمل الشك فى كونها من عنده - عز وجل - والله عليم بجميع شئون خلقه ، حكيم فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .

(١) تفسير الآلوسي ج١٧ ص ١٧٣ .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن الحكمة فى إلقاء الشيطان لشبهه وضلالته هى إمتحان الناس فقال : « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم .

أى : فعل ما فعل ـ سبحانه ـ ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه فى القلوب ، فتنة وإختبارا وإمتحانا ، للذين فى قلوبهم مرض ، أى : شك وإرتياب وهم المنافقون ، وللذين قست قلوبهم ، وهم الكافرون والمجاهرون بالجحود بالعناد .

فقوله ـ تعالى : « ليجعل ... متعلق « بألقى » أى : ألقى الشيطان فى أمنيه الرسل والأنبياء ليجعل الله ـ تعالى ـ ذلك الإلقاء فتنة الذين فى قلوبهم مرض .

ومعنى كونه فتنة لهم : أنه سبب لتماديهم فى الضلال ، وفى إصرارهم على الفسوق والعصيان .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة الفريقين فقال : « وإن الظالمين ، وهم من فى قلوبهم مرض ، ومن قست قلوبهم « لفى شقاق بعيد » أى لفى خلاف للحق شديد . بسبب نفاقهم وكفرهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس فى القلوب فقال :

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم » .

والضمير فى « أنه » يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم .

اى : وفعل ما فعل ـ سبحانه ـ أيضا ، ليعلم العلماء من عباده ، الذين حبب ـ سبحانه ـ إليهم الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك ، فيزدادوا إيمانا به « فتخبت لهم قلوبهم » أى : فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم .

« وإن الله » ـ تعالى ـ « لهادي الذين آمنوا » به وصدقوا أنبياءه ورسله « إلى صراط مستقيم » يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

هذا ، وقد أبطل العلماء ـ قديما وحديثا ـ قصة الغرانيق ، ومن العلماء القدماء الذين تصدوا لهذا الابطال الإمام الفخر الرازى ، فقد قال ما ملخصه : « قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول .

أما القرآن فمن وجوه منها قوله ـ تعالى ـ : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين » وقوله ـ سبحانه ـ : « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » : وقوله ـ عز وجل ـ « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى . . . »

وأما السنة ، فقد قال الإمام البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . وأيضا فقد روى البخارى فى صحيحه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ سورة « النجم » وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن ، وليس فيه حديث الغرانيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق .

وأما المعقول فمن وجوه منها : أن من جوز على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعظيم الأوثان فقد كفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى نفى الأوثان .

ومنها : أننا لو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه . . فإنه لافرق فى العقل بين النقصان من الوحى وبين الزيادة فيه .

فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة . أكثر مافى الباب أن جمعا من المفسرين ذكرها . لكنهم مابلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لايعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة »[1] .

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ١٦٧

وقال بعض العلماء ماملخصه: «أعلم أن مسألة الغرانيق مع إستحالتها شرعا ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج به، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب.

والحاصل: أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه - صلى الله عليه وسلم - شرعا ولو على سبيل السهو.

والذي يظهر لنا أنه الصواب: هو أن مايلقيه الشيطان فى قراءة النبى: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر أو أساطير الأولين ...

والدليل على هذا المعنى: أن الله - تعالى - بين أن الحكمة فى الإلقاء المذكور إمتحان الخلق، لأنه قال: «ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ...» ثم قال: «وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ...» فهذا يدل على أن الشيطان يلقى عليهم، أن الذى يقرؤه النبي ليس بحق، فيصدقه الأشقياء، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب، كما يزعم لهم الشيطان فى إلقائه ...»(١)

ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيستمرون على شكهم فى القرآن حتى تأتيهم الساعة، وأنه - تعالى - سيحكم بين الناس يوم القيامة، فيجازى الذين اساءوا بما عملوا. ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى. فقال - عز وجل -:

«ولا يَزالُ الذينَ كفرُوا فى مِرْيةٍ منْهُ حتى تأتيَهُم الساعةُ بغتَةً أوْ يأتيَهُم عذابُ يومٍ عَقِيمٍ (٥٥) المُلْكُ يومئذٍ للهِ يحكُم بينَهم، فالذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ فى جنَّاتِ النَّعيم (٥٦) والذينَ كفَرُوا

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٧٣١ لفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطى وراجع تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٧٥

وكذَّبوا بآياتِنـاَ فأولئِكَ لهم عذابٌ مُهينٌ (٥٧) والذينَ هاجَـروا فى سَبيلِ اللهِ ثمَّ قُتِلُوا أو ماتُوا ليرزُقَنَّهم اللهُ رِزْقاً حَسَناً وإنَّ اللهَ لهُوَ خـيرُ الرَّازقينَ (٥٨) ليُدْخِلَنَّهُمْ مدْخـلاً يرْضَونَهُ ، وإنَّ اللهَ لعَليمٌ حَليم (٥٩) » .

قال الجمل : « لما ذكر - سبحانه - حال الكافرين أولا ، ثم حال المؤمنين ثانيا ، عاد إلى شرح حال الكافرين ، فهو رجوع لقوله : « وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » والمرية بالكسر والضم . لغتان مشهورتان »(١) .

والضمير فى قوله : « منه » يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى ماجاء به الرسول من عند ربه ، وقيل إلى ما ألقاه الشيطان .

وقد رجح ابن جرير كونه للقرآن فقال : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : هى كناية عن ذكر القرآن الذى أحكم الله آياته وذلك أن ذلك من ذكر قوله : « وليعلم الذين أوتوا العلم . . . » أقرب منه من ذكر قوله « فينسخ الله مايلقى الشيطان . . . »(٢) .

والمعنى : ولايزال الذين كفروا فى شك وريب مما أوحاه الله إليك من قرآن ، بسبب قسوة قلوبهم ، واستيلاء الجحود والعناد على نفوسهم .

وسيستمرون على هذه الحال ، حتى تأتيهم الساعة ، أى : القيامة « بغتة » أى : فجأة « أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » أى : لا مثل له فى هوله وشدة عذابه ، ولا يوم بعده ، إذ كل يوم يلد مابعده من الأيام ، إلا هذا اليوم وهو القيامة فإنه لا يوم بعده .

قال ابن كثير : « وقوله : « أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » قال مجاهد : قال أبى بن كعب : هو يوم بدر .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٦ .
(٢) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٣٥ .

وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير.

وفى رواية عن عكرمة ومجاهد هو يوم القيامة لا ليلة له ، وكذا قال الضحاك والحسن .

وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به ، لكن هذا هو المراد . ولهذا قال : « الملك يومئذ لله يحكم بينهم » كقوله « مالك يوم الدين »(١) .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ، وشمول قهره لغيره فقال : « الملك يومئذ لله يحكم بينهم ... » والتنوين فى قوله « يومئذ » عوض عن جملة .

أى : السلطان القاهر ، والتصرف الكامل ، يوم تأتيهم الساعة بغتة أو يوم يأتيهم عذابها يكون لله - تعالى - وحده، كما أن الحكم بين الناس جميعا يكون له وحده - سبحانه - « فالذين آمنوا وعملوا » الأعمال « الصالحات » يكونون فى هذا اليوم « فى جنات النعيم » « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا» التى جاءتهم بها رسلنا « فأولئك لهم عذاب مهين » أى : لهم عذاب ينالون بسببه ما ينالون من هوان وذل .

« والذين هاجروا » من ديارهم « فى سبيل » إعلاء كلمة « الله » ونصرة دينه « ثم قتلوا » أى : قتلهم الكفار فى الجهاد « أو ماتوا » أى : على فراشهم.

هؤلاء وهؤلاء « ليرزقنهم الله » - تعالى - بفضله وكرمه « رزقا حسنا » يرضيهم ويسرهم يوم يلقونه ، حيث يبوئهم جنته .

قال - تعالى - : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .. »(٢) .

وقال - سبحانه - « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٤٢ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩

الموت فقد وقع أجره على الله »[1] .

وقوله - عز وجل - : « وإن الله لهو خير الرازقين » تذييل قصد به بيان أن عطاءه - سبحانه - فوق كل عطاء ، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب ، ويعطى من يشاء دون أن ينازعه منازع ، أو يعارضه معارض ، أو ينقص مما عنده شيء .

وقوله - تعالى - : « ليدخلنهم مدخلا يرضونه . . » استئناف مقرر لما قبله . و « مدخلا » أي : إدخالا ، من أدخل يدخل - بضم الياء - وهو مصدر ميمي للفعل الذي قبله ، والمفعول محذوف .

أي : ليدخلنهم الجنة إدخالا يرضونه .

وقرأ نافع « مدخلا » - بفتح الميم - على أنه اسم مكان أريد به الجنة . أي : ليدخلنهم مكانا يرضونه وهو الجنة .

« وإن الله » - تعالى - « لعليم » بالذي يرضيهم ، وبالذي يستحقه كل إنسان من خير أو شر « حليم » فلا يعاجل بالعقوبة ، بل يستر ويعفو عن كثير .

ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يقع عليهم العدوان بالنصر على من ظلمهم ، فقال - تعالى - :

« ذٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) » .

---

(١) سورة النساء آية ١٠٠

واسم الإشارة « ذلك » فى قوله - تعالى - « ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به .... »

يعود إلى ماذكره - سبحانه - قبل ذلك من أن الملك له يوم القيامة ، ومن الرزق الحسن الذى منحه للمهاجرين فى سبيله ثم قتلوا أو ماتوا .

والعقاب : مأخوذ من التعاقب ، وهو مجىء الشىء بعد غيره . والمراد به هنا : مجازاة الظالم بمثل ظلمه .

قال القرطبي : قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى قوم من مشركى مكة . لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقالوا : إن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم فى الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ، وحصل فى أنفس المسلمين شىء من القتال فى الشهر الحرام ، فأنزل الله الآية ...

فمعنى « من عاقب بمثل ماعوقب به » أى : من جازى الظالم بمثل ماظلمه ، فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين فى الصورة . فهى مثل : « وجزاء سيئة سيئة مثلها »(1) .

وقوله « ثم بغى عليه » أى : أن الظالم المبتدىء بالظلم عاد مرة أخرى فبغى على المظلوم وآذاه .

وقوله « لينصرنه الله » وعد مؤكد منه - سبحانه - بنصرة المظلوم . والجملة جواب قسم محذوف . أى والله لينصرن - سبحانه - المظلوم على الظالم فى الحال أو المآل .

وقوله : « إن الله لعفو غفور » تعليل للنصرة ، وبيان بأن المظلوم عندما

---

(1) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٩٠ .

ترك العفو عن الظالم ، لا يؤاخذه - سبحانه - على ذلك ، مادام لم يتجاوز فى رد العدوان الحدود المشروعة ، وهى الاقتصار على القصاص بالمثل .

أى : إن الله - تعالى - لكثير العفو عن عباده ، وكثير المغفرة لذنوبهم وخطاياهم .

ثم بين - سبحانه - أن نصره للمظلوم مرجعه إلى شمول قدرته على كل شىء ، فقال - تعالى - : « ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ... » .

ومعنى : يولج : يدخل يقال : ولج فلان منزله إذا دخله .

أى : ذلك الذى فعلناه من نصرة المبغى عليه على الباغى ، كائن بسبب أن قدرتنا لا يعجزها شىء ، ومن مظاهر ذلك : أننا ندخل جزءا من الليل فى النهار فيقصر الليل ويزيد النهار . وندخل جزءا من النهار فى الليل فيحصل العكس . وأنتم ترون ذلك بأعينكم وتشاهدون كيف يسيران بهذا النظام البديع .

« وأن الله سميع عليم » أى : وأن الله - تعالى - سميع لكل المسموعات ، بصير بكل المبصرات ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله - سبحانه - : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ... » بيان لحقيته - عز وجل - للعبادة والطاعة والخضوع التام .

واسم الإشارة يعود إلى ما وصف به نفسه قبل ذلك من صفات القدرة الباهرة والعلم التام ..

أى : ذلك الذى تراه - أيها العاقل - فى هذا الكون من مخلوقات ، ومن نصر المظلوم ، ومن إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ، سببه أن الله - تعالى - هو الإله الحق الذى يجب أن تعنو له الوجوه . وأن ما عداه من معبودات آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان .

« وأن الله » ـ تعالى ـ وحده « هو العلى » أى : العالى على جميع الكائنات بقدرته ، وكل شىء دونه « الكبير » أى : العظيم الذى لا يدانيه فى عظمته أحد.

وأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصفت الله ـ تعالى ـ بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك مايدل على سعة فضله ورحمته بعباده فقال :

« أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ من السَّماء ماءً فَتُصبِح الأرضُ مُخضَرَّةً ، إنَّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ (٦٣) لهُ ما فى السَّمواتِ وما فى الأرضِ وإنَّ الله لهُوَ الغَنِىُّ الحميد (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لكم ما فى الأرضِ ، والفُلْكَ تجرِى فى البَحْرِ بأمْرِه ، ويُمْسِك السَّماء أنْ تقعَ عَلَى الأرضِ إلاَّ بإذنِه ، إنَّ الله بالنَّاسِ لرءوفٌ رحيمٌ (٦٥) وهُو الذى أحْيا كُم ثمَّ يُمِيتكُم ثمَّ يُحْيِيكُم ، إنَّ الإنسانَ لكَفُورٌ (٦٦) » .

والاستفهام فى قوله : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . . . » للتقرير .

وقوله : « مخضرة » أى : ذات خضرة بسبب النبات الذى ينبته الله فيها بعد نزول المطر عليها .

والمعنى : لقد رأيت ببصرك ، أيها المخاطب ، أن الله ـ تعالى ـ قد أنزل من السماء ماء ، فتصير الأرض بسببه ذات خضرة ، وفى ذلك أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وعظيم رحمته بعباده .

وقال ـ سبحانه ـ « فتصبح » بصيغة المضارع ، لاستحضار صورة الاخضرار ، الذى اتصفت به الأرض بعد نزول المطر عليها ، وصيغة الماضى لا تفيد دوام استحضارها ، لأن الفعل الماضى يفيد انقطاع ...

ولم ينصب هذا الفعل المضارع فى جواب الاستفهام ، لأن الاستفهام تقريرى فهو فى معنى الخبر ، والخبر لا جواب له ، فكأنه قيل : لقد رأيت ، ولأن السببية هنا غير متحققة ، إذ الرؤية لا يتسبب عنها إخضرار الأرض ، وإنما اخضرارها يكون بسبب نزول المطر .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك فقال : «فإن قلت : هلا قيل : فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟

قلت : لنكتة فيه وهى إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم على فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكراً له . ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع . فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام ؟

قلت : لو نصب لأعطى ماهو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفى الإخضرار . مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر ، إن نصبته فأنت ناف لشكره . شاك تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر . وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله »(١) .

وقال بعض العلماء ماملخصه : «فإن قيل : كيف قال فتصبح مع أن اخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر ؟

فالجواب : أن تصبح هنا بمعنى تصير ، والعرب تقول : فلان أصبح غنياً ، أى : صار غنيا . أو أن الفاء للتعقيب ، وتعقيب كل شىء بحسبه ، كقوله - تعالى - : «ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما . . » مع أن بين كل شيئين أربعين يوما ، جاء فى الحديث الصحيح . . . »(٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : «إن الله لطيف خبير» أى : إن الله - تعالى - لطيف بعباده .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٧٤٢ .

ومن مظاهر لطفه بهم ، إنزاله المطر على الأرض للانتفاع بما تنبته من كل زوج بهيج ، وهو - تعالى - خبير بأحوال عباده . لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من هذه الأحوال .

فإنه - سبحانه - « له ما فى السموات وما فى الأرض » خلقا وملكا وتصرفا « وإن الله لهو الغنى » عن كل ما سواه « الحميد » أى : المستوجب للحمد من كل خلقه .

وقوله - تعالى - : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . . . » بيان لألوان أخرى من النعم التى أنعم بها على بنى آدم .

أى : لقد علمت - أيضا - أيها العاقل ، أن الله - تعالى - سخر لكم - يا بنى آدم - ما فى الأرض من دواب وشجر وأنهار ، وغير ذلك مما تحتاجونه لحياتكم ، وسخر لمنفعتكم السفن التى تجرى فى البحر بتقديره وإرادته وإذنه .

وهو - سبحانه - الذى يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض ، فتهلك من فيها ولو شاء لأذن لها فى الوقوع فسقطت على الأرض فأهلكت من عليها .

قال الجمل : « وقوله : « إلا بإذنه » : الظاهر أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وهو لا يقع إلا فى الكلام الموجب ، إلا أن قوله : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض » فى قوة النفى . أى : لا يتركها تقع فى حالة من الأحوال إلا فى حالة كونها ملتبسة بمشيئة الله - تعالى - « فالباء للملابسة »[1] .

وقوله - سبحانه - : إن الله بالناس لرءوف رحيم » أى : لكثير الرأفة والرحمة بهم ، ومن علامات ذلك أنه سخر لهم ما فى الأرض ، وسخر لهم الفلك . وأمسك السماء عنهم ، ولم يسقطها عليهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٨ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا»(١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بما هو أجلها وأعظمها فقال : «وهو الذي أحياكم» أي . بعد أن كنتم أمواتا فى بطون أمهاتكم ، وقبل أن ينفخ بقدرته الروح فيكم .

«ثم يحييكم» أي : عند البعث والحساب .

«إن الإنسان لكفور» أي : لكثير الجحود والكفران لنعم ربه التي لا تحصى .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا متعددة من الأدلة على قدرته - سبحانه - ، كما ذكرت ألوانا من نعمه على عباده ، ومن ذلك إنزال الماء من السماء فتصبح الأرض مخضرة بعد أن كانت يابسة . وتسخير ما فى الأرض للإنسان ، وتسخير الفلك لخدمته ومنفعته ، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بمشيئته - تعالى - وإيجادنا من العدم بقدرته ورحمته .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة دلائل قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده أتبعت ذلك ببيان أنه - سبحانه - قد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يمضى فى طريقه لتبليغ رسالة الله - تعالى - دون أن يلتفت إلى مراء المشركين له ، وأن يفوض الحكم فيهم إليه - سبحانه - فهو العليم بكل شيء ، فقال - تعالى - :

«لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ

(١) سورة فاطر الآية ٤١ .

تختلفون (٦٩) ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب، إن ذلك على الله يسير (٧٠) ».

قال الآلوسى: «قوله ـ تعالى ـ : «لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه...» كلام مستأنف جىء به لزجر معاصريه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل الأديان السماوية عن منازعته، ببيان حال ماتمسكوا به الشرائع، وإظهار خطائهم»[1].

والمراد بالأمة هنا: القوم الذين يدينون بشريعة معينة. والمراد بالمنسك المنهج والشريعة التى يتبعونها فى عقيدتهم وفى معاملاتهم..

أى: شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة منهجا يسيرون عليه فى اعتقادهم وفى طريقة حياتهم، فالأمة التى وجدت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ـ عليهما السلام ـ شريعتها التوراة، والأمة التى وجدت من مبعث عيسى حتى مبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شريعتها الإنجيل. والأمة التى وجدت منذ مبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يوم القيامة شريعتها القرآن.

وعلى كل أمة أدركت بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تتبعه فيما جاء به من عند ربه، لأن شريعته هى الشريعة الناسخة لما قبلها، والمهيمنة عليها.

ويرى بعضهم أن المراد بالمنسك هنا: المكان الذى يذبحون فيه ذبائحهم تقربا إلى الله ـ تعالى ـ.

وقد رجح الإمام ابن جرير ذلك فقال ماملخصه: «وأصل المنسك فى كلام العرب: الموضع المعتاد الذى يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر. يقال: إن لفلان منسكا يعتاده، يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر. وقد اختلف أهل التأويل فى معنى المنسك هنا: فقيل: عيدا، وقيل: إراقة الدم... والصواب من القول فى ذلك أن يقال: عنى بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى، لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ١٢٨

كانت إراقة الدم فى هذه الأيام.. ولذلك قلنا : عنى بالمنسك فى هـذا الموضع : الذبح....[1] .

ويبدو لنا أن القول الأول ،وهو تفسير المنسك بالشريعة الخاصة أقرب إلى الصواب لشموله للذبح وغيره .

والضمير فى قوله : «هم ناسكوه» يعود لـكل أمة .

أى : جعلنا لـكل أمة شريعة تسير على تعاليمها ، وتنهج على نهجها ..

والفاء فى قوله - تعالى - : «فـلا ينازعك فى الأمر» لترتيب النهى على ماقبلها .

والمنازعة : المجادلة والمخاصمة . والمراد بالأمر : ماجاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه - تعالى - من تشريعات وأحكام .

أى : قد جعلنا لـكل أمة من الأمم السابقة شريعة تتبع تعاليمها ، ومادام الأمر كذلك ، فاسلك أنت وأتباعك - أيها الرسول الكريم - الشريعة التى أوحيناها إليك ، وأمرناك باتباعها ، ولا تلتفت إلى مخاصمة من ينازعك فى ذلك من اليهود أو النصارى أو غيرهم ، فإن منازعتهم لك فيما جئت به من عند ربك ، يدل على جهلهم وسوء تفكيرهم ، لأن ماجئت به من عند ربك مصدق لشريعتهم ، ومهيمن عليها وناسخ لها .

ثم أرشده - سبحانه - إلى مايجب عليه نحو دينه فقال : «وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم» .

أى : وادع هؤلاء الذين ينازعونك فيما جئتهم به من الحق،وادع غيرهم معهم إلى ترك التنازع والتخاصم ، وإلى الدخول فى دين الإسلام ، فإنك أنت على الصراط المستقيم ، الذى لا إعوجاج فيه ولا التباس .

ثم بين له - سبحانه - ما يفعله إذا ما جادلوا فى منازعتهم له فقال : «وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون» .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ١٠٥ .

أى : وإن أبوا إلا مجادلتك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم - أيها الرسول الكريم : أمرى وأمركم إلى الله - تعالى - ، فهو الذى يتولى الحكم بينى وبينكم يوم القيامة ، لأنه - سبحانه - هو العليم بحالى وحالكم .

وهذه الجملة الكريمة قد تضمنت تهديدهم على استمرارهم فى جدالهم بعد أن تبين لهم الحق ، كما تضمنت وجوب إعراض الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنهم .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والإعراض فقال : « الله يحكم بينكم » أيها المسلمون وبين هؤلاء الكافرين « يوم القيامة فيما كنتم فيه » فى الدنيا « تختلفون » من أمر هذا الدين وحينئذ يتبين من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وسيجازى - سبحانه - كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتأكيد علمه بكل شىء فقال : « ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ... » .

أى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وتيقنت ، أن الله - تعالى - لا يعزب عن علمه مثقال ذرة مما يحصل فى السموات والأرض من أقوال أو أفعال .

« إن ذلك » الذى يجرى فى السموات والأرض كائن وثابت « فى كتاب » هو اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحوال الخلق .

« إن ذلك » الذى ذكرناه لك من الحكم بين الناس ، ومن العلم بأحوالهم ومن تسجيل أعمالهم « على الله » - تعالى - « يسير » وهين ، لأنه - سبحانه - له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

ثم وبخ - سبحانه - الكافرين على جهلهم ، حيث عبدوا من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وحيث كرهوا الحق وأصحابه ، فقال - تعالى - :

« ويَعبُدُونَ من دونِ اللهِ مالَمْ يُنزِّلْ بهِ سُلطاناً ، وما ليسَ لَهُم بِه علمٌ وما للظَّالمينَ مِنْ نَصير (٧١) وإذَا تُتلَى عليهمْ آياتُنَا بيناتٍ

تعرِفُ فى وجُوهِ الذينَ كفَرُوا المنكرَ ، يكادُونَ يَسْطونَ بالذينَ يتلُونَ عليهِمْ آياتِنَا ، قلْ أَفأُنَبِّئُكُم بشرٍّ من ذلِكُم ، النارُ وعدَها اللهُ الذينَ كفَرُوا وبِئْسَ المصيرُ (٧٢) » .

[illegible] هؤلاء المشركين الذين ينازعونك فيما جئتهم به من عند ربك ، يتر[illegible] وهم إليه - أيها الرسول الكريم - من إخلاص العبادة لله - تعالى - ويعبدون من دونه - سبحانه - آلهة أخرى . لا دليل لهم على عبادتها من عقل أو نقل .

إذ قوله - سبحانه - : « مالم ينزل به سلطانا » نفى لأن يكون لهم دليل سمعى على عبادتها وقوله - تعالى - « وما ليس لهم به علم » نفى لأن يكون لهم عقل على عبادتها .

والتنكير فى قوله « سلطانا وعلم » للتقليل . أى : لا دليل لهم أصلا لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، ومع ذلك يتمسكون بهذه العبادة الباطلة .

وقوله - تعالى - « وما للظالمين من نصير » تهديد بسوء المصير لهؤلاء المشركين .

أى : وما للظالمين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها ، من نصير ينصرهم من عقاب الله وعذابه ، لأنهم بسبب عبادتهم لغير الله - تعالى - ، قد قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة .

ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب ضلالهم ، تأخذهم العزة بالإثم إذا ما نصحهم الناصحون بالإقلاع عن هذا الضلال فقال : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا . . . . »

وقوله : « يسطون » من السطو ، بمعنى الوثب والبطش بالغير . يقال : سطا فلان على فلان ، إذا بطش به بضرب أو شتم أو سرقة أو ما يشبه ذلك .

أى : وإذا تتلى على هؤلاء الظالمين ، آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، من قبل عبادنا المؤمنين « تعرف » - أيها الرسول الكريم - « فى وجوه الذين كفروا » بهذه الآيات البينات « المنكر » أى : ترى فى وجوههم الإنكار لها ، والغضب منها ومن قارئها ، والكراهية والعبوس عند سماعها .

بل ويكادون فوق ذلك ، يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا ، ويعتدون عليهم بالسب تارة . وبالضرب تارة أخرى .

وذلك لأن هؤلاء الظالمين ، حين عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا إلى السطو والعدوان ، وهذا شأن الطغاة الجاهلين فى كل زمان ومكان .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهؤلاء الطغاة على سبيل التهديد والوعيد ، ما من شأنه أن يردعهم عن سطوهم وبغيهم فقال : « قل أفأنبئكم بشر من ذلكم » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين ألا أخبركم بما هو أشد ألما من غيظكم على من يتلو عليكم آياته ، ومن همكم بالسطو عليه ؟

أشد من كل ذلك « النار » التى « وعدها الله الذين كفروا » أى : وعدهم بدخولها ، وباصطلاء بسعيرها « وبئس المصير » مصير هؤلاء الكافرين .

قال الجمل : « وقوله : « النار » خبر مبتدأ محذوف ، كأن سائلا سأل فقال : وما الأشر ؟ فقيل : النار ، أى : هو النار . وحينئذ فالوقف على ذلكم ، أو على النار .

ويصح أن يكون لفظ النار مبتدأ ، والخبر : وعدها الله . وعلى هذا فالوقف على : كفروا . . . »[1] .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس . بين فيه أن كل آلهة تعبد من دونه - عز وجل - فهى باطلة وهى أعجز من أن تدافع عن نفسها ، وأن كل عابد لها هو جاهل ظالم . فقال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٨ .

« يأيها الناسُ ضُرب مثلٌ فاستَمِعوا له ، إنَّ الذينَ تدعُونَ مِنْ دونِ اللهِ لَنْ يخلُقُوا ذُبابًا ولوِ اجتَمعوا لهُ ، وإنْ يَسْلبْهم الذُّباب شَيئًا لا يَستنقِذُوه منهُ ضَعُفَ الطَّالبُ والمطلوبُ (٧٣) ما قدَرُوا اللهَ حقَّ قدْرِه ، إنَّ اللهَ لقوِىٌّ عزيزٌ (٧٤) اللهُ يَصْطفِى مِنَ الملائكةِ رُسُلاً ومِنَ الناسِ إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ (٧٥) يعلمُ ما بينَ أيديهمْ وما خلفَهم وإلى اللهِ تُرجعُ الأُمور (٧٦) » .

والمثل : الشبيه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - بمورده وهو الذى ورد فيه أولا ، ولا يكون إلا لما فيه غرابة .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الشاهد ، فيكون المعنى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

وسمى الله - تعالى - ماساقه فى هذه الآية الكريمة مثلا . لأن مايفعله المشركون من عبادتهم لآلهة عاجزة، يشبه المثل فى غرابته وفى التعجب من فعله .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : الذى جاء به - سبحانه - ليس بمثل، فكيف سماه مثلا ؟

قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستغراب مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم »(١) .

والمعنى : يأيها الناس لقد بينا لكم قصة مستغربة . وحالا عجيبة، لما يعبد من دون الله - تعالى - فاستمعوا إليها بتدبر وتعقل .

وقوله : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ... » بيان للمثل وتفسير له .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٧١ .

والذباب : اسم جنس واحدة ذبابة - وهي حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها .

أي : إن المعبودات الباطلة التي تعبدونها أيها المشركون ، لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة ، حتى لو اشتركت جميعها في محاولة خلق هذه الذبابة .

قال صاحب الكشاف : وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش ، واستركاك عقولهم . والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه - أي قدر ربطهم برباطه ، حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها - صورا وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا ... »[1] .

وقوله - سبحانه - : « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » بيان لعجز تلك الآلهة الباطلة عن أمر آخر سوى الخلق .

أي : وفضلا عن عجز تلك الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة ، فإنها إذا اختطف الذباب منها شيئا من الأشياء لا تستطيع استرداده منه لعجزها عن ذلك .

قال القرطبي : « وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ، ولاستقذاره وكثرته . وإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبدوه من دون الله - تعالى - على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان »[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما على عجز الخاطف والمخطوف منه فقال : « ضعف الطالب والمطلوب » .

قال الآلوسي : « والطالب : عابد غير الله - تعالى - والمطلوب الآلهة . وكون عابد ذلك طالب لدعائه إياه ، واعتقاده نفعه ، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته ، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٧١ . (٢) تفسير القرطبي جـ ١٢ ص ٩٧ .

وقيل : « الطالب الذباب يطلب مايسلبه من الآلهة ، والمطلوب : الآلهة .
على معنى المطلوب منه مايسلب ... »(١) .

وعلى أية حال فإن هذا التعليل يدل دلالة واضحة على عجز كل معبود باطل . وأنه قد تساوى فى عجزه مع أضعف مخلوقات الله وأحقرها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، قد وضعوا الأمور فى غير موضعها ، لجهلهم وغبائهم فقال : « ماقدروا الله حق قدره .... » .

أى : ماعظموا الله حق تعظيمه ، وماعرفوه حق معرفته ، حيث تركوا عبادة الواحد القهار ، وعبدوا مايعجز عن رد ماسلبه الذباب منه .

« إن الله لقوى » على خلق كل شىء « عزيز » لا يغالبه مغالب ، ولا يدافعه مدافع .

ثم بين - سبحانه - أن له مطلق التصرف فى إختيار رسله فقال : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس .... » .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يختار من بين ملائكته رسلا يرسلهم لتبليغ وحيه إلى أنبيائه ، كما إختار جبريل - عليه السلام - لهذه الوظيفة . وهو الذى يختار من بين الناس رسلا ، كما إختار إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم لهذه المهمة ، فهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

« إن الله » تعالى - « سميع » لأقوال عباده « بصير » بأحوالهم ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

« يعلم مابين أيديهم وما خلفهم » أى : يعلم ماقدموا من أعمال ، ومايعملون الآن ، وما سيعملونه فى المستقبل ، إذ أن علمه - سبحانه - ليس مقيدا بزمان أو مكان « وإلى الله » تعالى وحده « ترجع الأمور » كلها لا إلى غيره .

ثم وجه - سبحانه - فى نهاية السورة نداء إلى عباده المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ، وبالإخلاص فى عبادته ، وبالجهاد فى سبيله ، وبالإعتصام بحبله ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٢٠٢ .

« يأيُّهَا الذينَ آمنُوا اركَعوا واسْجدُوا ، واعبدُوا ربَّكُم ، وافعلُوا الخيرَ لَعلكُم تُفلحُون (٧٧) وجاهِدُوا فى اللهِ حقَّ جهادِه هو اجْتباكُم، وما جَعل عليكُم فى الدِّينِ من حَرجٍ ، ملَّةَ أبيكُم إبراهيمَ . هُوَ سَماكُم المسلِمينَ من قبلُ ، وفى هذَا ليكُون الرَّسُولُ شهِيداً عليكُم وتكُونوا شهدَاء على النَّاسِ ، فأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزكاةَ، واعتصِمُوا باللهِ هو مَوْلاكُم ، فنِعْمَ المولَى ونِعْمَ النصيرُ (٧٨) » .

والمراد بالركوع والسجود هنا : الصلاة ، وعبر عنها بهما ، لأنهما أهم أركانها وناداهم ـ سبحانه ـ بصفة الإيمان ، لحضهم على الامتثال لما أمروا به.

أى : يامن آمنتم بالله ـ تعالى ـ وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر حافظوا على أداء الصلاة فى مواقيتها بخشوع وإخلاص ، لأن هذه الصلاة من شأنها أن تنهاكم عن الفحشاء والمنكر ، وأن ترفع درجاتكم عند خالقكم .

وقوله ـ تعالى ـ : « واعبدوا ربكم » أى : واعبدوا ربكم الذى تولاكم برعايته وتربيته فى كل مراحل حياتكم ، عبادة خالصة لوجهه الكريم .

وقوله : « وافعلوا الخير » تعميم بعد التخصيص، إذ فعل الخير يشمل كل قول عمل يرضى الله ـ تعالى ـ كالإنفاق المال فى وجوه البر ، وكصلة الرحم وكالإحسان إلى الجار ، وكغير ذلك من الأفعال التى حضت عليها تعاليم الإسلام.

وقوله ـ تعالى ـ : « لعلكم تفلحون » تذييل قصد به التحريض على امتثال ما أمرهم الله ـ تعالى ـ به والفلاح : الظفر بالمطلوب .

أى أدوا الصلاة بخشوع ومواظبة، واعبدوا ربكم عبادة خالصة، وافعلوا الخير الذى يقربكم من خالقكم ، لكى تنالوا رضاه وثوابه ـ عز وجل ـ .

فكلمة « لعل » للتعليل ، ويصح أن تكون على معناها الحقيقى وهو الرجاء

ولكن على تقدير صدوره من العباد، فيكون المعنى: وافعلوا الخير حالة كونهم راجين الفلاح، ومتوقعين الفوز والنجاح.

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها أنها قد جمعت أنواع التكاليف الشرعية، وأحاطت بها من كل جوانبها.

قال الآلوسى ما ملخصه: «وهذه الآية آية سجدة عند الشافعى وأحمد، لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود، والحديث عقبة بن عامر قال: قلت يارسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم. فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما.

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها ليست آية سجدة. لأنها مقرونة بالأمر بالركوع، والمعهود فى مثله من القرآن، كونه أمرا بما هو ركن للصلاة، كما فى قوله - تعالى -: «يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» وماروى من حديث عقبة إسناده ليس بالقوى..»[1].

وبعد أن أمر - سبحانه - بالصلاة وبالعبادة وبفعل الخير، أتبع ذلك بالأمر بالجهاد فقال - تعالى -: «وجاهدوا فى الله حق جهاده».

والجهاد مأخوذ من الجهد، وهو بذل أقصى الطاقة فى مدافعة العدو.

وهو أنواع: أعظمها: جهاد أعداء الله - تعالى - من الكفار والمنافقين والظالمين والمبتدعين فى دين الله - تعالى - ماليس منه.

كذلك من أنواع الجهاد: جهاد النفس الأمارة بالسوء وجهاد الشيطان.

وإضافة حق إلى جهاد فى قوله: «حق جهاده» إضافة الصفة إلى الموصوف أى: وجاهدوا - أيها المؤمنون - فى سبيل الله - تعالى - ومن أجل إعلاء كلمته، ونصر شريعته، جهادا كاملا صادقا لا تردد معه ولا تراجع.

قال صاحب الكشاف: «قوله: «وجاهدوا..» أمر بالغزو وبمجاهدة

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٧ ص ٢٠٨.

النفس والهوى . وهو الجهاد الأكبر . عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه رجع من بعض غزواته فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر في الله » ، أي : في ذات الله ومن أجله . يقال : هو حق عالم ، وجد عالم ، ومنه « حق جهاده » .

«إن قلت : ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه ، أو حق جهادكم فيه ، كما قال : « وجاهدوا في الله » ؟

قلت الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص . فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله ، صحت إضافته إليه . . .»(1) .

وجملة « هو اجتباكم » مستأنفة ، لبيان علة الأمر بالجهاد . والاجتباء : الاختيار والاصطفاء .

أي: جاهدوا - أيها المؤمنون - من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنه - سبحانه - هو الذي اختاركم للذب عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه وجدير بمن اختاره الله واصطفاه . أن يكون مطيعا له .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه بعباده فقال : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » .

أي : ومن مظاهر رحمته بكم - أيها المؤمنون - أنه سبحانه - لم يشرع في هذا الدين الذي تدينون به ما فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم ، وإنما جعل أمر هذا الدين ، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التي تدل على ذلك : أن الضرر يزال . وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها ، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب .

ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله - تعالى - : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، وقوله - سبحانه - : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

---

(1) تفسير الكشاف جـ٣ ص ١٧٣ .

وفى الحديث الشريف : « بعثت بالحنيفية السمحاء » .

قال بعض العلماء : « وأنت خبير بأن هناك فرقا كبيرا ، بين المشقة فى الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعى ، إذ التكليف هو التزام مافيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التى تصل إلى حد الحرج ، فهى المرفوعة عن المكلفين .

فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداءها ، وهذا شىء لا حرج فيه . ثم هو إذا لم يستطع الصلاة من قيام ، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء ... وهكذا جميع التكاليف الشرعية ... »[1] .

والخلاصة أن هذا الدين الذى جاءنا به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عنده ـ عز وجل ـ مبنى على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا ، هم الناكبون عن هديه ، الخارجون على تعاليمه .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : «ورفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ... »[2] .

والمراد بالملة فى قوله ـ تعالى ـ : « ملة أبيكم إبراهيم » الدين والشريعة .
ولفظ « ملة » هنا منصوب بنزع الخافض .

أى : ماجعل عليكم ـ أيها المؤمنون ـ فى دينكم من حرج ، كما لم يجعل ذلك ـ أيضاً ـ فى ملة أبيكم إبراهيم .

ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل دل عليه ماقبله من نفى الحرج ، بعد حذف المصدر المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . أى : وسع عليكم فى دينكم توسعة ملة أبيكم .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ٣ ص٩٨ للمرحوم الشيخ محمد على السايس .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٠١ .

ووصف - سبحانه - إبراهيم - عليه السلام - بالأبوة لهذه الأمة ، لأن رسول هذه الأمة - صلى الله عليه وسلم - ينتهى نسبه إلى إبراهيم . ورسول هذه الأمة - صلى الله عليه وسلم - كالأب لها من حيث إنه - صلى الله عليه وسلم - جاءها من عند ربه - عز وجل - بما يحييها ويسعدها .

والضمير « هو » فى قوله - تعالى - : « هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » يعود إلى الله - تعالى - أى : هو - سبحانه - الذى سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن ، وسماكم - أيضا - بهذا الإسم فى هذا القرآن .

وقيل : الضمير « هو » يعود إلى إبراهيم . أى : إبراهيم هو الذى سماكم المسلمين .

ومن وجوه ضعف هذا القول : أن الله - تعالى - قال : « وفى هذا » أى سماكم المسلمين فى هذا القرآن ، وإبراهيم - عليه السلام - لحق بربه قبل نزول هذا القرآن فأزمان طويلة ، وأيضا فإن السياق يؤيد أن الضمير « هو » يعود إلى الله - تعالى - لأن الأفعال السابقة كقوله « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » تعود إليه - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - أسباب هذا الاجتباء والاصطفاء فقال : « ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » .

والمراد بشهادة الرسول على أمته : الإخبار بأنه قد بلغهم رسالة ربه .

والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس : الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله - تعالى - إلى هؤلاء الناس ، قد بلغوهم رسالة ربهم ، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده .

ويؤيد ذلك مارواه البخارى عن أبى سعيد الخدري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يدعى نوح - عليه السلام - يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب . فيقال له : هل بلغت ماأرسلت به ؟ فيقول : نعم .

فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ماأتانا من نذير . فيقال له : من يشهد لك؟ فيقول : محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »(١) .

والمعنى: فعلنا مافعلنا من اجتبائكم ، والتيسير عليكم ، وتسميتكم بالمسلمين ، ليكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر بتبليغه إليكم ، ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم رسالة ربهم .

ومادام الأمر كذلك « فأقيموا الصلاة » أيها المؤمنون بأن تؤدوها في أوقاتها بإخلاص وخشوع « وآتوا الزكاة » التي كلفكم الله - تعالى - بإيتائها إلى مستحقيها « واعتصموا بالله » أي : التجئوا إليه . واستعينوا به في كل أموركم، فإنه - سبحانه - « هو مولاكم » أي: ناصركم ومتولى شئونكم، ومالك أمركم ، وهو - تعالى - « فنعم المولى ونعم النصير » أي : هو - عز وجل - نعم المالك العظيم لأمركم ، ونعم النصير القوى لشأنكم .

وبعد : فهذه سورة الحج ، وهذا تفسير محرر لها .

نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة — مدينة نصر | د / محمد سيد طنطاوى
الثلاثاء ٢٧ من صفر سنة ١٤٠٥ هـ | مفتى جمهورية مصر العربية
الموافق ٢٠/١١/١٩٨٤ م

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

فهرس إجمالي لتفسير « سورة الحج »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقــدمة والتمهيد	٣٤١
١	يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة ...	٣٥٠
٣	ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ...	٣٥٤
٥	يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ...	٣٥٦
٨	ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ...	٣٦٣
١٤	إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...	٣٦٩
١٥	من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ...	٣٧٠
١٧	إن الذين آمنوا والذين هادوا ...	٣٧٣
١٨	ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ..	٣٧٥
١٩	هذان خصمان اختصموا فى ربهم ...	٣٧٧
٢٥	إن الذين كفروا ويصدون ...	٣٨٢
٣٠	ذلك ومن يعظم حرمات الله ...	٣٩١
٣٤	ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا ...	٣٩٨
٣٨	إن الله يدافع عن الذين آمنوا ...	٤٠٤
٤٢	وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم ...	٤١٠
٥٢	وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ...	٤١٧
٥٥	ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه ...	٤٢٤
٦٠	ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ...	٤٢٧
٦٣	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ...	٤٣٠
٦٧	لكل أمة جعلنا منسكا ...	٤٣٣
٧١	ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا ...	٤٣٦
٧٣	يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ...	٤٣٩
٧٧	يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ...	٤٤٢